
رضوى عاشور
"فرج"
رواية
حلمي التوني
2008
دار الشروق

"فَرَج"

الطبعـة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٨٧٦٩
ISBN 978-977-09-2386-5

٨ شـارع سيبويـه المصـرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكـس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رضوى عاشور

"فرج"

رواية

دار الشروق





الفصل الأول

الصغيرة تصاب بالحُمّى

محطة مصر. أوسِّع الخطو، أكاد أهرول، ألاحق أمي، أخشى أن تسبقني فتبتعد ولو خطوة واحدة. توبّخني همسًا: «لماذا تقبضين على يدي هكذا، يدي تؤلمني!» تحاول يدها الإفلات فأزداد تشبثًا. أمي منهمكة في الحديث مع السيدة البدينة التي تحمل رضيعًا. على الرصيف في انتظار وصول القطار، يبتسم لي رجل ضخم له شارب كث وشعر أبيض. يسألني عن اسمي فأدير رأسي بعيدًا. تلتقي عيوننا مرة أخرى فيبتسم، يقول: «أنت بنت جميلة جدًا!» تقول أمي بالفرنسية: «قولي شكرًا للسيد!» أتشاغل بإحكام رباط حذائي. تعود أمي للحديث مع السيدة البدينة، التفتُ إلى الرجل وأخرج له لساني.

لم يكن الزحام وحده، ولا الضجيج ولا الفوضى، بل بداية تدمير شرس ومتلاحق لكل ما بناه خيالي في الأيام السابقة.

شغلتني الزيارة، أفكر فيها، أتحدث عنها، أعدّ لها وأشكِّل بالخيال تفاصيلها، أتمِّم على السلّة الكبيرة التي رصّت فيها أمي المأكولات. أذكِّرها بشيء ناقص، أعدِّل، أقترح وأضيف. وفي كتمان أعد أشيائي

الخاصة التي سأشاركه فيها، أودعها حقيبتي الصغيرة: صورتي بملابس المدرسة، الكرّاس الذي تزيّن ثلاثا من صفحاته نجمة ذهبية، لوحان من الشيكولاتة.

ـ ماما، هل سيتعرف عليّ؟!

ـ طبعًا!

ـ ولكني كبرت كثيرًا، أليس كذلك؟

ـ طبعًا!

ـ كم شبر؟

ـ لا أفهم!

ـ كبرت كم شبرًا؟

ـ ربما شبرًا ونصف!

ـ هل كان شعري قصيرًا أم طويلاً حين ذهب؟

ـ كان قصيرًا.

ـ هل تعتقدي أنه سيحبني أكثر بالضفيرة؟ هل أقص شعري أم أبقيه طويلاً؟ ربما يحب ذيل الحصان أكثر! سأرتدي الثوب الأحمر، جميل جدًا الثوب الأحمر!

ـ سنأخذه معنا لترتديه في اليوم التالي.

قضت أمي نصف نهار لإقناعي بارتداء ثوب آخر للسفر. بدا لي كلامها معقولا فوافقت، لكن مغادرتي البيت بهيئة غير التي تخيّلتها وأردتها، كانت بداية النكد. كرهت الثوب الآخر، كرهت ملمسه على جلدي، شعرت به خشنًا كأنه مصنوع من الشوك، وللحظة ونحن في محطة القطار فكرت في خلعه.

قال لي خيالي، وأمي أيضا ساهمت في القول، إن الطريق إليه مفروشٌ بالورود: قطار جميل سريع يمر بالحقول الخضراء. أتت أمي بكتابها الضخم، فتحته على خريطة مصر. قالت: وهي تشير بإصبعها قرب التقاء خطّي الهرم المقلوب:

ـ نركب القطار من هنا

ثم وهي تنزلق نزولاً بإصبعها على خط النيل،

ـ إلى هنا، سننزل في مدينة أسيوط في مصر العليا.

ـ مصر العليا؟

أفلتت مني ضحكة عالية:

ـ إصبعك يشير إلى تحت!

بدأت تشرح. قاطعتها.

ـ أين الأشجار؟ لا أرى أشجارًا ولا حيوانات!

ـ لا تظهر في الخريطة، لكنك سترينها بنفسك: النخل والجمّيز والصفصاف والكافور، وحقول القطن والذرة والبرسيم، وأيضا ستشاهدين البقر والجاموس، والغنم والماعز، والجمال والحمير وطيور الحقل، كلها تشاهدينها من نافذة القطار وأنت مستقرة بجواري على مقعدك كأنك في السينما، وكأنك في السينما يمرّ بائع المشروبات المثلّجة فاشتري لك.

عادت إلى الخريطة. حركت إصبعها يسارًا، بعيدًا عن خط النيل:

ـ ستحملنا السيارة إلى بابا عبر الصحراء. سترين الصحراء، بديعة هي الصحراء!

ـ هل يمكن أن ألوّن الخريطة؟

ـ في الكتاب؟!

لا بد أن أمي كانت في حالة مزاجية استثنائية لأنها بعد السؤال الذي بدا مُستنكِرًا، مرت دقيقة صمت، أعقبها تأكيد القاعدة: الأطلس ليس كتابًا للأطفال، لا نرسم ولا نلوِّن فيه. ضحكت وقالت:

ـ نعم يمكن!

ثم استدركَت:

ـ هذه المرة فقط!

فتحت أمي الباب، فراح خيالي يجمح بين أخضر الحقول وأصفر الصحراء، وحديقة حيوانات أليفة لا تحتاج أسوارًا ولا أقفاصًا. أرى حمارًا جميل العينين يقترب من النافذة ويتطلع فيّ، أمد يدي وأربِّت على رأسه ونتبادل الكلام. وقد تصاحبني بعض الحيوانات وتقرر أن تأتي معي للتعرّف على أبي. في خيالي كان القطار يتحرك بسرعة وبجواري الحمار جميل العينين وعنزة سوداء صاحبتُها، وطائر أبيض من طيور الحقل استقر فوق كتفي:

ـ ماما هل يمكن أن نأخذ أكلاً للحيوانات؟

ـ أية حيوانات؟

ـ الحيوانات التي سنلتقيها في الطريق!

ـ لن يتوقف القطار!

ألا يمكن أن يتوقف قليلا لنمضي بعض الوقت مع الحيوانات؟

ـ سنتأخر على بابا!

ـ هل يمكن أن نتوقف لأجمع له باقة زهور من الحقول؟

ـ لن يقبل السائق!

ـ سيقبل، سأطلب منه ذلك بأدب وأبتسم. سيجدني بنتًا لطيفة ألبس ثوبًا أحمر جميلاً فيقول: حاضر!

ـ صعب!

ـ لأ مش صعب! ممكن، والله ممكن!

ثم محطة الوصول: أقدم باقة الزهور الجميلة إلى أبي فأرى الضحكة في عينيه، وهو يفتح ذراعيه واسعًا لاحتضاني. أعرِّفه على أصحابي الحيوانات.

طريق العودة أيضا مفروشٌ بالورود. يقول المدير: إذهب مع ابنتك وزوجتك، إنهما لطيفتان جدًا.

ينطلق صوتي بالغناء «سالمه يا سلامه، رُحنا وجينا بالسلامه»، فتصيح أمي من الغرفة المجاورة:

ـ تفسدين اللحن ياندى!

تلحق بي حيث أقف وتعيد عليّ اللحن همهمةً، تقول: هكذا! تعيده مرة أخرى، أقول:

ـ أنت تفسدين عليّ غنائي، من قال لك أنني أريد درسًا في الموسيقى؟! ثم أنك لا تعرفين الأغنية وتنطقين كلماتها خطأ، «غهنا وجينا بالسلاما»!!!!

أقول هذا النصف الثاني من الجملة غمغمةً وأنا أركض إلى الحمام. أغلق بابه بالمفتاح وأغنّي بصوت أعلى فتجتمع متعة التعبير عن نفسي بمتعة مكايدة أمي.

لم يبشِّر القطار بأي خير: مقعد خشبي أشعر بخشونته تحت مقعدتي. ساتر النافذة مُعطّل لم نتمكّن من فتحه، رائحة العرق ممتزجة بروائح أطعمة لا أميِّزها. وصريخ الرضيع. ظل يصرخ حتى ألقمته أمه ثديها، وما إن فعلت وهدأ حتى استأنفت الحديث مع أمي بصوت عال بدا لي غير محتمل. همستُ في أذن أمي: ألا يمكن أن تطلبي منها أن تخفض صوتها قليلاً، صوتها مزعج! رمقتني أمي بنظرة فهمت منها أن عليّ السكوت! بدا القطار بصوته العالي الرتيب ونافذته المغلقة، خانقًا. حاولت أن أنام فلم أستطع فتشاغلت بتخيُّل الفئران الصغيرة في تلك الغرفة التي حدّثتني عنها ابنة الجيران، تقول إنها حجرة مظلمة مخيفة يعاقبون الأطفال بحبسهم فيها. تقول إنها تخاف من الفئران، لماذا تخاف منها؟! إنها مخلوقات صغيرة ولطيفة، رحت أحدِّث الفئران في صمت واستمع إلى ما تقوله لي، ولكن الصغير قطع علينا الحديث بنوبة صراخ. فصحت في أمي بالفرنسية:

- أوقفي صراخ هذا الأبله وإلا سألقي به من النافذة!

قالت بلهجة تهديد واضحة:

- الزمي الأدب، وإلا نعود إلى البيت ونلغي الزيارة!

ثم بصوت هامس:

- السيدة تعرف شيئا من الفرنسية، ماذا لو فهمت ما قلت؟!

- أريد أن أذهب إلى دورة المياه!

رافقتني أمي إلى دورة المياه. وطلبت مني ألا أجلس على خشبة المرحاض:

ـ كيف؟

ـ لا تلمسي الخشبة، ليست نظيفة، احفظي مسافة، ولو صغيرة، بين مؤخرتك والخشبة.

ـ مستحيل!

ـ هكذا!

أحاطت أمي خصري بذراعيها بحيث يرتكز جسمي على ساقيّ وذراعيها. قضيت حاجتي.

قلت وأنا أضحك:

ـ مش بطّال!

وأنا أتبعها إلى مكانينا، أضفت:

ـ ليس مستحيلاً، أستطيع أن أفعل ذلك وحدي في المرة القادمة.

ولكنني في «المرة القادمة» حين قلت إنني سأذهب إلى المرحاض لم أكن أرغب في قضاء حاجة بل كنت قررت أنني لم أعد أحتمل الثوب المفروض عليّ. دخلت دورة المياه وخلعت الثوب وطويته وخرجت بملابسي الداخلية. لتقل أمي ما تقول، لتصِح كما يحلو لها، إنها سيدة مجنونة على أي حال، تصيح كثيرًا بلا سبب! ستصيح الآن بسبب! وصلت إلى مقعدي، كانت أمي منهمكة في الحديث مع السيدة البدينة. جلست في مكاني بهدوء وأغلقت عينيّ مدّعية النوم. ثم غفوت.

شهقت السيدة البدينة ما إن دخلنا حجرة الفندق وأزاحت الغطاء عن السرير لتضع الصغير: «الفرشة فيها بَقْ!» أخرجت مبيدًا للحشرات

وحمّلت الصغير لأمي وطلبت منا مغادرة الغرفة. بعد دقائق لحقت بنا واستعادت ابنها، ونزلنا إلى مطعم الفندق.

ـ ماما، رائحة المطعم سيئة!

ـ ماما، المفرش وسخ!

ـ ماما، طعم الأكل مُقْرِف!

صاحت في أمي أمام السيدة البدينة وابنها فأشحت بوجهي بعيدًا عنها وأعلنت أنني لست جائعة. زممت شفتيّ وربّعت ذراعيّ وبقيت أتطلع إلى الجدّار المقابل حتى انتهوا من الأكل. انتقلنا إلى البهو المجاور للمطعم، بقيت صامتة لا أنظر في اتجاههم حتى صعدنا إلى الغرفة. فتحنا النوافذ لكن رائحة المبيد كانت نافذة جدًا، قلت لأمي إنني سأختنق، فقالت إن على أن أتحمّل. لم أفهم لماذا. ثم حمّمتني. ألبستني قميص النوم. أزاحت الغطاء. كانت الملاءة عليها بقعة داكنة كبيرة. رفضت أن أنام عليها. وضعت أمي منشفة بيضاء نظيفة فوق البقعة، قالت:

ـ !voilà، بإمكانك أن تنامي الآن.

رفضت. بقيت جالسة على المقعد. نام الجميع فتمكّنت في سكون الغرفة من أن أستعيد الفئران الصغيرة وأواصل حديثي معها. الحديث مع الفئران ألطف من الحديث مع أمي. تربّعت على المقعد وبقينا نتبادل الكلام حتى غفوت.

غادرنا الفندق الذي بدا مقفرًا تمامًا، ممرّاته ومدخله مضاءة بضوء ليموني شاحب، ورغم الوحشة والظلام المحيط بنا ونحن نستقل سيارة الأجرة، كان مزاجي رائقًا. سمحت لي أمي أخيرا بارتداء الثوب الأحمر،

وفكّت الضفيرة واستبدلت بها ذيل حصان ربطته بحلقة مطاطية ثم بشريطة من الساتان الأبيض. وعندما قررت أمي أن تجلس بجوار باب السيارة وأن أجلس أنا بينها وبين السيدة البدينة، لم أعترض.

كان الظلام كثيفًا، لا أثر لأي ضوء فيه سوى النجوم الصغيرة في السماء التي انهمكتُ في متابعتها عبر النافذة، ثم تلوّن الفضاء بالبنفسجي، ثم الليلكي فالأصفر، ثم دخلنا في البرتقالي الصريح وشمس قوية تضيء كثبان الرمل الممتدة على الجانبين، تقطعها هنا وهناك تلال من الصخر الأجرد الداكن أو الوردي. (أمي على حق، لا بد أنني قطعت هذا الطريق مرات عديدة، فتفاصيله محدّدة شديدة الوضوح، لماذا إذن لا تطفو في الذاكرة إلا رحلة وحدة؟)

قلت فجأة: «ماما أنا مبسوطة!» والتفتُّ إلى السيدة البدينة وابتسمت لها وسألتها عن اسم الولد، ثم رحت ألاعبه وأضاحكه، ثم طلبت أن أحمله. وضعته أمه بين ذراعيّ، وبرفق ثبّتت ذراعي اليمنى حول جسمه ووجّهت يدي اليسرى لتستقر تحت رأسه. ملأني الزهو لقدرتي على حمل الصغير بالشكل المناسب ورحت أحدثه وأناديه وأداعبه، وأهزه خفيفا. أحببت التواصل معه وفكّرت أنه ألطف من الفئران التي لعبت معها الليلة السابقة. فجأة تقيأ الولد عليّ. ضحكت أمه فانفجرت في البكاء. وإلى أن وصلنا كنت أبكي وأقول لأمي بالفرنسية: «سأذهب لأبي بثوب متسِّخ، وهذه السيدة الشريرة ضحكت، ما الذي يُضحك في ولد مُقْرِف يتقيأ على الأثواب الجميلة!» أستدير للسيدة وأقول بالعربية: «هو تقيأ عليّ!» وتقول: «يا بنتي، لم يتقيأ، قَشَط، هكذا كل الرُضّع!» والفستان مثل الفُل عليك!» تضحك فأبكي أكثر.

تقول أمي إنها كانت أطول نوبة بكاء بكيتها في حياتي، وإنني واصلت البكاء من السادسة صباحا حتى وصلنا في تمام الثامنة.

توقفت بنا السيارة أمام مبنى كبير ممتد من طابق واحد نوافذه صغيرة لها قضبان. وفي أعلى المبنى رجال في أيديهم بنادق. من البوابة خرج ثلاثة حراس، سأل أحدهم:

ـ زيارة؟

ـ زيارة!

ـ التصاريح؟

أخذ الأوراق المطوية التي قُدِّمت له واختفى. ثم عاد.

ـ تعالوا!

في غرفة واسعة بها موائد صغيرة وكراسي كثيرة، جلسنا ننتظر. دخل رجلان في ملابس غريبة. اندفع أحدهما نحوي يحاول أن يحملني. قاومت.

نقطة الوصول: لم أتعرّف على أبي!

لم أعد أذكر من طريق العودة شيئا سوى أنني كنت محمومة وأن أمي في السيارة ثم في القطار كانت تبلل خرقًا صغيرة بالماء وتضعها على جبيني.

أقول إنني لم أتعرَّف على أبي لأن ذلك ما أكدته لي أمي طوال شهور تالية، وهذا ما كان أبي يحكيه في سنوات لاحقة بعد ذلك، يضحك كأنها نكتة، لكن رعشة في طرف عينه اليسرى كانت تفصح عن شيء آخر. كيف يسجِّل العقل ما جرى وأي منطق يقلب ذاكرة اللقاء ويحملني إلى تصور

معكوس لما حدث؟ طوال الشهور اللاحقة أعتقدت أن أبي هو الذي لم يتعرّف عليّ. وفي كل مرة بكيتُ فيها (لأن أمي وبّختني أو لأن المُدرِّسة عنّفتني، أو لأن لعبة أحبها انكسرت بين يديّ) يحيل البكاء تلقائيًا إلى أن أبي لم يعرف أنني ندى، وأنه نسيني وأنه لا يريدني. أكرر العبارات مع تصاعد النشيج.

الفصل الثاني

أي الرجلين أفضل؟

عليّ أن أبني بالخيال ما حدث في بيتنا فجر الأول من يناير عام ١٩٥٩. لم أشهد شيئًا مما جرى. كنت نائمة واستيقظت في الصباح لأرى وجه أمي شاحبًا، وادهشتني طريقة انهماكها في ترتيب البيت، تعمل بسرعة وتوتر وآلية، كأن عليها أن تنتهي من تلك الفوضى الضاربة في المكان قبل ساعة محددة. وفي الأيام التي تلت ورغم أن أحدًا لم يقل لي شيئا بشأن ما حدث، بدا كل ما يحيط بي غريبًا مُستغرَبًا، غياب أبي، ملامح وجه أمي وحدّة إيقاع كلامها، وصول جدتي وعمتي فجأة من الصعيد وإقامتهما معنا عدة أيام، وهو ما لم يحدث من قبل، كثرة الزوار والهمس بينهم وبين أمي، همس ينقطع كلما تواجدتُ بالقرب منهم. ثم تلك الأجوبة المراوغة كلما سألت عن أبي: «سافر»، «سيعود قريبا»، «اضطره عمله للسفر فجأة ولم يرد إيقاظك من النوم»، «سيبقى هناك بعض الوقت»، «سنذهب لزيارته قريبًا»، «عمله بعيد، لن نستطيع الذهاب الآن!» أجوبة تؤكد غياب الإجابة وتثير من حولي ضبابًا كثيفًا يُعمق خوفي واضطرابي.

وذات صباح استيقظت من نومي باكية:

ـ لماذا كذبتِ عليّ، لم تقولي لي أن أبي مات مثل الأرنب؟!

ـ أبوك لم يمت، إنه بخير وسيرجع لنا!

ـ أنت تكذبين، مات مثل الأرنب. نمت والأرنب في البلكونة وقمت والبلكونة فاضية. وبابا بالضبط بالضبط نفس الشيء!

الأرنب اشتراه لي أبي، وعلّمتني أمي كيف أطعمه وأعتني به. وذات صباح اختفى وأعلنت أمي أنه مات.

كان على أمي في ذلك اليوم أن تجلس بجواري على السرير وتحكي كلامًا طويلاً عن رجل كبير متعلم، يفهم أشياء كثيرة، ويقول لا بد أن تسير الأمور بهذه الطريقة لا بتلك الطريقة، وهذا صحيح وذاك خطأ. وضباط لهم رأي آخر، هم مثل مدير المدرسة لازم النظام يمشي بطريقتهم. اختلفوا معه فوضعوه في السجن.

ـ يعني إيه سجن؟

ـ يعني مكان مقفول لا يمكن الخروج منه.

ـ مثل الأسد في حديقة الحيوانات؟

ـ مثل الأسد في حديقة الحيوانات!

ـ وبعدين؟

ـ أنا لا أحكى لك حكاية، أشرح السبب في أن بابا لا يقيم الآن معنا. لم يمت، سيظل هناك فترة قصيرة ثم يسمحون له بالعودة إلى البيت.

بدا الأمر صعبا على الفهم وإن كان بداية للإدراك والمفاضلة، مفاضلة شغلتني في السنوات اللاحقة وتسببت في العديد من المواقف المربكة. ولم أكن وحدي في ذلك لأنني أذكر أن منى أنيس وكان والدها الدكتور

عبد العظيم أنيس زميل أبي، كلاهما أستاذ جامعي وكلاهما معتقل في نفس السجن، أسرّت لي أن ابنًا من أبناء عبد الناصر زميلها في الفصل. قلت لها أريد أن أتعرّف عليه لأسأله لماذا يضع والده آباءنا في السجن، وإن لم يكن يعرف نقول لابنه فيعرِّفه. لم يتح لمنى أن تعرّفني على الولد، كانت مدرستها في منشية البكري ومدرستي في جاردن سيتي. ولكنها نقلت لي باستفاضة ما دار في الفصل بينها وبين المُدرِّسة. قالت منى: «سألت المدرسة أمام الفصل كله 'من الأفضل أبي أم أبوه؟' ولما لم تجب المدرسة قالت منى: 'بابا أستاذ في الجامعة وحاصل على الدكتوراه، وكان يدرِّس في جامعة لندن، ولما بريطانيا اعتدت على مصر، عمل مظاهرات في إنجلترا، وترك عمله هناك وقال أرجع بلدي أساعدها. وأبوه ضابط، حارب في حرب فلسطين صحيح وقام بالثورة، لكنه لا يحمل شهادة دكتوراه ولم يدرِّس في جامعة لندن! أبي متعلم أكثر ويفهم أكثر!' وألحّت منى أن تشهد المدرسة أمام كل التلاميذ أن والدها هو الأفضل. ولكن المُدرِّسة قالت: إن هذا لا يجوز، لأنكم هنا كلكم أولادي ولا يصح أن أقول فلان أحسن من فلان، ولا والد فلانة أفضل من والد فلان».

أسألها بدهشة لا تخلو من انبهار: قلت ذلك في الفصل، أمام كل الأولاد والبنات؟ تضع منى ساقا على ساق ويعلو صوتها أكثر وتقول: قلت، وتفصِّل الحكاية. فيزداد تطلّعي إليها. كانت تكبرني بثلاث سنوات، أطول مني بشبرين، وحين أقول إنها صديقتي أشعر بقدر من الزهو كأن هذه الصداقة تضيف إلى جسدي الطفل شيئا من طولها، وتمنحني بعضا من سلطة معارفها. كانت تعرف أشياء كثيرة وتتحدث باستفاضة عما تعرف فأنظر إليها بإعجاب وثقة بوصفها الأكثر فهمًا ومعرفة والأقدر على تفسير المعضلات أو حلِّها. وفي يوم زارتنا منى مع أمها وأطلعتني على قصيدة كتبها لها والدها. أربكتني القصيدة إلى حد أنني توقفت عن مواصلة

الاستماع إليها وقد شغلني السؤال، لماذا لم يرسل لي أبي قصيدة؟ هل يحبها أبوها أكثر مما يحبني أبي؟ لم أستطع الاحتفاظ بالسؤال لنفسي، نقلته إلى أمي. ضحكت وقالت: أبوها يعرف كيف يكتب شعرًا وأبوك لا يعرف!

كيف انسحبت هذه التفصيلة الجديدة على المُفاضلة بين أبي وجمال عبد الناصر؟ وبأي منطق؟ وجدت نفسي أقول هو لا يعرف كيف يكتب شعرًا لابنته، ربما ليس أكثر ذكاء من عبد الناصر ولا أفضل منه. ثم يميل الميزان مرة أخرى: أبي يحمل دكتوراه من السوربون، وكان أستاذًا جامعيًا، مؤكد أنه يعرف أكثر من الضباط ويفهم أكثر منهم، وما يريده في السياسة أفضل مما يريدونه.

ولكن أبي كان غائبًا، وكان اسم عبد الناصر وصوته وصورته تتردد على مدار الساعات كل يوم، تتغنى به أغنيات أحبها وأستعيدها وأترنّم بكلماتها، سواء أحسنت تقليد اللحن أم أفسدته. لم يكن مجرد زعيم أو رئيس يكثُر الحديث عنه في البيت والشارع والمدرسة، بل كان يسري ببساطة في الحيِّز الذي ننمو ونتشكَّل فيه، كأنه ماء أو هواء أو تربة أو أشعة ضوء نتمثّلها تلقائيًا فنصبح ما نصبح. كان عبد الناصر يربّيني رغم أنني كنت أفخر بالانتساب لأبي، أنطق باسمي فيبدأ الصوت خافتًا أو عاديًا وهو يقول: ندى، ثم يعلو ليعلن: عبد القادر سليم، كأن ندى ليست سوى مسند أو مدخل أو تمهيد للاسم المراد إبرازه والتأكيد عليه. لا أظن أن أيًا من هذه الأفكار مرّت بذهني في أي وقت في تلك السن، ولكنني أذكر واقعة بعينها وكنت أشاهد عبد الناصر يلقي خطبة، أتابع ما يقوله وأحدّق في قامته وتعبيرات وجهه، وفجأة قلت لأمي:

ـ ماما، ألا يشبه بابا؟

قالت أمي:

- لا.

ثم

- ربما، يشبهه.

وعندما دخلت إلى الفراش حاولت استحضار صورة أبي لمزيد من المقارنة فاصطدم خيالي بفراغ. حاولت مرة ثانية وثالثة. ولم أنتبه إلا عندما وجدت أمي تنحني على سريري بوجه شاحب وتسأل: ماذا جرى، لماذا تصرخين؟

وقد تكون هذه الواقعة تكرارًا لواقعة سابقة جرت قبل ذلك ببضع سنوات، ربما بعد شهور من اعتقال أبي. أذكر أمي وهي تنحني على السرير ثم تحملني إلى سريرها الواسع وتأتي لي بصندوق معدني أحمر وتفتحه وتريني صورا لأبي، تمسك بكل صورة وتقول: هذا بابا يوم...، وتلك صورته عندما...، وها نحن الثلاثة معا في...، تعيد لي الصور أبي فأهدأ ثم أختار صورة منها، صورة كبيرة، ملامح الوجه فيها واضحة، وأعود إلى سريري. لا أنام كعادتي منكفئة على وجهي بل أنام على ظهري وأرفع الصورة أمام عينيّ. غفوت وأنا أمسك بالصورة وعندما استيقظت في الصباح وجدت طرفها انثني ربما لأنني نمت عليها فبدأت وصلة جديدة من النكد والبكاء.

يشبهه أو لا يشبهه لم يكن هذا هو السؤال حتى وإن كان كلاهما من جيل واحد، أصولهما صعيدية وتتجسد فيهما صورة الأب. الأول أب عام ومشترك، أما الثاني فهو الأب الشخصي المباشر الذي يمكنني في لمحة عين أن أقفز إلى حجرة نومه وافتح خزانة ملابسه وألمس قمصانه المطويّة بعناية في درج من أدراجها.

كنت في التاسعة من عمري عندما قالت: زميلة لي عنّ لها فجأة أن تُفعِّل حماستها الوطنية: أنت أمك فرنسية. فرنسا ضربت مصر في العدوان الثلاثي. لا أريد أن أصاحبك بعد اليوم! فاجأني الكلام ولكنني بلا لحظة تفكير وجدتني أقول لها: أنا التي لا تريد مصاحبتك. رائحة فمك كريهة، ولستم فقراء غير قادرين على شراء معجون أسنان، فأنت في مدرسة فرنسية بمصروفات. وزوجة البواب التي تأتي أحيانًا لمساعدتنا في تنظيف البيت لا تستعمل معجونًا للأسنان، لكنها تتمضمض باستمرار ورائحة فمها جميلة، وملابسها أيضا نظيفة. أنت مُقرِفة ولا أريد الكلام معك.

ورغم ردي السريع، أربكني الكلام. (عبارة «لستم فقراء» والإشارة لأفضلية زوجة البواب كان جول سجلته في مرماها يؤكد أنني حفظت درس أمي وتمثّلته: كانت حريصة في تربيتي في مثل تلك الأمور، تنبّهني: هذه البنت الصغيرة – بنت البواب مثلاً ـ في سنك، الصدفة، مجرد صدفة مكّنتك من ارتداء ثوبك ولم تُتِح لها ارتداء ثوب مثله. قد تكون أفضل منك. علينا أن ننتظر لنرى ماذا تفعلين بالكثير الذي لديك وماذا ستفعل هي رغم صعوبة حياتها. هذا الولد ـ طفل في سني في ملابس رثّة يقف عند إشارة المرور يبيع مناديل ورقية ـ مظلوم. أنت تأخذين أكثر وهو يأخذ أقل. تفيض في الشرح وتُدلِّل بالمتاح لي لبسه وأكله وتركِّز تركيزًا مزعجًا على الشيكولاتة يجعلني أتململ من الدرس أو أتوجس من احتمال حرماني من شراء الشيكولاته. كانت أمي أشبة بآلة تنتج بلا كلل أو ملل توجيهاتها التربوية، وفي تلك السن لم يكن ممكنًا لي معرفة المصادر الإيديولوجية لتلك التوجيهات).

ولكن ما قالته البنت أربكني. على مائدة الغداء، سألت:

ـ ماما لماذا ضربت فرنسا مصر سنة ٥٦؟

ـ لأن فرنسا دولة استعمارية، بدأت تفقد البلاد التي كانت احتلتها فصارت أكثر عدوانية. هُزمت في الهند الصينية و...

ـ وما هي الهند الصينية؟

ـ بلد اسمها فييتنام في آسيا، سأريك الخريطة.

كادت تقوم لتأتي بالكتاب ولكنني أقنعتها بتأجيل موضوع لأطلس (وهو أيضا من الأدوات التربوية التي كانت تُكثر من استخدامها).

ـ أكملي

ـ وكانت فرنسا تواجه ثورة في الجزائر وكان عبد الناصر يؤيد هذه الثورة وكان أمّم القنال. كان يهدد مصالحها، فأرادوا التخلّص منه.

ـ وهل كنتِ مع فرنسا عندما ضربت مصر؟

ضحكت

ـ كيف أكون معها؟!

ـ ولكنك فرنسية!

ـ هل أنت مع اعتقال أبيك؟

ـ طبعًا لا.

ـ إذن لا توافقين على كل ما تقوم به حكومة بلدك!

فهمت فضحكت. ثم حكيت لها عن البنت المُقرفة.

قالت:

ـ لا داعي لمقاطعتها يمكن أن تُفهّميها.

أعلنت بصوت حاسم:

ـ لا أريد مصاحبتها. فمها رائحته كريهة ثم إنني لا أحب مصاحبة الأغبياء، ربما يعتقد الناس حين يروني معها أنني غبية مثلها. هذا يسيء لسمعتي!

شدّدت على عبارة «يسيء لسمعتي» فضحكت أمي تماما كما قصدت. ولما ضحكت ضحكت.

قامت أمي وأتت بالأطلس وراحت تطلعني بهِمّة على خريطة آسيا وموقع الهند الصينية، وتعزز الجغرافيا بالتاريخ فتحكي متى دخلت فرنسا الهند الصينية ومتى خرجت منها وكيف... والآن أمريكا... وأنا أهز رأسي وأقول: «واضح واضح جدًا»، ولم يكن أي شيء واضحًا لسبب بسيط هو أن رأسي كان منشغلا بسؤال جديد. قالت: أمي: كان عبد الناصر يشكل تهديدًا للفرنسيين ولذلك ضربوه. دخلت هذه المعلومة بقوة في المناظرة التي تشغلني بشأن أيهما على حق، الرئيس الذي وضع أبي في المعتقل أم أبي الذي تسببت آراؤه في سجنه ونفيه عن أسرته كل هذه السنين.

الفصل الثالث

مشاكل ترجمة I

قلت لأصحابي وأنا أضحك: كنت بِلْيَة ترجمة، شربت الصنعة من صغري!

اكتفيت بتلك العبارة إذ كان يقتضي التفصيل أن أحكى لهم قصة حياتي. هم يعرفون أن أمي فرنسية وأنني عشت باللغتين منذ الصغر، ولكن أحدا منهم لا يعرف أنني منذ وعيت قمت بدور المترجمة. تسألني أمي فجأة: «ما الذي يقولونه؟» «ما الذي يعنيه السيد؟» «ما الذي تقصده السيدة؟» فأترجم، «ما الذي يُضحك في هذا الكلام؟» أشرح. أو يسألني أحدهم: «ماذا تقول أمك؟ ماذا تريد؟» فأترجم. تأتي عمتي لزيارتنا فأكون الوسيط اللغوي بينها وبين أمي. واجهت الاختبارات الأكثر صعوبة في اللقاءات المعدودة بين أمي وجدتي لأبي. لم تكن جدتي غادرت قريتها إلا بعد أن تجاوزت السبعين، تتحدث بلهجة ريفية كلاما صعبا، بليغا على ما أظن الآن، مُرَصّعا بالأمثلة والتشبيهات واقتباسات من القرآن. في طفولتي كانت ترجمة ما تقوله معضلة حقيقية تبدأ بمحاولة فهم الكلام. أتدبر الأمر، أنقل ما تيسّر، أقفز على بعض ما تقول، أملأ الفراغات بالتلخيص، أكتفي

بالمعنى الكليّ، أو أؤلف ما يتسق مع السياق العام. وأحيانا تستعصي على هذه الحيل. تقول جدتي جملة واحدة قصيرة لا أفهمها رغم وضوح مفرداتها، مثلا: «لما زرناكم بعد ما خدوا أبوكي، عمنوّل في طوبة..». أتوقف مندهشة إلى حد الذهول وعقلي يركض في محاولة يائسة لإيجاد حل: «عَمْنَوَّل» في لهجة جدتي تعني العام السابق أعرف، ولكن ما معنى «طوبة» تسبقها «في»، هل هو اسم مكان نقلوا أبي إليه، هل أجلسوه على حجر؟ ولكنها قالت: «في»، لم تستخدم «على»! وأستكثر أن أسأل عن معنى طوبة، حتى البلهاء في الثالثة من العمر يعرفون أن طوبة تعني حجرًا، واستكثر أن أنقل الجملة حرفيًا إلى أمي فتقول إنني عبيطة أو إن جدتي خرّفت. أسكت. ثم ردا على سؤال أمي لماذا لم أترجم ما قالته جدتي، يسعفني الخيال: قالت إن فستانك جميل جدًا. ولاحظت أن نظارتك الجديدة تناسبك أكثر من النظارة السابقة.

وبعد واقعة العزاء، تعلمت حكمة المصفاة، أعني أن أحتفظ بالشوائب التي حتما ستعكِّر الماء الجاري بين الطرفين، أحرص في الوقت ذاته على ألا ينتبه أي منهما لتدخّلاتي، فإن كانت أمي مكفهِّرة الوجه، احتفظ بشيء مما قالته وأحذف بعضه الآخر، وإن كانت عمتي تنتقد أمي بعنف وتهاجمها، يتحول الهجوم في النص المترجَم إلى مجرد عتاب، وإن كانت أمي هي التي تهاجم أنقِّي العبارات قبل نقلها، وأضيف من عندي، «تقول أمي هذا لأنه فيه عشم، يعني محبة»...إلخ

أما واقعة العزاء التي انتهت بكارثة أسرية لم أنتبه إلا بعد عامين أو ثلاثة إلى إمكانية تجنبها لو لم ألتزم بالدقة المتناهية في نقل الرسائل.

مقدمات الواقعة إعلامنا ليلاً في القاهرة بوفاة جدي وركوبنا القطار فجرًا قاصدين الصعيد.

في بيت جدي كانت النساء يندبن، وجدتي وعمتي ونساء أخريات لا أعرفهن يجلسن على الأرض، رغم وجود المقاعد بطول الجدران. سألت عمتي فأفهمتني أن هذه طقوس الحزن في بلدنا، فلما سألتني أمي، نقلت الكلام.

قالت أمي:

- لا أريد الجلوس على الأرض!

وجلست أمي على مقعد ووضعت ساقا على ساق، وأشعلت سيجارة!

(لا يمكن إسقاط هذه التفاصيل لأنها وردت لاحقا في قائمة الخطايا التي اقترفتها أمي).

بعد المغرب سألت أمي جدتي: متى تقدمون العشاء؟! نحن لم نأكل منذ الصباح! ما إن ترجمت حتى أدركت أن في السؤال شيئا فاضحا. قرأت ذلك على وجه جدتي التي ظلت صامتة. التفتُّ إلى أمي، قلت:

- ربما كان هذا هو نظام الحزن في البلد، كالجلوس على الأرض!

- ألست جائعة؟

- لا، لست جائعة!

- لكنهم ليسوا فقراء، لماذا لا يقدمون عشاءً للضيوف، نحن ضيوف أليس كذلك؟!

لسنا ضيوفا يا ماما! جدتي تقول لي دائما: هذا بيتك يا ندى، بيت أبيك وجدك.

وربما نقلت جدتي لعمتي ما قالته زوجة ابنها، نقلته استنكارًا أو نقلته بهدف أن تقوم ابنتها بإطعام السيدة الجائعة. لا أدري، ولكن عمتي مالت على أمي وهمست في أذنها فقمنا معها وغادرنا المنزل إلى منزل آخر.

قالت أمي لعمتي:

ـ غريب جدًا، لستم فقراء، وهناك ضيوف كثيرون، كان لا بد أن تعدّوا لهم طعاما، ولو حتى ساندوتشات!

ترجمت.

قالت عمتي:

ـ احنا أكبر حمولة في البر كله، في الأفراح والمواسم لا نحصي الذبائح!

سألتُ:

ـ ما معنى حمولة؟

ـ يعني عشيرة!

ـ وما معنى عشيرة؟

ـ يا حبيبتي يا بنت أخويا، بقيت خواجايا زي أمك، حمولة تعني عيلة كبيرة بالآلاف.

ترجمت.

قالت أمي بإصرار:

ـ كان عليهم أن يقدموا طعامًا، ما داموا ليسوا فقراء، أو يعلمونا فنحضر معا أكلنا!

ترجمتُ

ـ قولي لأمك عيب، حتى كلامها عن الأكل وجدك لم يبرد في قبره عيب كبير!

ترجمتُ.

غضبت أمـي، وعدلت عمتي عن أخذنا لبيت خالها لتناول العشاء،أعلنت: «لا داعي للفضايح!»، وترجمتُ.

قررت أمي أنها لن تبقى أيام العزاء الثلاثة، لتموت هي وابنتها جوعًا، فسافرنا فجر اليوم التالي.

أقسمت عمتي أن لسانها لن يعود لمخاطبة زوجة أخيها وأنها لن تدخل لها بيتا طيلة حياتها (وأوفت بالقسم). ولم ينته الأمر عند ذلك بل ظل جيًا فكان أول ما سمعه أبي من أمه وأخته وبنات عمه عند ذهابه إلى القرية بعد خروجه من المعتقل. وبقي من المآخذ التي يذكرها كلما تشاجر مع أمي. في آخر مشاجرة بينهما قلت لأبي أنني المسئولة. قال باستنكار:

ـ لا أصدق!

قلت:

ـ سافرنا قبل انتهاء المعزى بسبب الترجمة يا أبو ندى!

ـ أية ترجمة؟!

حكيت فضحك وتصالح مع أمي.

لم تكن مشاجراتهما الكثيرة بعد خروج أبي من المعتقل تربكني، ولذلك جاء قرارهما بالانفصال مزلزلا.

الفصل الرابع

المحاريق

لم يكتب أبي سنوات اعتقاله، ولا كان يحكي عنها. وربما كان اهتمامي بكتابات السجن الذي بدأ بجمع المتاح حول معتقل الواحات، مصدره رغبتي في معرفة تفاصيل حياة أبي في السنوات الخمس التي عشت فيها مُغتربةً عنه، الزنزانة التي يقيم فيها، الفراش الذي ينام عليه، الأكل الذي يتناوله، الممر الذي يسلكه خروجًا أو دخولاً، نوع العمل الذي يُطلب منه القيام به وعلاقته بزملائه وسجّانيه. كان خيالي فيما يخص أبي محصورا في ذكرياتي عنه قبل اعتقاله وبعد خروجه من المعتقل، وبينهما فراغ لا يقطعه سوى لقاء عابر في حجرة رثة في مبنى كئيب نصله بعد رحلة شاقة نهنئ بعضنا بنهايتها حين يلوح لنا عن بعد في الأصفر الصحراوي الأجرد.

طوال خمس سنوات، كان خيالي مشرّدا يبحث لنفسه عن مكان يحُطُّ فيه.

وعندما بدأت كتابات السجن في الصدور تباعًا، رحت أقرأها بنهم، أملأ فراغات الخيال، أعمّرها بالملموس المعّين وإن كان جارحًا كأسلاك

شائكة. كانت المعرفة على قسوتها تمنحني أمانًا يستعصي في وجود هذه الهوّة في الخيال، تقيم للذاكرة جسرًا تعبر عليه من مرحلة إلى مرحلة، وتصل ما انقطع من حكاية ندى وتاريخها الشخصي، وتعيد لها أباها كاملاً، رغم كل شيء.

بإمكاني أن أصف أوردي أبو زعبل بعنابره الستة. بإمكاني أن أصف معتقل الواحات وعنابره الثلاثة، العنبر رقم ١ المخصّص للمحكومين الشيوعيين، والعنبر رقم ٢ المخصّص للمعتقلين الذين لم يُحاكموا ولم يُحكم عليهم (وأبي منهم)، والعنبر رقم ٣ المخصّص للإخوان المسلمين. أعرف موقع الزنازين العشرة في كل عنبر، وموقع دورات المياه وموقع حجرة الضابط المواجهة لبوابة العنبر. يمكن لخيالي أن يتتبع أبي في سجن العزب في الفيوم، ثم في أوردي ليمان طرة، ثم لأربع سنوات بعدها في سجن المحاريق بالواحات. في هذا السجن الأخير أستطيع أن أستجمع صورة أبي وهو يستيقظ صباحا في زنزانة من الزنازين العشرة الكائنة في العنبر رقم ٢، وجبة الضرب في الصباح، بعدها يخرج بقدمين حافيتين إلى وادي العقارب، يحمل معولا يضرب به الحجر، وهو موزّع بين ضربة المعول وانتباه عينيه وأذنيه إلى حركة أوصوت مفاجئ ينذره بأن هناك طريشة قد تقفز فجأة من مكمنها وتلدغه لدغة قاتلة. أتابعه لحظة العودة إلى العنبر وإعداد العشاء، وشرب الشاي بعد العشاء والسمر.

أقلّب صفحات التعذيب بسرعة، وأتأني في قراءة الصفحات التي تحكي عن المزرعة والمسرح والمسجد التي أنشأوها في بحر الرمال. أتأمل عبد العظيم أنيس وهو يسترجع ما درّسه لطلاب جامعة لندن. يكتب على أرضية الزنزانة معادلاته الرياضية المعقّدة نزولاً على رغبة محمد سيد أحمد الذي أراد أن يتعلّم. أحدق في أطباء معتقلين ينقذون ابن مأمور المعتقل من الموت، وفي جرّاح يجري عملية بالمتاح (وبلا

مخدر) للصول مطاوع الذي سامهم العذاب. أحفظ المشاهد كما أحفظ أبيات فؤاد حداد:

بطول الليل

أشوف البدر متقسِّم

أشوف البدر متقسِّم ورا قضبان

أشوف البدر متقسّم ورا قضبان وليله طويل.

في المدرسة، درست الأبيات:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخي سدُولَه   عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلى

فقلتُ له لما تمطّي بصُلْبِهِ   وأردف أعجازًا وناء بكلكلِ

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي   بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

ولكن كيف لبنت في الصف الأول الثانوي أن تفهم محمول هذه الأبيات؟ كيف يمكنها تمثُّل هذه الغربة وصورتها المركّبة؟ ليل مفتوح من هموم تتلاحق كموج البحر، ويُطبق؛ تنوء بأحماله ناقة تغالب الجاذبية، فتنغلب؛ ومحاولة للإفلات بالتطلع إلى غد، وترتد؛ ليلٌ أونهار، بحرٌ أو صحراء، حيِّزٌ مغلقٌ أو مفتوح، حركةٌ أوسكون، مضارعٌ أو مستقبل، لا فرقَ، لا فكاك.

بعد سنوات طويلة فهمت، ولما فهمت وجدتني أربط أبيات امرئ القيس بأبيات حفيده البعيد فؤاد حداد:

مش عايز الفجر يطلع.. مش عايزه يطلع يا عالم

دا كل مالفجر يطلع.. أنا أنا البني آدم

بيضربوني في أبويا وبيضربوني في أمى

مطرح ما باسني أبويا ومطرح ما باستني أمي

والضرب زي الشتيمة على حشاكي الأليمه

كان ليه تشيليني في حشاكي وترضّعيني عشاكي

ليه تندهيلي باسمي ويندهولي بنمره

مكتوبة فوق الطاقية والبُرْش والبطانيه

كان ليه يا أمي بنقرا...كان ليه أروح المدارس

واتعلم الأبجديه

كان ليه الكتب والفهارس والامتحان والعيديّه

كان ليه يا أمي أمارس مبدأ من الإنسانيه

عبد اللطيف رشدي وارث ابنك في جملة عبيده

عبد اللطيف رشدي سِيده

عبد اللطيف رشدي فارس راكب حصان الحكومه

راسم على وشه بومه

تمشي وراه الكوارث وتمشي قدّامه شومه.

سمعت هذه الأبيات للمرة الأولى وأنا في الجامعة، فحفظتها وإن احتجت سنوات أخرى لأتعرف على سياقها. لنأخذ مثلا هذا البيت

الذي قد لا يبدو الأبلغ في الأبيات المقتبسة: «عبد اللطيف رشدي فارس راكب حصان الحكومه». ما علينا إلا أن نخمّن أن عبد اللطيف رشدي ضابط من الضباط الذين عذّبوا المعتقلين لنفهم البيت. ولكن معناه يبقى منقوصا وربما هزيلاً، بعيدا عن سياق يحمِّل الصورة بتاريخ ووقائع وآلام: سب وشتم وتركيع وتجويع وترويع. ضربٌ على الرأس وضربٌ على الوجه وضربٌ على القفا والظهر وضرب على الصدر والبطن والذراعين والرجلين والقدمين. ضربٌ بالعصي والشوم والجريد والقوايش والأحذية. لكمٌ بالأيدي وركلٌ بالأقدام وجلدٌ بالسياط وسحل و«اسمع كلام حضرة الصول يابن الكلب!» «قول أنا مره يابن القحبه». و«عبد اللطيف رشدي فارس راكب حصان الحكومه» يشرِف على التنفيذ وينفِّذ. يعذِّب طابورا من رجال يساقون إلى الأشغال الشاقة: أجسام هزيلة، وجوهٌ شاحبة، ملابس مهلهلة، أيدي متقرحة، أقدامٌ مشققة متورمة مجرّحة مُتَقيِّحة، تهبط إلى حفرة لتعمل في تكسير البازلت تحت تهديد السلاح. و«عبد اللطيف رشدي فارس راكب حصان الحكومه». يعذِّب شهدي عطية حد الموت، فيموت.

ولا يأتي عبد اللطيف رشدي القصيدة مفردًا بل يحمل معه ضباطا آخرين، يسجِّل لنا السياق أسماءهم وأوصافهم وتفاصيل أفعالهم وأقوالهم حين حُكِّموا على رقاب العباد فكانوا فوارس المعتقل وأسياده: اللواء اسماعيل همت، الرائد حسن منير، النقيب مرجان إسحق، الملازم يونس مرعي، وآخرون أيضا.

خذ مثلا الرائد فؤاد الذي قاد حملات تعذيب الإخوان المسلمين في سجن القلعة وسجن أبي زعبل في الخمسينيات. يظهر مستقرا وراء مكتبه، في كامل ملابسه، ويُشرف. الشتائم البذيئة أولا ثم الركل واللكمات،

يعقبها تعصيب العينين وتعليق المعتقل عاريا لكهربته وإطفاء السجائر في بدنه من كل الجهات وبلا عوائق.

هل هذا الرائد هو نفسه اللواء فؤاد الذي يتكرر ظهوره في القنوات الفضائية بشعر فضي وسترة أنيقة، يتحدث بوقار، لا يرِفّ له جفن، لا يرتجف صوته ولا ترتعش يداه ولا قسمات وجهه، يجيب على أسئلة المذيعة التي قدمته بوصفه خبيرا في شئون الإرهاب والجماعات المحظورة؟

أحكي لحازم كثيرًا عن رغبتي في كتابة كتاب يحيط بتجربة السجن، أحدثّه عن كل كتاب جديد أحصل عليه. كنت حريصة على اقتناء ما يتاح لي اقتناؤه من كتب تتناول هذا الموضوع فتوفرت لي مكتبة لا بأس بها تضم سير المعتقلين السياسيين في سجن المحاريق في الواحات، والسجن الحربي وسجون القلعة وطرة وأوردي أبو زعبل والاستئناف والقناطر في القاهرة، وسجن الحضرة في الإسكندرية، وسجن العزب في الفيوم. أضفت إليها لاحقا كتبا جديدة عن تجارب مماثلة في معتقل الخيام في جنوب لبنان وفي سجون إسرائيلية، ومعتقل تازمامارت في المغرب وجزيرة روبن في إفريقيا الجنوبية.

يتهمني حازم بأنني مولعة بتدمير الذات، وأنني لن أكتب كتابًا، بل أدمنت قراءة هذه الكتب التي تصيبني بالاكتئاب: لن تكتبي هذا الكتاب أبدا! ثم إنه كتاب مستحيل، كيف تحيطين بكل هذه التجارب في كتاب واحد؟!

أغضب منه وأقاطعه بضعة أسابيع ثم نلتقي على الغداء أو العشاء. أتمنى ألا يعود لفتح الموضوع. لا يفتحه في لقاء المصالحة. ثم يرتد إلى عادته فيثير الموضوع فنتشاجر، أو لا نفعل، لأنني أقص عليه بعض

المفارقات التي أنوي تضمينها الكتاب. يضحك وأنا أحكي له عن عبد الصادق السجان الذي أُنهك من شدة ضرب المعتقلين فأصيب ببوادر أزمة قلبية فصار يصرخ فيهم: يا ولاد الكلب ما فيش في قلوبكم رحمة! وعوكل الذي أسرّ لأحد المعتقلين، بما لا يخلو من نبرة اعتذارية، بأنه عبد المأمور ينفِّذ الأوامر: اخرج أنت من هنا وادخُل الحكومة وهات لي عبد اللطيف رشدي وأنا أضربه، هات لي جمال عبد الناصر نفسه، أضربه برضه. أنا بانفذ كلام الحكومة... ياما ورد علينا قبلكم وياما حيورد بعدكم. أو واقعة حلق الشعر، شعر الرأس وشعر الحاجبين وشعر العانة. يقول حازم: هذه الواقعة أعرفها، كلهم كتبوا عنها. أقول: لدي إضافة: حين يعود المساجين إلى عنابرهم أكثر عريا من اللحظة التي ولدتهم فيها أمهاتهم، يفاجئ الزميل زميله بالسؤال: إنت مين؟

لم أحك لحازم ولا لسواه عن واقعة الفأر التي وردت في شهادة معتقل في سجن تَدْمُر بسوريا، شاهد بأم عينيه إرغام زميل له على ابتلاع فأر ميت. لم أطق استعادة الواقعة لا بالخيال ولا الكلام وإن كانت لاحقتني لأسابيع فكانت تأتيني كوابيس في المنام. ولكنني حكيت له عن السيدة الأسبانية التي كتبت عن تجربتها في المعتقل أثناء حكم فرانكو:

ـ عقدت هذه السيدة صداقة عجيبة في سجنها الانفرادي. صار لها صديقة تتابع حركتها في الزنزانة وتتواصل معها بالنظرة والكلام، تحكي لها عن نفسها وزوجها وأولادها الثلاثة الموزعين بين ثلاث أسر مختلفة لأن زوجها أيضا كان معتقلاً.

- ألم تقولي إنها كانت في سجن انفرادي، من أين أتتها الصديقة؟
- خمِّن؟
- شجرة؟

- لا.

- عصفورة؟

- لا. لا أذكر إن كان للزنزانة طاقة، ربما لم يكن في جدارها أي منفذ.

- رسمة خطّتها على حائط الزنزانة؟

- لا.

- إذا صديقة استحضرتها بالخيال!

- لا.

- غُلُب حماري!

- كانت صديقتها التي أحبتها وتعلقت بها... ذبابة!

طال الصمت.

قَطعته:

- سأكتب فصلا في كتابي عن تلك المرأة.

- هل ستكتبين عن تجربة الاعتقال السياسي في مصر، أم في العالم؟

- لا أدري.

- ولكنك تقولين أنك أعددت خطة للكتاب.

- لدي ثلاث خطط.

- ما شاء الله!

- لا داعي للسخرية!

- نتكلم بجد: الخطة رقم ١؟
- كتاب عن تجربة المعتقلين المصريين في سجن المحاريق، أنهيه بفصل عن أبي.
- العشرات ممن عاشوا هذه التجربة سجّلوها فما الذي تضيفينه؟
- لا أدري.
- ما علينا، الخطة رقم ٢؟
- كتاب مختارات يتضمن كل فصل من فصوله نصا من كتابات السجناء السياسيين في بلد ما من البلاد العربية أو غير العربية. أحرر الكتاب وأقدم له بدراسة عامة عن الموضوع.
- والخطة رقم ٣؟

تلعثمت.

ثم:

- نسيت!

لم أكن نسيت ولكنني تحرجت من الحديث عن مشروع رواية يراودني، يقلب الصيغة المعتادة فيكون السجين هو من يعيش خارج السجن، عكس من في داخله. مجرد فكرة تعبر خاطري بين حين وآخر فيبدو لي أنها بذرة لعمل روائي ما. لست روائية على أي حال، فمن أين أتتني هذه الفكرة الطائشة عن كتابة رواية؟

الفصل الخامس

مشاكل ترجمة II

في البدء، كان شهر العسل، شهر رائق امتد تلقائيًا إلى شهور تبعته. الأيام التي سبقته كانت أقرب لحفلات الأعراس، كان البيت صاخبا يرتجُّ بحمى الفرح والضيوف والتهاني وحمد الله على السلامة ونوّرت بيتك والشيكولاتة والبونبوني والفواكه والزهور وأصص النباتات المنزلية التي يحملها عامل من محل الزهور ومعها بطاقة تهنئة مذيّلة باسم المرسِل.

جاءت جدتي من البلد بزيارة من البط والحمام المحشي وأبرمة الأرز المعمّر، وزيارة أخرى حمّلتها لها عمتي (لم تحُل الفرحة بينها وبين أن تفي بقسمها بألا تدخل بيت زوجة أخيها). أرسلت عمتي فطيرا و«منين»، وتمرًا ورمانًا، (لم تذق أمي أيا منها معلنةً أن هذا الطعام ليس لها، وأنه من غير الأخلاقي أن تأكل منه). وحمل أقارب أبي، أبناء وبنات عمه وأخواله، كراتين بها أكياس من الأرز والدقيق والعدس والسكر والزيت والصابون وزجاجات الشربات. وامتلأ المطبخ بالتورتات والجاتوهات والبتي فور التي جاء بها أصدقاء أبي وأمي.

كانت أمي تذهب إلى عملها بنشاط وتعود منه أكثر نشاطا، تدور كالنحلة، تستقبل وتودِّع وتؤهِّل وتضيّف، وتعد مائدة وترفع مائدة وهي منشرحة الصدر تبتسم. وجدّ علينا مشاركة امرأة، أظنها كانت زوجة البواب أو أخته أو من معارفه، تعاونا في البيت، تقف ساعات إلى حوض المطبخ تغسل أطباقا وأكوابا، تغلي الشاي والقهوة، تعصر الليمون والبرتقال وتمزج الشربات بالماء البارد بلا انقطاع.

وكنت أذهب إلى المدرسة وأعود منها طائرة كأنني أركض في اتجاه العيد. لم أكن أطيل التطلع في المرآة لأرى ما جد على ملامحي، أما ما جد على أمي فكان واضحا لي تماما. أقول لها: «ماما شكلك أحلى، وصوتك أحلى!» فتضحك. لم يكن صوتها على ما أظن هو الذي تغيّر بل إيقاع الكلمات، الذي أقدِّر الآن، أنه صار أكثر انسيابا، تماما كخطوط الكتفين التي استردت بتلقائية استداراتها الأصلية. بالحدس بدا لي الفرق واضحا وإن لم تتح لي معارفي وخبرتي بالبشر فهم المستجد ولا عقد مقارنة بالكلام كما أفعل الآن. في فترة غياب أبي كانت حيوية أمي الشديدة التي تتجلي في حركة سريعة وخفيفة محمولة على عذوبة تطل من العينين، قد تخشّبت فحولت خطوط جسمها إلى خطوط مستقيمة صارمة كأنما قصدت بها ضبط التوتّر والتحكّم فيه، توتّر كان ينفلت في إيقاع جملتها وعلو النبرة والحركات المفاجئة للرأس والأطراف.

بعد أسبوع أو أسبوعين بدأ شهر العسل الخاص. هدوء رائق وناعم ومستجد وغريب يجمع ثلاثتنا. لم أعد أتشاجر مع أمي ولم تعد هي تتشاجر معي، لم تعد تصرخ وتتكلم وتتحرك بذلك الإيقاع الذي جعلني أظن أنها مجنونة. قررتُ في ضوء هذه المستجدات أنها ليست مجنونة بل هي مسكينة كانت متعبة وخائفة على أبي، أو ربما كانت مجنونة وشُفيت. رحت أنعم بحياتي بين أبي وأمي، أستعيد تدريجيا فردوس الطفولة الذي سقطتُ منه فجأة ذات صباح شتائي بلا معنى مفهوم أو منطق مقبول.

لم أكن بحاجة لأجنحة لأطير، كان الطيران ممكنا حتى وأنا مقيّدة إلى كرسي في قاعة الدرس. يبدو الدرس ممتعًا والمدرّسة وديعة وزميلاتي ألطف خلق الله، حتى الشحاذ الأعور الذي اعتاد الوقوف بأول شارع المدرسة ويخيفني شكله فأسرِّع الخطو دون التطلع ناحيته، سألته عن اسمه وصرت أقول له صباح الخير يا عم درويش، أعطيه ما تيسّر: مصروفي إن تذكرت أن آخذ مصروفًا أو الساندويتش الذي أعدّته لي أمي، أو قطعة من الشيكولاتة إن تصادف أن معي شيكولاتة.

ورغم أنني كنت أقضي الكثير من الوقت جالسة مع أبي وأمي، أسهر معهما أقاوم النعاس حتى يغلبني وتسحبني أمي إلى سريري، إلا أنني على غير المعتاد ولا المتوقع حصلت في نهاية ذلك العام الدراسي والعام اللاحق على الدرجات النهائية في كافة ما ندرسه من مواد. وأعلنت مديرة المدرسة يوم توزيع الشهادات: ندى ممتازة في كل شيء، أداؤها العلمي ممتاز وكذلك سلوكها مع المدرسين ومع زميلاتها. لم أنتظر عودة أبي إلى البيت. طلبت رقم تليفونه في العمل وقبل أن يردّ أعطيت السماعة لأمي، قلت: قولي له أنت عما قالته المديرة!

ما الذي حدث بعد ذلك؟

لا شيء! لم يفاجئنا زلزال ولا قصف مدفعي يسقط السقف على رؤوس من فيه. مجرد خلافات بلهاء صغيرة. أتاملها فأقف حائرة وعاجزة كأنني أمام تلك اللعبة الكرتونية المكوّنة من مئات القطع الصغيرة والتي يتعين على أن أجد لكل قطعة منها موقعها لأستكمل الصورة. هل كان أبي لشعور غامض بالذنب، متعجلاً في فرض مكانته كرب للأسرة؟ هل أربكته سنوات البعد والقهر فارتبك وأربكنا معه؟ هل كانت أمي تتوقع بعد سنوات من غيابه وتحمّلها أن يعود لها محمّلاً بورود المحبة والفهم والتعاطف؟ أم هل كان جذر الخلاف أنهما أساءا الترجمة فاختلط عليهما المعنى؟

كان أبي يدخن بشراهة وأمي لا تكف عن تذكيره أنه كان انقطع عن التدخين منذ حملت هي بي. تشتكي من رائحة البيت المعبّقة بالدخان (رغم أنها هي نفسها كانت تدخن أحيانا، سيجارة أو سيجارتين). تفتح النوافذ على مصراعيها فيشتكي من البرد. تشتكي من زملاء له يزورونه بلا زوجاتهم، ينغلق عليهم باب الحجرة دونها ويتعيّن عليها أن تضيّفهم. لماذا لم تعدّي عشاءً؟ لم تقل إنهم سيتناولون العشاء معنا! في المرات الأولى: لو سمحتِ، بابتسامة. في مرات تالية: لو سمحتِ، دون ابتسام. لاحقا تقطيبة تلوم، ثم أصبح الأمر موضوعا للعراك، تتداخل الموضوعات: أنا لا أفهم، أصدقاؤك يأتون بلا موعد، وأولاد أعمامك وأخوالك يطيلون الزيارة، ومن يأتي من البلد تصر أن ينزل في بيتنا. هناك شيء اسمه فندق أنشئ لينزل فيه الناس! ثم إن أقاربك هؤلاء طوال فترة غيابك، كانوا يأتون لزيارات قصيرة، عشر دقائق على الأكثر ويذهبون! ربما شرح مرة أو مرتين فلم تفهم ولم يُعِد المحاولة. هل كان متعبًا غير قادر على الترجمة المستمرة أم أراد فرض نظامه وسلطته بلا طول كلام؟ صار يقول «نعم» و«لا» صارمة لا تقبل النقاش، بدا حادا وضيِّق الصدر، كأننا نثقل عليه أو نضيف إلى أعبائه.

لم تكن علاقتي به كعلاقتي بأمي التي اكتسبت قانونها من حياتنا معا دون شريك ثالث. تصرخ فأصرخ، تأمر فأضرب بأوامرها عرض الحائط، نتشاجر ثم لا نجد في نهاية اليوم سوى حاجتنا كل للأخرى، أو ربما لا نجد سوى بؤسنا وخوفنا وغربتنا فنقترب تلقائيا كأننا لم نتناقر قبل ساعات بشراسة ديكيّ قتال يكاد كلٌ أن يمزق الآخر. وعندما تغير الوضع بعودة أبي بقي القانون على حاله. أما شجاري مع أبي فقد كان مهما أبديت من العناد والاعتداد برأيي في مواجهته، يفقدني الاتجاه ويرهقني، ويخلِّفني كومة من الشقاء الخالص.

لخمس سنوات كان أبي حلما بعيد المنال، وعندما عاد أردته حلما أعيش في كنفه. وربما كان ذلك هو السبب في أن أيا من صداماتنا كان ينسحب على مساحة أكبر بكثير من المشكلة التي أدت إلى هذا الصدام، يفيض عن حدودها فورا ليهدد بإسقاط الحلم فيدفعني الهلع إلى اضطراب لا يتناسب مع الموقف.

بعد أقل من عامين من خروج أبي من المعتقل أصبح خلافه مع أمي معلنًا. وبعد ثلاث سنوات من اجتماع شملنا، كان النقاش يدور علنًا في البيت حول إجراءات الطلاق. أما واقعة المائة جنيه فكانت هي الواقعة الفيصل على ما أظن، أو كانت كما يُقال: القشة التي قصمت ظهر البعير، ولا لبس في أن البعير هنا مجاز دال على أسرتنا الصغيرة المقيمة في شقة من ثلاث حجرات لا يتسع أي منها لبعير حقيقي.

سألت أمي أبي عن النقود التي كانت في الدرج فقال إنه أعطاها لابن عمته. لم تفهم. أوضح:

ـ حماته توفيت بالأمس في المستشفى وقدّرت أنه سيحتاج هذا المال.

ـ ومتى يردّه لك؟

ـ لا أنتظر أن يردّه، في المُلِمّات نتعاون.

ـ كان عليك أن تُعلمُه أن هذه النقود سُلفة وتحدد موعد ردّها.

أشاح بيده ورأسه. كانت الرسالة واضحة، أنه لا يرغب في استمرار هذا الكلام. استمرت:

ـ ليس من حقك أن تتصرف في هذه النقود دون الرجوع إلي، أولاً

لأنها من حق الأسرة، وثانيًا لأن الجزء الأكبر منها كسبته أنا من عملي. أنت أخذت مالاً لي دون معرفتي!

صفعها.

وقف ثلاثتنا مشدوهين في صمت ثم غادر أبي المنزل. صاحت في أمي: أدخلي غرفتك، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ فانسحبت إلى غرفتي وطرقت الباب وأنا أفكر أن هذه المجنونة لا تفرّق بين العدو والصديق، كنت متعاطفة معها أوشك أن أنضم إليها في هجوم عنيف على أبي يستحضر كافة أخطائه. ولكنها بدلا من أن ترد صفعته بصفعة صاحت في: ما الذي جاء بك هنا؟ فتحت باب غرفتي وصحت فيها: هل جئتُ من الصعيد لأتطفّل على حياتك السعيدة مع أبي؟! جئت لأن صوت شجاركما كان مسموعًا في العمارة كلها!

ولكنني في اليوم التالي وقد لاحظت آثار البكاء على عينيها أردت أن أخفف عنها. جلست بجوارها وقبلتها. قلت:

ـ ماما هل تعتقدين أن بابا غريب الأطوار؟

ـ أحيانا يتصرف بشكل غريب لا يشبهه.

ـ هل تظنين أنه فقد عقله في السجن؟

ـ لا لم يفقد عقله وإن كان أحيانا يسيء التصرف. ربما لم يتعوّد بعد على الحياة العادية.

ـ تقولين إنه شديد الذكاء، كيف تفسّرين تصرفاته الغبية؟

ـ أبوك ليس غبيًا!

ـ أعتقد أنه غبي!

ـ أعتقد أنك وقحة!

ـ لستُ وقحة بل أعيش بين مجنونَيْن. أعتقد أنك مجنونة مثله!

تركتها ودخلت غرفتي ورقعت الباب، (العلامة المسجلة لإعلان الغضب طوال فترة مراهقتي).

عند الطلاق طلبت أمي أن أبقى في حضانتها. تطلعتُ إلى أبي: كان وجهه اكتسي بزرقة مكتومة. بقي صامتًا. سألتُها: هل تبقين هنا أم تذهبين إلى فرنسا؟ قالت إنها سترجع إلى فرنسا. قلت: لا يمكن أن أترك مدرستي وزميلاتي. سأبقى هنا. لم أقل سأبقى مع أبي ولكنني كنت أعرف أنني أريد البقاء معه، رغم أنني لم أكن واثقة أنه يريدني (هو الآن لا يريد زوجته، فهل يريد ابنتها؟). قلت: سأبقى، رغم شعار كنت رفعته قبلها بشهور حين اشتد الخلاف بينهما، وهو «ليذهبا معا إلى الجحيم!»

والأرجح أن أبي طوال تلك الفترة، ورغم صعوبة التعامل معي وكثرة خلافاتنا، ظل يضع الأمر في سياق مشاكسة طفلة عنيدة لم تفلح أمها في لجم تمردها وتربيتها بما يليق. واحتفظ حتى تلك الزيارة المشهودة لباريس في صيف ٦٨، بقدرته على احتواء سلوكي معه دون أن يشعر أنني أطعنه أو أجرح كبرياءه أو أقصد إهانته. وربما أيضا لأنني ورغم شعار «ليذهبا إلى الجحيم» لم أكن أقاوم لحظات من الود والصفاء كانت تصلح ما أفسده الشجار، فنهدأ ونتواصل فأقول له: «يا أبو ندى» ويناديني تودّدًا «بندق». كنا نعرف كيف نضحك ونهرّج ونتلاعب بالكلمات. كنت أيضا أسعد حين يجلس معي ليساعدني في دروس الرياضيات. لم أكن متفوقة في الرياضيات ولكنني كنت مُصرّة على دخول كلية الهندسة، مثله. قال: ربما كانت كلية الآداب تناسب قدراتك أكثر. لم آخذ بنصيحته. صار يدرِّس لي الرياضيات، أفهم شرحه وأعزز الشرح بالعمل الدءوب

فأحصل على الدرجات النهائية. فأسعد ويسعد. وفي لحظات الصفاء نلعب بالشعر. يردد بيتا ويكون على أن أعقبه ببيت يبدأ بالحرف الذي انتهى به البيت الذي قاله.

سألني ذات مساء:

ـ كم بيتًا من الشعر تحفظين؟

باغتني السؤال. حفاظًا على ماء الوجه، قلت بما لا يخلو من نبرة اعتداد:

ـ أحفظ أبياتا كثيرة جدًا. يصعب علي حصرها، أعطني فرصة يومين أحصرها لك!

أردت أن أكسب وقتا باليومين، ولكنني راوغت في الإجابة أسبوعًا كاملاً، بدعوى أن علي واجبات مدرسية كثيرة. وكنت فعلا أقضي المساءات منكبّة على مكتبي. لم أكن أدرس أيا من المقررات، بل أراجع ما سبق أن حفظته من الشعر، ثم أحفظ قصائد جديدة، أسمّعها لنفسي قبل النوم في السرير. أغفو وأنا أردد أبياتًا لامرئ القيس أو المتنبي أو شوقي والجواهري والشابي. بدا لي أن صورتي واحترام أبي مرهونان بالإجابة.

على مائدة الإفطار، وبعد أسبوع من السؤال المباغت، أعلنت بزهو:

أحفظ ٣٠٠ بيتا من الشعر العربي، بالإضافة طبعًا لما أحفظه من الشعر الفرنسي!

ـ نتبارى في الليل: مستعدة؟

ـ بشرط: أنا أبدأ!

ـ موافق!

في المساء أعددت له الشاي وجلست مقابله إلى طاولة المطبخ المربّعة. بدأت:

إذا الشعب يـوما أراد الحـياة فلا بد أن يسـتجيب القــدر ـ راء

رماني الدهـر بالأرزاء حتى فؤادي في غشـــاءٍ من نبالِ ـ لام

لا تنه عــن خـلقٍ وتأتيَ مثله عــار عليك إذا فعلت عظيـم ـ ميم

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

ـ نون

ـ نون... نون... نون.

ـ بندق، انتهت الدقيقة، عليك واحد!

ـ لم تنته!

ـ انتهت: نون يابندق هانم:

نعد المشرفية والعوالـــي وتدركـنا المـنون بلا قتالِ ـ لام

له أيطلا ظبي وساقا نعامة

قاطعني:

ـ ابحثي عن بيت آخر، هذا البيت يبدأ بلام وينتهي بلام، لا يصلح!

ـ لماذا لا يصلح؟!

ـ هذا شرط من شروط اللعبة، لا يجوز أن يبدأ البيت وينتهي بالحرف نفسه. ابحثي عن بيت آخر.

لم تسعفني الذاكرة ببيت آخر يبدأ بحرف اللام.

تعللت:

ـ أحتاج الذهاب للحمام.

ـ قولي البيت واذهبي.

ـ بابا لا أستطيع، لابد أن أذهب فورًا إلى الحمام.

دخلت الحمام وأغلقت الباب ورحت أفكر في بيت يبدأ بحرف اللام. عدت إلى المطبخ:

ـ لم أجد بيتا بحرف اللام! بابا ظلمتني. كنت فعلا أريد دخول الحمام!

ضحك، قهقه. شاركته الضحك.

ـ عليك اثنان. ثم:

ولاذ بصخرةٍ من رأس رضوى بأعلى الشِّعبِ من شَعَفٍ منيفِ ـ فاء

حاولت تذكر بيت يبدأ بحرف الفاء فلم أجد.

ـ مغلوبة بثلاثة يا بندق:

فرع نبعٍ يهتز في غصن المجـ ـد، غزير الندى شديد المحالِ

عادة ما يغلبني. واستمتع رغم ذلك في كل مرة نتبارى فيها لأنني أحب مشاركته اللعب، وأحب الاستماع إليه وهو يردد أبيات الشعر، أطرب لنبرة الصوت، ومخارج الألفاظ وطريقته في الإلقاء. وحين يقول بيتا يستعصي على فهمه أقول: اشرح، فيشرح فاستمتع أكثر بما يكشفه لي من معاني الكلام.

* * *

في ربيع ١٩٦٨، وكنت أتممت الرابعة عشرة، عرّفني أبي بامرأة كرهتها من النظرة الأولى. ولما سألني عن رأيي فيها اندفعت في التهكم

من شكلها وطولها وعرضها وثيابها وتصفيفة شعرها وطريقتها في الكلام. حاول أن يفنِّد كلامي ويقنعني بقائمة من المزايا لم تزدني إلا نفورا منها. قلت: لماذا إذن تضع طنًّا من المساحيق على وجهها، وتبدو ككُمبارس في فيلم لفريد الأطرش، توشك أن ترقص في الخلفية ما إن يبدأ فريد وصلته الغنائية؟!

لم يضحك، واستغربت لأنني توقعت أن يُضحكه التشبيه الذي فوجئت أنا نفسي به فأعجبني وأضحكني.

بعد أسابيع عاد يحدثني عنها. قلت: من، الكُمبارس؟!

غضب وغادر المكان.

لم يعد للحديث معي عن تلك المرأة.

انتهت الامتحانات. سافرت كما وعدت أمي للحاق بها في باريس لقضاء عطلة الصيف معها.

* * *

كانت هي المرة الأولى التي نلتقي فيها بعد مغادرتها القاهرة قبل ذلك لتاريخ بتسعة أشهر. حين فتحت ذراعيها على اتساعهما لاحتضاني وجئت بمدى اشتياقي لها، واستغربت أكثر أنني لم أعِ ذلك في القاهرة، لم أعِ لا مدى تعلّقي بها ولا قدر حاجتي لها، وكأنني تلقّائيا كنت قررت أن أربطَ حزاما كذلك الذي نستخدمه حين تبدأ الطائرة في الإقلاع فيثبّتنا إلى مقعد الطائرة، يسمّونه حزام الأمان. ربما كان التسليم بحاجتي لأمي ترفًا لم أكن أملكه. بدا سفرها عاديًا. كنت متوترة بعض الشيء، قابلة للانفجار السريع، وإن بقيت اللامبلاة هي السمة الغالبة في سلوكي ومشاعري (المشاعر المُعْتَرَف بها على الأقل).

حين رأيتها في المطار فوجئت بسقوط سور لم أنتبه أصلا أنني أقمته وتمترست خلفه. ضممتها طويلاً وبقوة، وفي طريقنا إلى خارج المطار امسكت يدها بنفس تلك الطريقة التي كنت أمسكها بها وأنا طفلة، أشد على يدها أكاد أغرس أظافري في باطن كفها. هذه المرة لم تحتجّ.

في البيت، على مائدة العشاء فاجأني أمر آخر، لاحظته في المطار وإن لم أتوقف لانهماكي بفرحة اللقاء وانشغالي بما فاجأتني نفسي به من مشاعر، أو لأنني فسّرت الأمر بتأثرها لرؤيتي بعد تسعة شهور من الفراق. نعم، لاحظت شحوب الوجه، وأنا بعد أدفع بحقيبتي على العربة المعدنية، لاحظته عن بعد قبل أن أصل إليها وأضمّها. ولكنها وهي تجلس في مواجهتي ونحن نتناول العشاء رحت أتامّلها: كان الوجه ما زال شاحبًا، ولم يكن شحوب الوجه هو وحده ما جدّ عليها. ماذا جدّ؟ هل يمكن أن يصاب المرء بالشيخوخة وهو في الخامسة والأربعين؟ هل يمكن أن يحدث له ذلك في تسعة أشهر؟

ـ ماما، هل أنت مريضة؟

قالت إنها ليست مريضة. سألتها إن كانت قد مرضت في الشهور السابقة. أكدت أن ذلك لم يحدث.

ـ ماما، وجهك شاحب، لم يكن شاحبًا في القاهرة، حتى يوم سفرك لم يكن شاحبًا إلى هذا الحد!

ضحكت وغيّرت الموضوع:

ـ اليوم ممنوع الحديث في الهموم، نحن نحتفل بلقائنا.

حين اختليت بنفسي في السرير لم أنم، لم أغف ولا لدقائق. كنت أتأمل مفاجأتين، أحاول الفهم، أكرر ما الذي يحدث؟

بدأت بثانيا التي هي في واقع الأمر أولا. حالة أمي. ما الذي استجد عليها؟ ليس وحده شحوب الوجه. ما هو إذن؟ اختلاف في نظرة العينين؟ (حزن ممزوج بالتساؤل أم شيء آخر يصعب علي قراءته؟)، بطء نسبي في حركة الجسم واليدين؟ هي امرأة جميلة، في وجهها ملاحة ليس مصدرها دقة الملامح وتناسقها فحسب، بل توقد عينين عسليتين هما أول ما يجذب الناظر إليها لأن فيهما لمعة ذكاء أقرب لعفرتة الصغار، تمتزج بعذوبة تضفي إشراقا على الوجه ما إن تفتح فمها بالكلام. فيها توتّر يزداد أو يقل، يضفي على جسمها الصغير نسبيا حيوية ظاهرة تتبدى في إيقاع جملتها وسرعة حركتها. هل تبدو مختلفة لاختلاف قصة شعرها؟ كانت تبقى شعرها قصيرا، بالكاد يطول الرقبة، وتحتفظ بقُصّة تغطي جبينها. استطال شعرها، فطرحته إلى الوراء ولمته في ذيل حصان. بدت أشبه بي بذيل الحصان، فلي نفس ملامح وجهها وإن أخذت عن أبي سواد العينين وطول القامة. لسنا في مجال عقد المقارنات، ما أخذته عنها أو عن أبي. هل هي مريضة؟ رأيتها هشّة، هشاشة إنسان مهزوم أو كأن عذوبتها غلبت حيويتها، كأن شيئا ما (توتّرها/ حيويّتها) يتراجع أو يهدأ أو ينطفئ، هل هي وحشة الإقامة وحدها في بلد غريب؟ ولكنها فرنسية فكيف تكون فرنسا بلدًا غريبًا؟ هل وجدت نفسها غريبة فيه بعد كل هذه السنوات في بلد آخر؟ هل تنهكها الوظيفة اليومية؟ هل اشتاقت لأبي؟ هل تريد العودة للقاهرة؟

وضعتني هذه الأسئلة على أول طريق لم أقترب أبدا منه ولا فكرت في وجوده، وعي مبهم يتشكل في البداية وعلى مهل بأنها قد تكون بحاجة لرعايتي وحمايتي. ربما عليّ ألا أتركها وحدها. لم أنتبه أبدا لمدى تعلّقي بها. الطفلة تتعلق بأمها ولا تتأمل تعلّقها ولا تفكر فيه. فاجأني اشتياقي لها، اشتياق غريب جدًا أكاد لا أصدقه، فكيف يكون اشتياقًا إن لم أشعر

به وأنا بعيدة. تكتب لي رسائل مُطوّلة فأرد بكلمتين أو ثلاث كأنني أفعل انطلاقا من واجب لا من عاطفة. تلِّح في أن أكتب لها فأضجّ بإلحاحها وأنقطع أسابيع عن الكتابة. لماذا عندما رأيتها، ما إن رأيتها، اجتاحني هذا الفيض من الشوق والحنان والرغبة في أن التصق بها وأبكي وأقول كان خطأً، خطأً كبيرًا. رنت الكلمة في أذني وأنا في المطار ولم أعرف ما الذي أعنيه: انفصالها عن أبي؟ سفرها إلى فرنسا، عدم سفري معها؟ لم أجد إجابة وبقيتُ الليل بطوله أدير الأسئلة في رأسي، لا أجد أجوبة شافية، أو أجد إجابة لا أستقر عليها سوى دقائق لأعود للسؤال من جديد.

حدث في باريس أنني تعرفت على حقيقة مشاعري تجاه أمي وبدأت أخطو بشكل تلقائي لم أحط به ساعتها، على طريق الوعي بضرورة حمايتها، كنت أنا التي تتعلم تدريجيا كيف تفتح ذراعيها لتضم وتحمي وتخفض جناح الذل من الرحمة وهي تقوم بدور الأم لأمها، فلماذا لم أكمل الطريق، نسيت أم تناسيت، أم هكذا هي الحياة تأخذنا من مشاعرنا أو تسحب هذه المشاعر بعيدا عن مقاصدها؟

وأيضا في باريس ذلك الصيف، خطوت خطوتي الأولى على طريق الاهتمام بحدث عام. في طفولتي لم يكن اعتقال أبي إلا حدثا شخصيًا محضًا، غيابًا غير مبرر ولا مفهوم في مكان غامض. وبعد خروج أبي من المعتقل، لم تكن السياسة حديثًا يوميًا في البيت نتشارك فيه ثلاثتنا على مائدة الطعام أو في السهرة العائلية. حتى هزيمة ١٩٦٧ التي تابعتها إلى حد ما، لم تدخل على ما أظن في نسيجي الوجداني إلا لاحقا، وبأثر رجعي. في يونية ١٩٦٧ كنت تلميذة في المرحلة الإعدادية تتابع أخبار الحرب والهزيمة من المذياع والجريدة وما يتردد على ألسنة آخرين في حديث غير موجه إليها، ولكن الحدث على شموله ومأسويته، لم ينفذ إلى الحيِّز الداخلي لبنت في الثالثة عشرة من عمرها، تشغلها علاقتها

بأبيها، وعلاقة أبيها بأمها، واضطرابات تشتُّت عائلي مضي ومخاوف تشتُّت يبدو وشيكًا.

(كانت ليلة تنحّى عبد الناصر أثناء خطاب إعلانه الهزيمة، ليلة ليلاء: يتابع أبي الخطاب. يمسح دموعه بظهر كفه. يعود يمسحها. اضطرابي لدموع أبي أكبر من من اضطرابي لما يقوله رئيس البلاد عن هزيمة لن أتمثّل فحواها إلا بعد سنوات ـ للدقة سأتمثلها أكثر وتدريجيا على مر السنوات، وربما من ذلك التاريخ إلى هذه اللحظة. ينتهي الخطاب. أبي ينتحب. يشهق كالأطفال. تصاب أمي بحالة هستيرية مفاجئة، تصيح: لا أفهم، لا أفهم على الإطلاق. لماذا تبكي عليه؟!! أليس هذا هو الضابط الفاشي، الدكتاتور الطاغية الذي وضعكم في المعتقل خمس سنوات بلا وجه حق؟ أليس... ألم يكن... ألم تقل...؟ تتلاحق الكلمات في اندفاع متصاعد، صوتها يعلو ثم يعلو أكثر. فجأة قال أبي: أنت عمياء! وغادر البيت. لم تنطق بعدها بحرف، ولا أنا نطقت).

من موقعي الآن أعرف كما عرفت منذ سنوات أن هذه الواقعة كانت النموذج الأكثر مأسوية لمشكلة الترجمة!.

الفصل السادس

باريس ١٩٦٨

حين وصلت إلى فرنسا، لم يكن لدى أدنى فكرة عما شهدته البلاد في الأسابيع السابقة. ولكن باريس ذلك الصيف لم تكن تتكلم إلا عن تلك الأحداث. كانت أمي تحكي، والجيران والمعارف يحكون، والجرائد تستعيد الأحداث وتحللها وتعقّب عليها، ومن تعرّفت عليهم من مجايليّ، أولاد وبنات في سني أو أكبر بعامين أو ثلاثة يتبارون في استعادة ما جرى ويجدون متعة في نقل تفاصيل تلك الأسابيع إلى بنت جاءت من مصر البعيدة وتجهل الأشياء المثيرة التي يعرفونها.

عرّفتني أمي بجيرار وبأهله وكانوا يسكنون في البناية نفسها. في لقائنا الأول تطوع جيرار بأن يصحبني لزيارة أي معلم من معالم المدينة يهمّني زيارته. قلت: إنني أريد الذهاب إلى كنيسة نوتردام (لم أكن مهتمة بمعمار الكنائس، بل أردت مشاهدة الكنيسة وجرسها الكبير الذي دقه الأحدب كازيمودو في رواية أحببتها وأبكتني). اتفقنا أن يرافقني إليها بعدها بيومين.

مر بي جيرار في العاشرة صباحا. كانت أمي ذهبت إلى عملها. غادرنا

البيت قاصدين كنيسة نوتردام. في الطريق إلى محطة قطار الأنفاق، وفي القطار كان جيرار يحكي لي عن مظاهرات الطلبة بدءا من ٢٢ مارس في نانتير حيث اقتحم ثمانية طلاب مكتب العميد احتجاجًا على اعتقال ستة من زملائهم عقابًا على نشاطهم في لجنة تناهض الحرب الفييتنامية. تقرر تقديم هؤلاء الطلبة الثمانية بعد شهر، لمجلس تأديب.

حكى جيرار:

في يوم الجمعة الثالث من مايو، في الساحة الأمامية للجامعة تحلّق النشطون من الطلاب حول الثمانية المقرر مثولهم أمام مجلس التأديب يوم الاثنين اللاحق. ثم كبر الحشد ثم ازداد أكثر. في الرابعة بعد الظهر حاصرت شرطة مكافحة الشغب الجامعة وبدأوا في اعتقال الطلاب فانتشر الخبر فراح مزيد من الطلاب يتوافدون على المكان وبدأت معركة بينهم وبين الشرطة. وأُعلن إغلاق الجامعة، فكانت هذه هي المرة الثانية طوال سبعمائة عام تغلق فيها جامعة السوربون، المرة الأولى عام ١٩٤٠ حين احتل جنود النازي باريس.

بعد أقل من عشرة أيام من قرار الإغلاق سيضطر رئيس الجمهورية إلى اتخاذ قرار بسحب قوات الشرطة وإعادة فتح الجامعة. ولكن الأوضاع لم تكن لتعود إلى ما كانت عليه. استولى الطلاب على الجامعة. فتحوا أبوابها ليشارك كل من يرغب في التفكير والكلام وطرح الأسئلة والنقاش.

وبين إغلاق الجامعة وإعادة فتحها، دارت معارك كثيرة، وتصاعدت إضرابات العمال حتى شملت فرنسا كلها.

هل تريدين فعلا الذهاب إلى كنيسة نوتردام؟

غيّرنا طريقنا.

أخذني جيرار إلى ساحة السوربون. هنا، قال جيرار ونحن نقف في ساحة الجامعة، حدثت مظاهرات يوم الجمعة الثالث من مايو. ومن هنا مر الطلاب الثمانية وهم ينشدون النشيد الأممي يوم الاثنين السادس من مايو، مروا عبر طوق الشرطة المضروب حول الجامعة في طريقهم إلى مجلس التأديب فاندلعت المظاهرات وامتدت إلى أماكن أخرى من باريس. وأثناء عودة المظاهرة إلى الحي اللاتيني هاجمتها الشرطة. فأخذ المتظاهرون يخلعون حجارة الشارع ويقلبون السيارات ويقيمون المتاريس. ودارت معارك حامية، تجددت في الأيام التالية. لم يكن الطلاب وحدهم هم الذين يعدّون المتاريس بل شاركهم أهالي الحي والعمال وربات البيوت وعابرو السبيل، يمدونهم بالحجارة والأخشاب وعلب القمامة وقضبان الحديد. استمرت المعارك طوال الليل، وطوال الليل استمرت مداهمات البيوت، يداهمون المنزل وينهالون بعصيّهم ضربًا على الشخص المطلوب ثم يحملونه عنوةً ويلقون به في سيارة من سياراتهم وينتقلون إلى العنوان التالي.

وقفنا أمام مباني الجامعة الهادئة الآن، والمزدحمة بمتظاهرين وشرطة وهتافات وأعلام، في كلام جيرار وخيالي.

سأريكِ ما تبقى من أثر المعارك.

اتجهنا إلى شارع جاي لوساك.

سيحكي جيرار مطوّلاً ونحن نمشي في الشارع وفي الأيام التالية عن المعارك التي دارت في هذا الشارع يوم «الاثنين الدامي». سيتحدث عن عنف الشرطة، ومقاومة الطلاب، وعدد الجرحى من الطرفين، وعدد المعتقلين، وسأرى بعيني بعض الشعارات المكتوبة على الجدران: «افرجوا عن زملائنا»، «تسقط الدولة البوليسية»، «يسقط المجتمع

الاستهلاكي» «تعيش مجالس العمال» ومن عشرات الشعارات سيستوقفني ثلاثة شعارات مكتوبة بقلم أسود ثقيل على جدران مبنى من المباني. يقول أولها: «كونوا واقعيين، اطلبوا المستحيل!» ويقول الثاني: «لنشكل لجانًا للأحلام» والثالث: «عندما يمتحنونكم، أجيبوا بأسئلة» (لاحقا سأكتبها على جدران غرفتي في القاهرة وأعلق بجوارها الملصقين اللذين أهداهما لي جيرار). في شارع جاي لوساك شاهدت أيضا بقايا ملصقات مقطعة أو صفحات مبسوطة من جرائد مثبّتة على الجدران، لا يمكن قراءتها من كثرة التعليقات المدوّنة بالأحمر والأخضر والأزرق في الهوامش وبين السطور، كما لاحت أقسام من الشارع منزوعة حجارته.

جيرار يواصل الحكي. ينتقل من نانتير إلى باريس ومن باريس إلى نانت ثم يعود إلى باريس ومنها إلى مصانع بيجو في بيلانكور يقول: قال الطلبة، قال العمال، قام الطلبة، قام العمال. أصغي، وحين يعنّ لي أن أستفسر أخشى أن أبدو بلهاء، فلا أفعل.

لم أنتبه أننا مشينا ساعات متصلة إلا عندما قال جيرار: الساعة الرابعة، ألا تشعرين بالجوع؟ أشعر بعطش شديد.

قطعنا طريقًا أوصلنا إلى شارع واسع، قال جيرار إن اسمه شارع المدارس (أعجبني الاسم، وبعد سنوات، في زياراتي اللاحقة لباريس سأحرص على النزول في فندق من فنادق هذا الشارع، لأن الاسم أعجبني أو لأن ذاكرة هذا اليوم قرّت في نفسي وارتبطت بولد لطيف رافقني بتلقائية إلى مساحة من المعرفة ستغير أمورا كثيرة في حياتي، على الأقل لسنوات تالية).

في شارع المدارس جلسنا في مقهى وطلبنا عصيرا وساندويتشات.

عدت إلى أمي طائرة ومُحمّلة بالحكايات والأسئلة. أسألها فتزوِّدني

ببعض التفاصيل، تحكي لي أين كانت، وماذا سمعت، وماذا فعلت (فوجئت أنها شاركت في الاضراب). أسألها عن كل ما أردت الاستفهام عنه من جيرار وأحجمت خشية أن أبدو جاهلة في نظره. مواقع شوارع وميادين وأشخاص وحروف أعرف أنها اختصار لأسماء دالة على تشكيلات أو نقابات أو مجموعات أجهل ما تعنيه وتمثله. أسأل وتجيب، ثم تأتي لي بخريطة لباريس وتشير إلى الأماكن. تقول هذا هو النهر، وهنا ميدان الجمهورية حيث انطلقت المظاهرة الأضخم في يوم الاثنين الثالث عشر من مايو، وهنا على الجانب الآخر من النهر، الحي اللاتيني. هذه هي السوربون، أشارت بيدها على موقع الجامعة غرب الحي. حركت إصبعها ثم توقفت قالت: هنا في الطرف الجنوبي الشرقي مركز سانسييه، المبنى الجديد لكلية الآداب التابع للجامعة، حيث كانت تُعدّ وتطبع المنشورات. وهذا هو شارع المدارس الذي كنت فيه.

وعندما قلت لها تصبحين على خير، قبلتني وهي تبتسم ابتسامة بدت لي غريبة نوعا ما، قالت: «كبرت يا ندى، ها أنت تهتمين بالسياسة!». لم تقل لي «مثل أبيك» وإن كنت أرجِّح الآن أن لابتسامتها علاقة بذلك الجزء الناقص من الجملة التي نطقت بها، وأكملتُها أنا بعد سنوات حين حكت لي أنها قبل ما يقرب من عشرين عاما من صيف ٦٨ كانت هي أيضا صاحبت أبي الوافد حديثا إلى المدينة في شوارع باريس لتعرِّفه بالأماكن وارتباطاتها بجنود الاحتلال الألماني والمقاومة الفرنسية لهذا الاحتلال، وأنها قبل أسابيع من لقائنا كانت هي أيضا تشارك في أحداث باريس.

لم أفهم ابتسامة أمي ولم يستوقفني في كلامها سوى أنني أهتم بالسياسة لأنني لم أكن انتبهت وأنا أنصت إلى حكايات جيرار المثيرة أنه يحكي في السياسة. ورغم ما سمعته في ذلك اليوم وفي الأيام التالية عن معارك، وجرحى وقتلى واعتقالات ومداهمات للبيوت، وهراوات وغاز مسيل

للدموع وقنابل دخانية وحجارة ومتاريس، بدت لي الأحداث أقرب إلى فيلم مثير.

بعد شهرين من إقامتي في باريس، صرت أعرف باليوم والساعة تفاصيل أحداث مايو، مظاهرات الطلاب، معارك الشوارع، إضرابات عمال مصانع بيجو وغيرها من المواقع الصناعية، موقف النقابات والاتحادات العمالية، ما الذي قاله أو فعله رئيس الجامعة ووزير التعليم ووزير الداخلية ومدير شرطة المدينة. كأنني كنت طالبة مجتهدة مسجّلة في مقرر دراسي مكثّف. أفادت منه الإفادة القصوى الممكنة.

كان الفضل في ذلك لجيرار، صديقي الأول، وربما أول من تعلقت به من الشباب دون معرفة أن هذا التعلق يسمونه حبًا. وربما لم يكن حبًّ بل اهتمامًا وإعجابًا يكاد يصل حد الانبهار. أهتم بلقائه وأنتظر هذا اللقا وأستعد له، وحين نلتقي تمر الساعات دون أن أشعر. كان شابا نحيلا وطويلا، شعره لا يخلو من خشونة أو ربما يبدو كذلك لأنه يتركه مشعّثًا. يرتدي غالبا ذات البنطلون والسترة والحذاء الرياضي. كان في السابعة عشرة من عمره، أتمّها أو على وشك. قلت له: إنني بعد شهرين أتم السادسة عشرة (كذبت لكي لا يظن أنني أصغره بكثير). أذكر الأماكن التي أخذني إليها، أذكر نبرة صوته. أتذكّره وهو يحكي، ولكنني لم أعد أتذكّر تفاصيل ملامح وجهه، ربما لأنني كنت أخجل من التطلع فيه أو إطالة النظر إليه وهو يتكلم. كانت نظراتي إليه دائما خاطفة، كأنها مختلسة.

بدا لي كل ما حكاه مثيرا للخيال ويُلهم. وكان المشهد الأكثر إلهاما حكاياته عن ما دار في الجامعة بعد استيلاء الطلاب عليها. بوابات مشرعة تفتح الجامعة لكل من يرغب. محاضرات كثيفة الحضور تعيد النظر في المجتمع الاستهلاكي، في تنظيم الكفاح، في الإدارة الذاتية، في القمع، في المسألة الاستعمارية، في الأيديولوجيا ووسائل التعمية. وفي المسرح

الكبير كل ليلة يجتمع الآلاف لتقييم أحداث اليوم وأدائهم. الممرّات المعتمة للمبنى العتيق تنوِّر فجأة بألوان الملصقات والشعارات. معرض فوتوغرافي عن ليلة المتاريس. مجموعات كخلايا النحل، تنهمك كل خلية منها في الشغل على ملف، تجمع مادته وتبحث في تفاصيله، مجموعة تعمل على ملف الشرطة والقمع، أخرى تدرس نظاما بديلا للامتحانات، ثالثة تنظر في استقلال الجامعة، ورابعة وخامسة وسادسة. وفي ساحة الجامعة حيث ترفرف الأعلام ويتحلق الشباب للنقاش وتبادل أدبيات تنظيماتهم ومنشوراتها، يظهر فجأة بيانو، يتبادل العزف عليه من يتقن العزف ويريد.

في لقائنا الأخير أهداني جيرار هدية ثمينة سوف أحملها إلى القاهرة باعتزاز لقيمتها ولمعرفتي معنى أن يتنازل جيرار من أجلي عن ملصقين لا ملصق واحد من مجموعة ملصقاته، (بدا واضحا وهو يطلعني عليها مدى حرصه عليها وزهوه باقتنائها). في الملصق الأول رأس شاب مرسوم على خلفية سوداء، لا تبدو منه سوى عينيه، عينان مدورتان قلقتان في وجه ملفوف تماما بالضماد من أعلى الرأس إلى الرقبة. وعلى الفم دبوس مشبك يُحكم الضماد. أما الملصق الثاني فخلفيته بيضاء في أعلاها كلمة «النظام» وأسفلها كلمة «يستتبّ» وفي الحيز بينهما في قلب الملصق، رسمة جانبية بالأسود لشخصين يتبع أحدهما الآخر ويحملان فيما بينهما نقالة بعرض الملصق عليها جسد مسجى لشخص ميت أو على وشك.

قال لي جيرار وهو يودّعني: ندى، سعدت جدًا بمعرفتك. ولولا أن أمك قالت لي أن السائد عندكم يختلف تماما عن الشائع هنا، ربما كنا تصادقنا بشكل مختلف. ثم ضحك: أخلَلْتُ بشعار أساس من شعارات الحركة: «لا شيء ممنوع، المنع هو الممنوع!». لكن أمك أكدت أن ذلك يمكن أن يفسد العلاقة تماما، ويتسبب في أذى.

لا أدري إن كنت أسقطت على أمي ضيقي من وداع جيرار وتأثري الشديد من هديته، أو افتعلت شجارًا لكي يكون تركي لها محتملا. ما إن دخلت البيت ورأيتها حتى قلت: بأي حق تقولين هذا الكلام لجيرار؟! بأي حق تنقلين كلاما بشأني دون استشارتي؟! بأي حق تتدخلين في علاقتي بأصحابي؟ جاوبتني بهدوء غريب كأنها لم تع حجم غضبي، ولا حجم المشكلة التي سببتها. قالت وهي تبتسم: ندى، قد يكون مبكرا أن أقول هذا الكلام، ما زلت في الرابعة عشرة. كان هذا تنبيهًا ضروريًا لأن نظام الحياة هنا مختلف، وهو مختلف تماما بين هذا الجيل من الشباب. كان يمكن أن..». . تركتها ولم تكمل جملتها، دخلت إلى غرفة النوم ورقعت الباب.

بأي حق تعيِّن نفسها وصية علي؟! لو لم تقل هذا الكلام كان يمكن لجيرار أن يقول لي مثلا إنه مهتم بي، إنه يراني جميلة، إنه تعيس لأنني سأسافر، ربما أراد أن يمسك بيدي ويضغط عليها، ربما رغب في أن يقبلني. لم يكن حتى يقبلني على وجنتيّ. أكيد أن هذه المجنونة قالت له إن التقاليد عندنا لا تسمح!

انسحب غضبي على الوداع صباح اليوم التالي. سلمت على أمي بحذر وعندما أرادت احتضاني أفلتُّ من بين ذراعيها. قلت «أو رفوار» مقتضبة جافة وبلا ابتسام. أعطيتها ظهري ومضيت.

الفصل السابع

العودة إلى القاهرة

لم يدم غضبي من أمي طويلا ربما لأنني تلقيت من جيرار رسالة طويلة لطيفة وظريفة، وتلقيت من أمي رسالة تعتذر لي فيها، تقول إنها لم تقصد الإساءة ولا التدخل في شئوني، تعرف أنني الآن فتاة كبيرة «تفهم في السياسة» وتستطيع أن تقرر لنفسها. كررت «أنا آسفة يا حبيبتي».

منحتني الرسالتان هدوءا مكّنني من تأمل مغانمي التي عدت بها من رحلتي إلى باريس، بما فيها، رغم حادث ليلة السفر المؤسف، اكتشاف اهتمامي بأمي وحاجتي الشديدة لها. ثم إنني كنت منشغلة أيضا باستعراض معارفي المستجدة أمام صديقاتي وأمام أبي، وهو بيت القصيد. أتحدث مطوّلاً، أنقل له كيف رفع الطلاب أعلامهم الحمراء والسوداء على قوس النصر في قلب باريس، كيف استولوا على الجامعة وعلى كلية الفنون الجميلة ومسرح الأديون، كيف اتصلوا بالعمال، كيف أضرب العمال لتوقف العمل في المصانع والمنشآت، كيف تمكّن عمال النقل بإضرابهم من تعطيل المواصلات في باريس ثم القطارات التي تربطها بغيرها من المدن. أكرر: أضرب ٩ مليون، تصوّر؟ أقولها بزهو كأنني ساهمت في تنظيم الإضراب أو كنت من قادته. يأخذني الحماس فأنتقل إلى الهجوم

على الأعداء: «بول دي روش هو الذي..». و«فوشيه صرّح..».، و«جريه قال..».

يقاطعني:

ـ حيلك حيلك يا بندق، من هو دي روش، ومن هو فوشيه، ومن هو الثالث الذي ذكرتيه؟

أنتفخ كالديك الرومي وأقول:

ـ مالك يا أبو ندى. ألا تتابع الأخبار؟!

بعد أسبوع من وصول رسالة أمي. قلت لأبي بعد أن انتهينا من العشاء:

ـ بابا، لا أعتقد أن ماما بخير. وجهها شاحب وتبدو متعبة.

ـ هل هي مريضة؟

ـ قالت إنها ليست مريضة.

واصلت:

ـ بابا هل تعرف أن ماما شاركت في مظاهرة ١٣ مايو؟

ـ توقعت ذلك، فلها ميول فوضوية.

تجاوزت ما قاله لأنني لم أفهمه.

ـ بابا، ما المانع في أن تعود أمي، وترجعا عن الطلاق؟

لم يجب. واصلت:

ـ يُمكن الرجوع عن الطلاق، أليس كذلك؟ لو وافقت نكتب لها رسالة عن الموضوع، أو نتصل بها في التليفون، ستوافق. وإن لم توافق فورا، نتصل بها مرتين أو ثلاثًا فتقبل.

قال:

ـ ندى انتهى الأمر. اختلفنا وانفصلنا، للأسف.

ـ ما دمت تقول للأسف، يمكننا إصلاح العلاقة.

ـ لا أظن.

ـ لماذا؟

ـ لأنها انتهت!

ـ لا شيء ينتهي. (من أين أتتني تلك الحكمة؟!)

ـ ارتبطتُ بامرأة أخرى، وأفكر جدّيًا في الزواج منها.

صحت:

ـ لا تقل لي إنها الكُمبارس؟!

ـ قلت لك إنها سيدة محترمة، ولا داعي لسلوك الأطفال!

لم أجد ردا سوى

– بالمناسبة يا بابا موقف الحزب الشيوعي الفرنسي من ثورة الطلبة والعمال كان زبالة. حتى الشاعر أراغون ـ تعرف كم هو محبوب ـ عندما اعتلى المنصة ليخاطب الطلاب سخروا منه، وهتفوا بتهكم «تعيش الستالينية!» وفي مظاهرة ١٣ مايو كان موقف اتحاد العمال الذي يسيطر عليه الشيوعيون فضيحة، لعب دورا مشبوهًا في فض المظاهرة و...

قاطعني:

ـ لم تكن الحركة كلها سوى هبّة عشوائية غير محسوبة العواقب، يحركها في كثير من الأحيان مغامرون ويسار طفولي: ماويون وتروتسكيون وفوضويون.

داهمتني قائمة المصطلحات التي استخدمها. ما معنى يسار طفولي؟ ما الخطأ في كون البعض منهم تروتسكيًا؟ وما معنى «تروتسكي»؟ هل لفوضوي معنى سياسي أم أنها تقتصر على المعنى الحرفي؟ هل لشعر جيرار المشعّث علاقة بذلك؟ وكيف تكون أمي فوضوية وهي حريصة كل الحرص على ترتيب ملابسها وبيتها، وكانت توبّخنا على الفوضى التي نخلّفها في البيت. ما المقصود بفوضوي؟!

توقفت عند الكلمة التي أفهمها.

- ليس صحيحا، لم يكونوا مغامرين!

- بلى، هم مغامرون!

- هذا ما قاله الحزب الشيوعي الفرنسي وكان موقفه سيئًا، شباب الحركة في فرنسا يحتقرونه، ويتشككون في القيادات النقابية التابعة له. أما هنا فلا أظن أن أحدا يعرف شيئا عن الشيوعيين أو يهتم بهم!

طعنة بطعنة.

انفضت الجلسة.

هدأت.

بدا لي أنني هدأت.

حين اختليت بنفسي واجهت السؤال: ما الذي أفعله لو تزوج أبي من هذه المرأة؟

أنتقل إلى باريس للإقامة مع أمي.

أسافر إلى الصعيد وأقيم مع عمتي.

والمدرسة؟

لا توجد مدرسة فرنسية في القرية.

أحوِّل إلى مدرسة عربية.

أبقى في القاهرة وألتحق بمدرسة داخلية فلا أرى وجه هذه المرأة المطلي بطِنّ من المساحيق.

صباح اليوم التالي، بدلا من صباح الخير، أعلنْت:

ـ لن أبقى في هذا البيت إن جاءت الكُمبارس لتقيم معنا فيه.

صاح فيّ:

ـ أنت طفلة مدللة لا يشغلك سوى نفسك. ثم أنك صفيقة لا تعرفين حدودا للكلام ولا تقيمين أي وزن ولا احترام لمن هم أكبر منك سنًا. سأتزوج حمدية (يا إلهي واسمها حمدية! كنت نسيت أن لها اسمًا، من أين عثر أهلها على هذا الاسم؟).

قال:

ـ سأتزوجها، وستقيمين معها وتعاملينها بكل الاحترام. لن أتسامح إطلاقا في أي تجاوز من جانبك.

صحت فيه:

ـ تنتظرك أمي خمس سنوات وأنت في السجن فتخرج وتتركها وتتزوج من قردة اسمها حمدية!

صفعني.

لم أذهب إلى المدرسة. قضيت اليوم أبكي. ولو كانت أمي معي لعَرِفَت أن وصلة البكاء هذه كانت الأطول (أطول من البكاء على قشط الرضيع على الثوب الأحمر الجديد الذي أردت إبهار أبي به في زيارتي الأولى له في المعتقل).

في المساء حاول مصالحتي ولم أقبل.

لم أبادله حرفا طوال أسبوعين.

كانت هذه بداية المرحلة الأصعب في حياتي. امرأة لا أطيقها جاءت لتقيم معنا في البيت، لا تترك لي من المكان الأليف سوى غرفة نومي، الحيِّز الوحيد الذي لم تتعدّ عليه. وجودها في البيت يشعرني بالاختناق، لا تدوس لي على طرف فحسب بل تجثم بوزنها الثقيل كله على صدري. أتمنى أن تموت. أتمنى في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة أن تموت. سخطي على أبي بلا حدود. لا يهتم، لا ينتبه. لا يرى لا يسمع لا يشعر. وأنا مقرفصة، رأسي بين ذراعي في محاولة يائسة لحمايته من أنقاض منزل ما زال بعض ركامه يتساقط عليّ أخشابًا وزجاجًا وحجارة تُجرِّحني وتُسيل دمي.

بدا لي أنني أكرهه. بدا لي أنني أشفق عليه شفقةً ممزوجةً بازدراء، أظن فيه غباءً أو حماقةً أو أنانيةً مأساوية.

صرت أكتب رسائل طويلة لأمي، وأعد الأيام في انتظار رسائلها ابتعدت عن صديقاتي إذ بدا لي القرب غير ممكن دون أن أحكى عر همومي، ولم أكن قادرة ولا راغبة في الكلام عن أبي بالصورة السلبيا التي أصبحت أراه عليها.

الفصل الثامن

تذكرة إلى فرنسا

بدءًا من المرحلة الثانوية كنت أقرأ كثيرًا ولكن بعد مجيء الكُمبارس لإقامة معنا صرت أقرأ بنهم وبلا انقطاع. أقرأ روايات وكتبًا في التاريخ وفي الاجتماع والسياسة (أرسلت لي أمي كتابا عن ثورة ٦٨، بدأت في قراءته ما إن استلمته بعد عودتي من المدرسة وانتهيت منه قبل موعد المدرسة بنصف ساعة. يومها غفوت مرتين أثناء الدرس). أقرأ كل ما تقع عليه يدي من كتابات. كانت الروايات هي الأحبّ إلى نفسي، تطربني اللغة وقدرتها السحرية على أخذي من هنا إلى هناك عبر الأماكن والأزمنة والشخصيات والمصائر. أبكي وأضحك أو تتسارع دقات قلبي أو يبدو لي أنها سوف تتوقف خوفًا أو استباقًا لحدث مثير. أعيش حياة موازية تستغرقني تمامًا بعيدًا عن حمدية وزوجها، حياة تتبدل شخوصها وأماكنها مع كل عمل جديد. أنهي رواية فأبدأ ثانية، أختمها فأشرع في قراءة ثالثة. أجهزت على كل ما في البيت من روايات خلّفتها أمي، أو اقتناها أبي. روايات فرنسية رومانسية وواقعية من القرن التاسع عشر لهوجو وشاتوبريان وبلزاك وستاندال وفلوبير وزولا. روايات عربية للحكيم ومحفوظ والشرقاوي. روايات جزائرية مكتوبة بالفرنسية لكاتب ياسين ومحمد ديب. روايات

إنجليزية مترجمة إلى الفرنسية أو العربية لديكنز والأختين شارلوت وإميلي برونتي. لم يكن التلفزيون مثيرا لاهتمامي، ولا كنت أمارس الرياضة إلا في حصص التربية البدنية والنشاط المفروض علينا يومين في الأسبوع بعد اليوم الدراسي.

في السادسة عشرة من عمري كانت حصيلتي من المعارف خليطًا مدهشًا يتداخل فيه فلاحو بلزاك بفلاحي الشرقاوي، والشوارع الخلفية للقاهرة بحارات لندن، ولا يقتضي الانتقال من مدام بوفاري إلى أمينة زوجة السيد أحمد عبد الجواد سوى لفتة صغيرة في الخيال، ويبدو لي العاشق هيثكليف وزوجة روشستر المجنونة والتي سجنها في علّية في داره، أكثر حقيقية وحضورًا من البشر الذين أتعامل معهم كل يوم. ثم إن هذه القراءات كانت تمنحني سلطة على أقراني، كنت أعرف أكثر فأتحدث بثقة واعتداد، فمن في السادسة عشرة عاش حبا عاصفا وممتدا كحب هيثكليف، يمتزج فيه العشق بالحقد والشر؟ ومن أُتيح له امتياز أن ينتقل في غمضة عين من وكر للصوص في مدينة معتمة إلى شاب بهي يشارك في مظاهرة خرجت ابتهاجًا بعودة سعد فتصيبه رصاصة من جنود الاحتلال؟ ومن تمتزج في منامه صورة هذا الشاب بصورة شاب آخر شعره أشعث يقول أنه ساهم في الاستيلاء على السوربون؟

قالت أستاذتي في الصف الثالث الثانوي: ندى لديك أسلوب يخصُّك، أسلوب أدبي رفيع. هل ستلتحقين بكلية الآداب؟ قلت: لا، أنوي الالتحاق بكلية الهندسة.

في خريف عام ١٩٧١ التحقت بكلية الهندسة وانتهى العام الدراسي بالرسوب. لم يكن السبب هو اكتشاف أن المقررات مملة وأنني لا أحبها ولا أرغب في مواصلة هذا التخصص، وإن كنت اكتشفت ذلك فعلا. ولا كان السبب ضغط وجود حمدية معنا في البيت إذ كنت تجاهلتها تماما.

كنت انشغلت بالمشاركة في النشاط الطلابي. لم تكن مجرد مشاركة بل انهماك يومي بتفاصيل كثيرة وأفكار جديدة وأفاق انفتحت على غير توقع أمامي. حمى جديدة اجتاحتني بشكل تام، تخللها ارتباط بزميل من زملائي، ارتباط أقرب إلى «القطار الروسي» في الملاهي يعلو بي على ارتفاع شاهق ثم يهوي فجأة ليعود يعلو من جديد.

في الجامعة، أتحرك كالنحلة. أطير من كلية الهندسة إلى كلية الآداب، ومن الآداب إلى كلية الاقتصاد ثم أعود طائرة إلى كلية الهندسة ثم أطير ثانية إلى الحرم الجامعي. أحضر مؤتمرات وندوات وحلقات نقاشية. أقبل وأرفض وأتفق واختلف وأقول نقطة نظام. اكتسب بسرعة مدهشة معارف تاريخية وسياسية وقاموسا من المفردات كانت قبل عام واحد ستبدو لي رُطانًا مستغلقًا. وفي البيت أنسخ بيانات على الآلة الكاتبة وأُحرِّر جريدة حائط أخُطّ عليها ما أعطاه لي زملائي وزميلاتي من المقالات، ثم أملأ الفراغات المتبقية برسوم كاريكاتورية وزخارف وأبيات من الشعر العامي والفصيح.

بعد ثلاثة أشهر من التحاقي بالجامعة لاحظت حمدية باندهاش أنني أربط خصر بنطلوني بحبل. فسرّت:

ـ نزل وزني كثيرًا على ما يبدو. جربت حزام بابا فوجدته واسعا.

ـ غيّري البنطلون، البسي فستان.

لم أجب. لم يكن لدي ثوب نظيف. جذبت أطراف القميص من البنطلون وجعلته مُسدلا بحيث يغطي خصري والحبل الذي يربطه.

ـ تمام كده؟

ـ تمام! انتظري دقيقة.

أحضرت حمدية شريط قياس ولفّته حول خصري. قالت: اتركي لي بنطلوناتك سأضيّقها لك. مساء اليوم التالي وجدت البنطلونات الثلاثة التي أعطيتها لحمدية على مشجب معلق بباب غرفتي. كانت مغسولة ومكويّة. قست واحدًا منها. كان القياس مضبوطا.

الحديث عن واقعة البنطلونات ألطف من الحديث عن ظهور شاذلي في المشهد.

تستوقفني المفارقة: لم تدخل حمدية الغرفة ذلك اليوم (ولا قبلها طبعًا لأنها كانت مساحة محظورة عليها منذ انتقالها إلى البيت). تركت البنطلونات معلقة بمقبض الباب المغلق. خطوتها الحيية تؤرخ للحدّ الفاصل بين مرحلتين. سينفتح لها الباب فتدخل بهدوء وتدريجيًا. لم أنتبه متى تحديدًا قلت لها أهلاً، ولكنني قلتها. أما شاذلي فد دخل بصخب وخرج بصخب أكبر مخلِّفا وراءه حالة من الفوضى والبؤس والارتباك، وسنوات مُكلِّفة في محاولة إعادة ترتيب مفردات حياتي.

نعم هما مفارقتان، أو قل مفارقة مركّبة من جزئين كل جزء منها على طريقة المفارقات قائم على عنصرين!

ظهر شاذلي على المسرح تماما كما ظهرت حمدية، بشكل مفاجئ وغير مرحَّب به.

ـ هل صحيح أنك ابنة الدكتور عبد القادر سليم؟

ـ أحب أن ألتقي بوالدك!

ـ أريد أن أسأله عن رأيه في حل الحزب، وموقفه من قبول زميلين من زملائه الاشتراك في الوزارة، و...

ـ أمك فرنسية، أليس كذلك؟

ـ سمعت أنها تعرف أراغون وأنها عرفّت والدك به. قرأت اللقاء الذي أجراه والدك معه في مطلع الخمسينيات.

ـ هل يمكنني أن أجري حديثًا مع أمك حول ذكرياتها عن أراغون؟

فاجأني ردّي:

ـ لن تقبل. إنها تكتب مذكراتها ومؤكد أنها ستضمِّنها قصة معرفتها بأراغون.

أزعجني اقتحامه وبدا لي أن جرأته لا تخلو من وقاحة. اختلقت موضوع المذكرات لأنهي الكلام.

ما الذي حدث بعدها لكي أميل إليه وأصاحبه؟ بعد أيام قليلة قال لي أنه مهتم بي، وأنني ربما لا أبادله الاهتمام لأنه فلاح وأسمر وشعره خشن وربما أيضا لأن اسمه شاذلي. ضحكت لهذا السبب الرابع الذي ساقه. كان مضحكا فعلا، باقي القائمة كأولها بدا مستفزًا: وأنتِ طبعًا نصف فرنسية وشعرك ناعم وبنت أكابر واسمك ندى! لم أضحك من البند الرابع في القائمة الثانية،؛ بدا لي الحديث جارحًا. هل كان ابتزازًا؟

نجح شاذلي على أي حال. كأنه مد يده بصورة لي استنكرتُها ثم ارتبكت وأنا أتساءل إن كان يرى مني ما لا أراه من نفسي.

صرنا نلتقي.

وعندما دعوته أخيرا لزيارتنا، كان تعليق أبي عليه سلبيًا:

ـ ولد مثل السردينة، ما الذي يعجبك فيه؟!

ـ جسور وذكي ولمّاح ودمه خفيف ومهموم بالقضايا العامة.

ـ شاطر، هل تعرفين معنى الكلمة؟ ابحثي عنها في القاموس!

ـ لن أبحث! أنت لا تعرفه. أنا أعرفه جيدا فهو صديقي، صديقي جدًا!

أعدت على أبي بنبرة غاضبة ما قاله لي شاذلي في بداية لقائنا، أعدته بالنص:

ـ تتعالى عليه لأنه فلاح وأسمر واسمه...إلخ.

ضحك أبي ساخرًا وقال:

ـ طبعًا، فأنا جئتك من لوكسامبورج ليلة الأمس!!

تعززت صداقتي بشاذلي في الاعتصام الكبير. تلازمنا في القاعة مع آلاف الطلاب طوال سبعة أيام. نناقش الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ننتقد الحكم ورموزه، والقمع وأمريكا وإسرائيل. نرفع يدنا لنصوت مع، أو نصوت ضد، أو نقول نقطة نظام. نختلف ونتفق ونساهم في صياغة بيان ونتشارك في الحوار والسندويتشات والغضب والقلق والزهو بالانتماء لجسد طلابي له لجنة عليا من اختياره، يوقع بياناته بعبارة «كل الديمقراطية للشعب وكل التفاني للوطن». نرسل وفودا إلى مجلس الشعب والنقابات ونستقبل وفودًا منها، وتأتينا برقيات مساندة وتأييد ونطالب بحضور رئيس الجمهورية للرد على أسئلتنا.

أمضي اليوم بطوله في القاعة ولكنني نزولاً على رغبة أبي وإصراره، أغادر الجامعة في التاسعة أو العاشرة مساء، يصحبني شاذلي إلى البوابة، يكرر: أبوك رجعي يا ندى. لا أفهم كيف يمنعك من البيات في الاعتصام، ولا أفهم لماذا تطيعينه؟! ثم تصبح على خير، تصبحين على خير. يعود إلى القاعة واتجه إلى البيت. هكذا طوال أسبوع يتكرر المشهد والحوار حتى ألقي القبض على كل المعتصمين فجرًا، وسفّرني أبي إلى أمي خشية أن يتم القبض علي.

هل كان خطأ قبولي بقرار أبي؟ لم يكن باستطاعته حملي في حقيبة وشحني إلى فرنسا رغمًا عني. هو قرر، ولكنني قبلت قراره. سيشغلني السؤال لسنوات. «ألف وخمسمائة من زملائك وزميلاتك في السجن، ماذا تفعلين هنا؟» يؤرقني السؤال ويتكرر حتى يثبت كمحفوظات الصّغَر. شعور بالذنب ينحفر عميقا في داخلي يعززه لاحقًا كلام شاذلي بين جد ومزاح: ذهبت إلى باريس للفسحة وراحة البال وتركتنا في الزنازين! فينعقد لساني الطويل عادة، وتتشتت النظرة في عيني كطفلة مذنبة. لم أحك لشاذلي عن تفاصيل الأسابيع الثلاثة التي قضيتها مع أمي في باريس. لم أقل له سوى: تعلمت الطبخ، فرفع حاجبيه دهشةً ثم راح يضحك بصوت عال.

الفصل التاسع

نحتاجك ساعة أو ساعتين

لم تتوفر راحة البال، رغم حنان أمي ورغبتها في أن تخفف عني. انقطاع تام عن أخبار زملائي. لم يكن ذلك زمان الفضائيات والشبكة الإلكترونية. لا شيء تقريبا عن الطلاب المعتقلين، لا خبر. وحين أتّصل بأبي تليفونيا يتحاشى أي كلام في الموضوع لدواعٍ أمنية، على الأرجح. لماذا قبلت بقراره؟

في الصباح تذهب أمي إلى عملها. أفتح كتابا. أفتح التلفزيون. أضع شريط أغنيات في المسجِّل. أقف في الشرفة. أعود إلى الكتاب. أتركه لأدور في البيت. أرجع إلى الشرفة. أتطلع في عقارب الساعة ثم أعود أتطلع فيها. لا أعرف أحدا في كل هذه المدينة. جيرار يدرس في جامعة ما بعيدا عن باريس. لا أعرف كيف اتصل بالبنات والأولاد الذين عرّفني بهم. لا أذكر أسماءهم. السماء غائمة طوال الوقت، تمطر غالبًا. أنزل إلى الشارع وبعد خمس دقائق أصعد إلى المنزل. وأنتظر. أظل أنتظر إلى أن أسمع دورة المفتاح في الباب، فاندفع لاستقبال أمي. احتضنها ثم نعد العشاء سويا ونجلس لتناوله ونتحدث، وأطيل الحديث، أماطل في

الذهاب إلى النوم تحسُّبًا للوحشة التي تنتظرني صباح اليوم التالي.

في زيارتي الأولى لباريس أخذني جيرار وأحاديثه المثيرة من أمي، أما هذه المرة فلم يفلح شاذلي في أن يأخذني بعيدًا عنها، بل الأرجح أنه قرّبني منها لا لأنني لم أكن أفكر فيه (كنت دائمة التفكير فيه، إن شعرت بالدفء تحت الأغطية الثقيلة، وإن تناولت طعاما طاب لي، وإن شعرت بمتعة الماء الساخن على رأسي وجسمي في حمام دافئ أعرف استحالة أن ينعم بمثله). تثقل خيالاتي عليّ فاندفع باتجاه أمي، أهرب على ما أظن الآن، إليها، أريد أن أسمع منها، أن أتعرّف عليها أكثر، أن أقترب منها وألتصق بها طلبًا للأمان.

ـ ماما، كيف تعرّفت على أبي؟

ـ ماما، متى قال لك أبي إنه يحبك ويريد الزواج بك، ما الذي قاله؟

ـ ماما، هل كان الانتقال للإقامة في القاهرة صعبًا؟

ـ ماما، لماذا انفصلتما؟ لا يمكن أن تكون غرفة معبّقة بالدخان أو مئة جنيه أعطاها لابن عمته سببا في الطلاق!

ـ ماما هل يمكن أن نذهب لزيارة إيفوار. لا أذكر أي شيء عن زيارتي لها معكما، هل كنت أتممت الثانية من عمري أم كنت أصغر؟

ـ ماما احكي لي عن أبيك؟

ـ ماما، كيف كانت علاقته بجدتي، وماذا فعلت جدتي عندما مات جدي؟

ـ ماما هل ما زال لك أقارب في القرية؟

ـ ماما...

تحكي فأنصت إليها مشدودة ومشدوهة بإيقاع جملتها وتلوّن عينيها العسليتين وحركة رأسها فجأةً وخفيفًا إلى أعلى وهي تشاركها في معنى الكلام. يملأني ارتياح أقرب إلى السكينة.

في الأسبوع الثاني قررت أن أدلِّل أمي بوجبة ساخنة تجدها في انتظارها عند عودتها إلى البيت. استعنت بكتاب طهي وجدته في مكتبتها. استهوتني اللعبة فأعدتها، ثم اكتشفت أن للطهي لوازمه وطقوسه. أختار من الكتاب الطبخة التي أنوي إعدادها، أذاكر المطلوب وأغادر البيت إلى محل قريب وأشتري. ثم لفتت أمي نظري إلى السوق الكبير. فصرت أركب المترو وأذهب إليه، لا للشراء فحسب بل لمتعة الذهاب إليه. باريس الأخرى الشاردة من البطاقات البريدية وعروض الأزياء وإعلانات العطور. نساء لا يشغلهن فيما يبدو امتلاء أجسامهن (تفيض بلا اعتذار غير عابئة بالمقاييس)، ورجال تمتزج فيهم خشونة الواقع اليومي بعذوبة ابتسامة تأخذني على غير توقع و«بونجور مدموازيل». ابتسم وأشتري وأتبادل الحديث مع الباعة والعابر من المشترين. أعود إلى البيت محملةً بالخضراوات والبقول وشريحتي لحم أو دجاج، وأحيانا زهرة أفاجئ بها أمي ما إن تفتح الباب وتخطو إلى داخل الشقة.

كانت تلك بداية إتقاني للطهي. انهمكت فيه كما أنهمك في كل جديد، ولكن انهماكي هذه المرة على غير جنوناتي الأخرى لم يخْبُ. تطور مع السنوات إلى هواية حقيقية أحبها وأتقنها وأعتبر نفسي مرجعًا فيها. ورب ضارة نافعة، ورب اكتئاب ممزوج بالشعور بالانقطاع والضجر ووخز الضمير ينتج عنه «سوبر شيف». (أبتسم وأنا أكتب هذا الكلام، ورغم الابتسامة، فالوصف دقيق!)

أما الأثر الجانبي الأغرب لهذه الهواية الجديدة أنها ليّنت العلاقة بيني وبين زوجة أبي. وما دمنا نتحدث عن الطهي فيجوز استخدام تعبير

«ربّتت» مفاصل الباب الذي يفصل بيننا فصار يفتح ويغلق دون صرير يثير القشعريرة. في أول جمعة بعد عودتي أعلنت: «سأعد لكم الغداء» اندهش أبي واندهشت حمدية (لو أن أهلها اختاروا لها اسما آخر، لهان الأمر قليلا، حمدية!) وأظنها اعتبرتها خطوة حسنة النوايا لمساعدتها، وبالغت في شكري وفي إطراء ما أعددته من طعام. ثم صرنا نتبادل الخبرات. أعلّمها طبخات أطلّع على تفاصيلها في الكتب، وهي تطلعني على ما تعلمته من أمها وجدتها.

ضجر بالمقررات، ونشاط مكثف واعتقالات وسفر وعودة ثم النشاط مجدّدًا. النتيجة: رسوب في ثماني مواد من عشرة (المادتان اللتان اجتزت الامتحان فيهما بنجاح لم يكن لهما علاقة بالتخصص)؛ ونتيجة أخرى أقل ضررا أو لنقل أكثر نفعا: أكسبني هروبي إلى المطبخ مهارة يمكن إن ضاقت بي الحال أن تكون مؤهِّلاً لوظيفة «طبّاخة» بمرتب أكبر بكثير من مرتب مهندس ناشئ!

غضب أبي لرسوبي. وبّخني بعنف. حمدية دافعت. قالت: والله حرام، سنة دراسية مضطربة. اعتقالات وقلق وخوف، وسفر على غير موقع أو استعداد، هل هي حجر؟! ربّتت على كتفي وقالت: إن شاء الله العام القادم تحصلين على امتياز.

ولكن «العام القادم» التي تمنّت لي فيه زوجة أبي النجاح بامتياز، جاء بمشاغله ومفاجآته أيضا. حوّلتُ إلى كلية الآداب، وبدت لي الدراسة في قسم فرنسي الذي التحقت به سهلة ما دمت أتقن الفرنسية وأحب قراءة الأدب وأنهي في ليلتين أو ثلاث النص الذي قد يكدح في فهمه بعض زملائي أسابيع. ولكنني لم أحصل على امتياز بل على درجات النجاح بالكاد في معظم المواد، ورسبت في مادتين حملتهما معي إلى الفرقة الدراسية التالية.

كان عاما حافلا بمجريات مثيرة بدأت بتقديم ثلاثة زملاء من كلية الطب إلى مجلس تأديب بتهمة الكتابة في جرائد الحائط والاتصال بطلاب الفرق الأخرى وإثارة الشغب، ثم تم القبض على ٥٢ طالبا. فبدأنا نشاطا مكثفا للمطالبة بالإفراج عنهم، ولتأكيد أن حملات الاعتقال لن تحول بيننا وبين مواصلة الإعلان عن مطالبنا. عقدنا مؤتمرات، أصدرنا بيانات، اتصلنا بنقابات، واعتصمنا مجدّدًا في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة. واعتصم زملاء وزميلات لنا في كلية الهندسة وكلية الطب بجامعة عين شمس ثم نقلوا الاعتصام إلى قصر الزعفران، مقر إدارة جامعة عين شمس. ثم حملة اعتقالات ثانية.

هذه المرة لم أسافر إلى باريس.

طرقٌ على الباب فجرًا.

أيقظني أبي. همس: هل معك أية أوراق؟ أعطيته الأوراق. أخذها وطواها وقفز بخفة وهدوء فوق كرسي وأخفي بعضها في الإطار الخشبي لزجاج باب الشرفة، وبعضها الآخر في إطار النافذة، في الشق الدقيق الذي يُدخلون منه لوح الزجاج. ثم همس في أذني وهو يتجه لفتح الباب: انكري كل شيء، حتى ما تعتقدين أنه بلا أهمية، وارفضي الكلام إلا في وجود محامي.

فتح الباب. دخل رجلان في اللباس المدني (اتضح فيما بعد أنهما ضابطان) يتبعهم ثلاثة من العساكر أو المخبرين. وبقي عند الباب ثلاثة رجال بزي الشرطة يُشرعون في أيديهم البنادق. فتّشوا البيت. لم يجدوا شيئا. قال أحد الضابطين:

ـ سنأخذها ساعة أو ساعتين، فقط.

سارع أبي إلى حجرة نومي وعاد بحقيبة صغيرة وضع فيها أغراضًا لي.

قلت وأنا أستعد للنزول:

ـ لا داعي للشنطة. ما دمت لن أبقى عندهم إلا ساعة أو ساعتين.

قال أبي بلهجة آمرة:

ـ خذي الشنطة!

لم أنتبه لوجود حمدية إلا وهي تضع على كتفي معطفها وفوقه شالاً صوفيًا كبيرًا وتقول: خذي بالك من نفسك. كان وجهها أحمر ومبللا بالدموع.

أوصلني أبي حتى باب العمارة حيث سيارتا شرطة. أركبوني في سيارة منهما.

لم أشعر بالخوف وهم يدخلون البيت ويفتِّشون فيه، ولا أرهبني منظر رجلي الأمن المسلحين بباب الشقة ولا المسلحين الثلاثة الذين فوجئت بهم عند أسفل الدرج بالقرب من مدخل العمارة. ولكنني وأنا أجلس بين الضابطين اللذين ألقيا القبض عليّ، أتطلع إلى شوارع مظلمة ومقفرة، غلبني شعور مفاجئ أنني أختنق. طلبت من الجالس إلى يميني أن يفتح نافذة السيارة. لم أقل له أنني أريد هواءً لكي أتنفس، ولكن هذا ما كنت أريده فعلاً، لا مجازًا.

الفصل العاشر

البَانوبْتيكون

من الأنسب أن أبدأ هذا الفصل بشرح العنوان الذي قد يبدو طلسمًا مستعصيًا على الفهم ومحيِّرًا في كيفية نطقه. بان/ اوبتيكون كلمة يونانية مركّبة من كلمتين: الأولى تعني الكل أو الجميع، والثانية تعني الرؤية أو المراقبة. والعبارة اصطلاح استخدمه المفكر الإنجليزي بنثام في تقرير له عن إصلاح السجون نشره في أواخر القرن الثامن عشر. اقترح بنثام بناء السجن بما يتيح فصل كل سجين على حدة، ومراقبة كافة السُجناء من قبل حارس واحد أو حراس معدودين. اقتراح معماري بهدف اقتصادي، يضمن عبر هندسة البناء خفض تكلفة إحكام السلطة قبضتها على عدد كبير من الأفراد، يتعيّن عليها التعامل مع مجموعهم.

للسجن المقترح مبنى دائري من عدة طوابق، تتجاور في كل طابق منها الزنازين المنفصلة، وفي مركز بَاحَته الداخلية برج حراسة يضمن مراقبة متصلة لكل السجناء، إذ تمتد كل زنزانة طوليا بعمق المبنى، بين الواجهة المُطِلّة على الباحة الداخلية حيث البرج، والواجهة الخارجية للسجن. ولكل زنزانة منفذان، الأول وهو من قضبان الحديد، يطل على البرج،

والثاني نافذة في الجدار المقابل، تسمح للضوء بالنفاذ إلى الزنزانة مما يجعل السجين مرئيًا طوال النهار من قبل الحارس المُشرِف في البرج. ويقترح بنثام أن تكون نوافذ البرج، بخلاف نوافذ الزنازين، محجوبة بسواتر خشبية تتيح للحارس أن يرى دون أن يُرى. كما يقترح تصميمًا يجعل من حجرات البرج أقرب إلى متاهة صغيرة، فيستحيل على السجناء أن يعرفوا بالسمع أو النظر موقع الحارس أو الاتجاه الذي ينظر إليه. هكذا يصبح وجود الحارس أو غيابه، مراقبته أو انعدامها سيّان، إذ يتحول هذا الوجود إلى حالة يستبطنها السجناء وتتصدّر في وعيهم وتتحكم في مسلكهم على مدار اليوم.

ويعي بنثام القيمة النفسية والاقتصادية لاختراعه الذي يصفه بأنه «أسلوب جديد يمكِّن عقلاً من عقلٍ آخر، يتحكّم فيه ويفرض عليه سطوته، والعقل الآخر هنا هو كم من البشر لم يسبق له مثيل».

تعرفت على فكرة بنثام التي اعتُبرت نقلة إصلاحية صريحة تم اعتمادها في بناء السجون والمستشفيات والمدارس والمصانع، في معرض قراءتي لكتاب آخر أرسلته لي أمي وأنا طالبة في الفرقة الرابعة بالكلية، كتاب ميشيل فوكو «المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن».

اتخذ فوكو من منظار بنثام (البانوبتيكون) مجازا دالا على علاقة السلطة بالمواطنين في المجتمع الحديث وتغلغلها في حياتهم بما يجعلها جزءًا من تكوينهم، فتحكمهم من داخلهم كما تحكمهم من الخارج.

يبدأ فوكو كتابه بصور التعذيب فيما قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: السحل والحرق وقطع الأوصال والتمثيل بالجسد قبل إعدامه وبعده، دائما على مشهد من الناس. ثم ينتقل إلى ذلك الإصلاح المستجدّ الذي مكّن السلطة من الهيمنة دون اللجوء لمشاهد التعذيب المروِّع

التي كانت تلجأ إليها في السابق، وبالتالي دون حاجة إلى أن تكون مرئية متصدّرة. ويستفيض فوكو في شرح تلك التكنولوجيا السياسية التي طورتها السلطة للتحكم في أجساد البشر وصولاً لتطويع هذه الأجساد وإخضاعها والاستفادة من طاقتها؛ اقتصاد سياسي موضوعه جسد المواطن، وأداته أشكال مدروسة ومحسوبة ومنظّمة، قادرة دون عنف ظاهر أو إرهاب ملموس أن تنجز وظيفتها بدقة أكبر وتكلفة أقل. فمن مزايا هذه التكنولوجيا أنه يصعب إرجاعها إلى عنصر واحد من عناصر السلطة أو جهاز بعينه أو مؤسسة محددة من أجهزتها ومؤسساتها، فهي تتخلل نسيج المجتمع وتتوزع فيه وتغوص عميقا في تربته، حتى تتحول إلى وظيفة منتظمة مستمرة من وظائفه.

ولأن المجتمع الحديث في رأي فوكو، مجتمع تقييد وعقوبة، يصبح البانوبتيكون المجاز الدال على هذا المجتمع ومختلف مؤسساته. يقول فوكو: «ما الذي يدهش في أن يشبه السجن المصانع والمدارس وثكنات الجنود والمستشفيات التي تشبه كلها السجون؟»

شدّني الكتاب وإن لم أفهم كل ما ورد فيه. في السنوات اللاحقة سأعود لقراءته أكثر من مرة. ثم أبحث عن كتاب بنثام لأتعرف تعرّفا مباشرًا على مشروعه فأقرأه وأعيد قراءته، وفي كل مرة أتمثل شيئًا لم أكن تمثلته في المرات السابقة، وأتوقف عند فقرة في هذا الكتاب أو ذاك فأحملها خارج سياقها كأنها صورة تخصُّني اقتطعتها من جريدة أو مجلة واحتفظت بها مع غيرها من صوري الشخصية.

لا مجال هنا لمناقشة كتاب فوكو أو كتاب بنثام ولا نقل ما ورد فيهما أو محاولة ربطه بواقعنا، ما أردت الإشارة إليه هو أن فكرة البانوبتيكون فتحت لي باب التأمل المتصل أحيانا والمتقطع في أحيان أخرى، للعلاقة بيننا

وبين السلطة، ودورها في تطويع المختلف أو تدميره جزئيًا أو بالكامل، واحتمالات الإفلات من قبضتها بمقاومة ما.

أضع الآن جانبًا بنثام وفوكو، وأحصر النظر في انتحار اثنتين من زميلاتي وموت عشرات منهم قبل الأوان. أعني الموت الفعلي، القضاء والقدر، كأن يمرض الإنسان ويشتد عليه المرض ثم يشتد أكثر فيموت؛ أو لا يمرض ولا يبدو عليه أثر لعِلّة، ثم فجأة وبلا مقدمات، يتوقف قلبه ويموت قبل أن ينتبه أنه يموت. وأعني أيضا الموت الآخر، المجازي: تحلل البدن والروح. المشترَك في الحالتين هو حدوثه قبل الأوان، الأوان العادي والمتوقع، قبل أن يبلغ الإنسان من العمر عتيّا ويتراكم عليه حمل ستين أو سبعين أو ثمانين سنة.

أقفز إلى ملف القضية، أعني قضيتي أمن الدولة: الجناية رقم ١ سنة ٧٣ أمن دولة الوايلي كُلّي ١٣١ سنة ٧٣ عليا. والجناية رقم ١١٣ لسنة ٧٣ أمن دولة، الجيزة). أقول الملف اختزالاً لأن أوراق القضية تتجاوز الفي صفحة وتتضمن ملفّات عديدة منها: بلاغات مباحث أمن الدولة، ومعلومات المباحث عن المقبوض عليهم (لكل بنت أو ولد ملف كامل يبدأ باسمه أو اسمها الثلاثي وأحيانًا الرباعي، ومحل الإقامة والكلية والفرقة. يليها حصر نشاطات المذكور أو المذكورة وملخص أفكاره أو أفكارها، ومجلات الحائط التي شارك أو شاركت في تحريرها، وأحيانا نص كلام قاله أو قالته في ندوة أو لقاء أو في حديث خاص). وهناك ملف لأقوال شهود الإثبات (ضباط مباحث، عاملون في الجامعة بل وأحيانا أساتذة أو طلاب)، وملف الثالث أطول يشمل استجواب المتهمين، وأخيرًا أمر الإحالة إلى محكمة أمن الدولة العليا. في القضية الأولى يتضمن أمر الإحالة لائحة بـ ٥٦ متهمًا (من طلاب وطالبات جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية، وطالب من الأزهر وطالب وطالبة

من الجامعة الأمريكية، فضلا عن صحفية وشاعر واثنين من العمال). أما القضية الثانية فتشمل ٤٦ متهمًا (تدور التهمة أساسًا حول تكوين جماعة أنصار الثورة الفلسطينية. وأكثر من ثلث المتهمين من طلاب كلية الهندسة جامعة القاهرة).

هناك طبعًا ملفَّات أخرى لقضايا مماثلة في أعوام سابقة ولاحقة، (١٩٧٢، ١٩٧٥، ١٩٧٧ ... إلخ) ولكنني أتوقف عند ملفَّات عام ١٩٧٣ لسبب عملي بسيط أنني حصلت على صورة منها من أحد الزملاء، والسبب الآخر عملي كذلك، إذ أن ما أقرأه في هذه الملفَّات جزء من تجربتي المباشرة: يتصدر اسم ندى عبد القادر ثلاث صفحات من معلومات جمعتها عنها المباحث في ملف القضية الأولى، ثم يرد الاسم ثانية في أقوال المتهمين، على رأس ٢٥ صفحة تسجل ما قالته من كلام قبل ثلاثين عاما، ردا على أسئلة التحقيق.

أتصفح الملفَّات، أقرأ بعض شهادات زملائي وزميلاتي، أقفز عن البعض الآخر. أعود لما سبق لي قراءته، أقرأ ملف التحقيق مع سهام مرة ثانية أو ثالثة أو سابعة، في نفس الأسبوع أو بعد شهر أو سنة أو سنوات:

«قبض عليها بمعرفة مباحث أمن الدولة يوم ٣/ ١/ ١٩٧٣ عقب خروجها من المدينة الجامعية لجامعة القاهرة. وحققت معها نيابة أمن الدولة بمعرفة وكيل النيابة الأستاذ صهيب حافظ يوم الخميس الساعة الواحدة والنصف بمبنى مباحث أمن الدولة واستمر التحقيق حتى الثامنة مساء. سألها المحقق..».

ثم «في صباح يوم السبت الموافق ٦/ ١/ ١٩٧٣ عاد وكيل النيابة المحقق إلى مبنى إدارة مباحث أمن الدولة لاستكمال استجواب الطالبة سهام سعد الدين صبري..».

ومرة ثالثة، «في صباح الاثنين الموافق ٨/ ١/ ١٩٧٣ بمبنى إدارة مباحث أمن الدولة استكمل الأستاذ صهيب حافظ استجواب الطالبة..».

تتضمن أوراق القضية عشرات الصفحات مسجّلاً فيها ما قالته سهام على مدى عشرين ساعة موزّعة على ثلاثة أيام تتنقل كل يوم منها في سيارة من سيارات الأمن، من سجن القناطر إلى مقر التحقيق في لاظوغلي. تجلس أمام المحقق وتتكلم ثم يعيدون الحديد إلى رسغيها وتغادر المبنى تعيدها السيارة إلى السجن. تذهب وتعود وتذهب وتعود ثم تذهب وتعود.

تقول: نعم، شاركتُ في الاحتجاج على القمع ودور إدارة الجامعة والاتحادات الطلابية في إرهاب الطلاب بدلا من حمايتهم وتمثيلهم.

نعم، شاركتُ في الاعتصام. شاركتُ في المسيرة. شاركتُ في المؤتمر. شاركتُ في نشاط جماعة أنصار الثورة الفلسطينية. شاركتُ في الدعوة لإنشاء لجان للدفاع عن الديمقراطية.

نعم، انتقدتُ في مقالاتي السلطة لممارساتها القمعية وسياساتها الخاطئة في تناول القضايا الوطنية.

تقول: في يوم ٢٦/ ١٢/ ١٩٧٢ أثناء وجودي في كلية الهندسة، جاء بعض الطلاب من كلية الحقوق وأخبروني أن اتحاد الطلاب عقد مؤتمرا في كلية الحقوق وأن أي طالب يُعبّر عن رأي مختلف يُتهم بالشيوعية ويتعرض للضرب بالمُدى، وفعلا أصيب أربعة طلاب ونقلوا إلى المستشفى. ولم يُحقِّق أحد في ذلك.

تقول: في يوم ٢٧/ ١٢/ ١٩٧٢ قام اتحاد الطلاب وجماعة شباب الإسلام التابعة للحكومة بتمزيق مجلات الحائط في كلية الهندسة، وهددوا الطلاب بالمُدى فاستُفِزّ الطلاب وتجمعوا في مظاهرة، وكان علي

أن أُخرج هذه المظاهرة من كلية الهندسة بسرعة حتى لا يحدث اشتباك عنيف. وقفت أمام حشد الطلاب وصرت أصيح: إلى حرم الجامعة إلى قاعة جمال عبد الناصر. أثناء خروج المظاهرة من كلية الهندسة كان التجمع المعادي يطلق هتافات ضدنا ويكسر الحوامل الخشبية للمجلات لاستخدامها في ضربنا. قررت أن أبقى في كليتي لأواجههم. أحاطو بي وقالوا: اطلعي بره، أنت شيوعية. لو ما طلعتيش حانشيلك ونطلّعك بره وحانضربك. ومش عايزينك تتكلمي في الكلية خالص. فقعدت على الأرض وقلت: (دي كليتي ومش حاخرج منها وحاتكلم. عاوزين تضربوني اضربوا).

وكان الطلبة بدأوا ينزلون من المدرجات فوجدوا بنتا بمفردها تجلس على الأرض يحاصرها شباب يرفعون عليها الشوم. فانفضح موقفهم وبدأوا ينسحبون. ولم يُحقّق أحد في ذلك.

لم تُحقِّق النيابة في قيام سيد فهمي مدير المباحث العامة يوم اعتقالي بإهانتي وسبي واتهامي بأنني أقبض أموالا من جهة أجنبية لأقوم بما أقوم به.

لم تُحقِّق النيابة في قيام عناصر من البلطجية بضرب الطلاب بالعصي والسلاسل يوم مظاهرة ٣/ ١.

لم تُحقِّق في أمر السكين الذي كان يحمله أحدهم ويهدِّد به الطلاب.

لم تُحقِّق في إصابة عشرات الطلاب الذين حملهم زملاؤهم إلى الحرم الجامعي، وكان بعضهم مصابًا في رأسه وبعضهم ينزف، ومنهم من كان مصابًا بالاختناق من القنابل المسيلة للدموع، أو فاقدًا للوعي.

لم تُحقِّق النيابة فيما قام به جنود الأمن من تحطيم السيارات وكسر

رجاجها بهراوات ضخمة لاتهام الطلبة بعد ذلك بأنهم يثيرون الشغب.

لم تُحقِّق فيما قام به رجل من رجال الأمن وهو يسحب خلفه طالبا أعرج، يشده شدا والولد لا يستطيع ملاحقة خطوته السريعة فيتعثر في مشيته ويقع على الأرض ومن ورائه عساكر يضربونه بالعصي ويركلونه بالأقدام ويدفعونه دفعا للقيام والركض فيقوم ويحاول فلا يساعده وضعه ليسقط مرة ثانية فيركلونه.

لم تُحقِّق النيابة.

أقرأ شهادة سهام كأنني بعد هناك في السبعينيات أسير وراءها، بعد أن سمعتها مرة فصرت راغبة في أن أسمعها أكثر. ثلاث سنوات فقط هي الفارق في العمر بيننا. كيف؟ قلت: يمكن إذن. رحت أركض لعلي بعد ثلاث سنوات أكون مثلها. تفيض مشاعر وتطفو صور ومواقف وأصوات وأسئلة. غصة في الحلق، تتمكن ثم تذهب. زهو واعتداد. وعي براءة يدفع إلى شفتي بابتسامة. لا أعود البنت التي كنتها، بل أما تريد حماية الصغيرة من تغوُّل الدنيا عليها. أتمتم: تغوّلَت، وكان ما كان. أتمتم: تغوّلَت كثيرًا. تداهمني قشعريرة. تصطدم عيناي بكلمة «المذكورة». أضحك. تتكرر الكلمة بشكل لافت في محضر التحقيق وفي بلاغات المباحث، كما تتكرر في التهم الموجهة إلى سهام وغيرها: تعليق جريدة حائط، كتابة مقال أو بيان، الاشتراك في مؤتمر أو اعتصام أو مظاهرة.

بالخيال ونظريًا، يبدو أن إشارة المباحث والنيابة لتلك النشاطات الطلابية العادية جدًا بوصفها تُهمًا تقتضي تقارير سرية ومخبرين وشهود إثبات، ودق على الأبواب في وجه الفجر وشرطة تسهر الليل، وسجون لها ميزانيات وإدارة وضباط وحرّاس وسيارات زرقاء كبيرة تنقل من هنا

إلى هناك ومن هناك إلى هنا، ووكلاء نيابة يفتحون باب التحقيق ويغلقونه ويمهرونه بكل دقة بتواقيعهم متبوعة بتاريخ اليوم والشهر والسنة بعد ساعات طويلة من التحقيق، هو الأمر المضحك، ولكنني لا أضحك إلا من كلمة المذكورة. ما إن تمر عيناي على الكلمة حتى أبدأ في الضحك، ضحك أجتهد في التحكم فيه وسرعان ما أكتشف حين يفلت مني ويصبح عاليًا وصاخبًا أنني غير قادرة على لجمه.

وليست سهام وحدها المذكورة، كلهم يشار إليهم بالمذكور والمذكورة، أصحابي المقرّبون الذين آلف طول كل منهم وعرضه وقسمات وجهه في حالات فرحه أو سخطه أو بؤسه، وخصوصية صوته ونبرته ومشيته، وأعرف من أحب ومن رافق ومن تزوج ومتى انهار البيت على رأسه، في وجود أطفال أو في غيابهم. كما آلف ألف تفصيلة لمواقف ذات معنى (كبيرة ومزلزلة)، أو غير ذات معنى أو تبدو كذلك.

أعود إلى الملفَّات فتنسل تلك المعارف كلها من مكامنها في الذاكرة لتسترد جسدها وحضورها ودورها في تشكيل ما أستقبِلُهُ من المكتوب في الملفَّات. وفي كل مرة يطفو السؤال نفسه: هل يُشكِّل الموت حاجزًا أم أنه على النقيض، يُسقط حجابًا؟ على سبيل المثال، أقرأ كلام زميلتي التي انتحرت بإلقاء نفسها في مشهد درامي كبير من شرفة في الطابق الثاني عشر. أقرأه بعد انتحارها فأتساءل: هل أراه بوضوح أكبر أم أقل؟ هل تشكل القراءة عبر الموت وعبر أكثر من ثلاثين عاما جرى فيها ما جرى، سُمكا في نظارة طبية تتيح مزيدًا من الرؤية أم غمامة تحمي العين من حدة الضوء؟ أم تقصر القاعدة فيتعيّن علينا أن نأخذ كل حالة على حدة؟

تبقى الملفَّات على أي حال وأيًّا كانت الإجابة أقرب إلى مرآة أتطلع فيها إلى وجهي الذي هو ليس لي وحدي بل ذلك الوجه الذي يخصنا معا كجمهرة من الأولاد والبنات تشاركوا في حلم وحركة وإيقاع ومخاوف

وارتباك وخيبات، وجه يجرّده البعض ويسميه تاريخا، ويتلمّس البعض الآخر نبض الحياة فيه وبنية شعور شكّلته يصعب استرجاعها مهما بلغت به دقة المحاولة، مرآة أو صورة جماعية التقطت لنا ذات صباح قبل ثلاثين عاما في ساحة مشمسة. أدقق النظر فأصيح هذه أنا، وهذا... يا إلهي كم كان نحيلا، وذاك...كأنه ليس هو، وهذه فلانة، رحمها الله، وتلك يا الله، كم تغيّرت. وذاك... لا يُعقل، كان جميلا وما زال، فلماذا يبدو في الصورة أشعث أغبر كحجرة تلميذ لم تطلها يدُ التنظيف والترتيب منذ شهر؟ وهذه سهام... أطيل التحديق في صورتها فأرانا معًا في سجن القناطر ونحن نلقي قصيدة فرنسية حفظناها، كل في مدرسته في المرحلة الابتدائية:

Le petit cheval dans le mauvais temps, qu'il avait donc du courage!

C'était un petit cheval blanc, tous derrière et lui devant.

Il n'y avait jamais de beau temps dans ce pauvre paysage

Il n'y avait jamais de printemps, ni derrière ni devant.

نتناوب على إلقاء أبيات القصيدة. تحتج زميلة من زميلات الزنزانة: لا نفهم! تشرح سهام: حصان أبيض صغير، أقول: مهر. تقول: مهر أبيض شجاع، هم في الخلف وهو في الأمام. أقول: كلهم في الخلف وهو في المقدمة. نواصل معا ترجمة القصيدة أو شرح أبياتها حين تستعصي علينا الترجمة.

الفصل الحادي عشر

مفارقات

لم يعذبنا أحد في المعتقل. (تعرضنا للضرب نحن البنات، مرةً واحدة يوم قررنا رفض العودة إلى الزنازين بعد «التمام» احتجاجًا على إيداع إحدى زميلاتنا مع السجينات الجنائيات. انهالوا علينا بالعصي، أصيب البعض منا بكدمات أو جراح طفيفة). ولكن زمان عبد اللطيف رشدي كان قد ولي، هكذا بدا لي، وكانت تلك سذاجة من سذاجاتي الكثيرة. (هنا يصبح كلام فوكو عن التغير في تأمين السلطة من التعذيب العنيف إلى السيطرة البانوبتيكية ابن واقعه الأوروبي، ولا ينطبق إلا جزئيًا على واقعنا، حيث السلطة عندنا كربّة منزل كهينة ومدبِّرة لا تتخلص من شيء وإن كان باليًا، فتُبقي قديمها المستهلك مع ما استجلبته من الجديد في الدُرج نفسه غالبًا أو في أفضل الأحوال في دُرجين متلاصقين، تفتح هذا حينا وذاك حينا، حسب الحاجة والطلب).

لم نعذّب، لأننا طلاب تعي السلطة حجم ما نمثله من تهديد، أو لأن الرئيس الجديد كان قد اعتلى سدة الحكم مؤخرًا وهو يحمل كارت الديمقراطية، ديمقراطية لها أسنان كما صرّح ذات مرة أو ديمقراطية هتماء

تقلّعت أسنانها، لا يهم كثيرًا، المهم أنها ديمقراطية تسمح باعتقال آلاف الطلاب أو غير الطلاب بين حين وآخر في ليلة واحدة، وتعاقب المختلفين بعصي عصرية تختلف عن عصي عبد اللطيف رشدي، أو تحمل لهم سلالا ممتلئة بالجزر وتربت عليهم بلطف وهي تراهم يتحولون إلى أرانب أليفة. (وما دمنا عدنا لسيرة أبي الفوارس عبد اللطيف فلا بد من التنويه وإن خرجنا قليلا عن السياق، أنه كان نُقل إلى الصعيد ومارس بعض سلوكه المعتاد فأمر رجاله بجلد متّهم على قدميه على مشهد من الناس، وكان المضروب صاحب مكانة وعزوة فما كان من هذه العزوة وقبل أن يطلع النهار إلا أن قامت بقصف بيت أبي الفوارس. ولم تتمكن الحكومة من الوصول إلى الجناة الذين تجرأوا على قتل فارسها الشخصي الذي أوكلت إليه ركوب حصانها. الواقعة حكتها لي عمتي ثم تأكدت من دقة ما نقلته لي من تفاصيل حين أوردها معتقل سابق من زملاء أبي في كتاب له).

لم يكسرنا عبد اللطيف رشدي. كان غائبا من المشهد. ولا كسرتنا النماذج الأنعم التي حلت محله في السبعينيات. فما الذي كسرنا، وكيف؟

يشغل أروى (بين محاولتين للانتحار، محاولة أولى فاشلة حين ألقت بنفسها في النيل وتم إنقاذها، والمحاولة الثانية عندما ألقت بنفسها من الطابق الثاني عشر)، يشغلها سؤال مشابه تتناوله في سياق ما تسميه محاولة البحث عن «صورتنا الحقيقية»، وعن أسباب «الحلم المُجْهَض». تحكي عن تمرد ذلك المجموع من الأولاد والبنات الذين خرجوا في مهمتهم النبيلة ذات صباح مستجيبين «لنداء التاريخ»، راغبين في «عدل ميزانه»، رافعين لواء «حلم الخلاص الجماعي»، موقنين أنهم جماعة تشارك في المسيرة الكبرى التي «تمشي قدما عبر العصور» «باتجاه الأخوة والمساواة والعدالة والسعادة». فما الذي حدث لينتهي بهم الأمر إلى مجرد جيل

من «المُبْتَسرين»، (وهذا عنوان كتابها) يعيشون العزلة واليأس والعجز والترهُّل أو العدمية والتحرر من كل أخلاق؟ ما الذي حدث بين لحظة الخروج العفيّ لتحقيق حلم نبيل ولحظة الخروج أخيرًا من الحلم إلى الحياة حيث «كان الحطام بالجملة» فأصبحوا «مثل مومياوات أخرجت للشمس فجأة، فتهاوت ترابا»؟

تتحدث أروى عن اللحظة التي مكّنت الطلاب من إعلان تمردهم، ترى فيها لحظة مأسوية، رغم كل شيء، لأن النظام المتسلح بـ «تاريخ طويل من الانفراد بالسلطة وحق الكلام والفعل والتفكير» كان يوشك أن يأخذ المجتمع بأسره إلى مسار مغاير، ويهوي به إلى درك قاتل ومقتول، والمجتمع يتبع صاغرًا بلا حول ولا قوة إذ «لم تكن له أقدام مستقلة تحمي توازنه». أثناء السقوط. تغير الواقع وقوانينه و«دخل الصراع مرحلة جديدة أكثر ضراوة من أن يتصدرها طلاب».

لا أدري مدى إحاطة هذه الإجابة فأنا في الغالب أخشى التعميم الكبير، أعني إطلاق أحكام وإجابات قاطعة حين يتعلق الأمر بتاريخ مرحلة أو مسعى جيل. لا أملك سوى ما رأيته بأم عيني: موجة تعلو ثم تنحسر. ولأننا كنا صغارًا لم نر في الموجة سوى ما يرى الصغار. رحنا نضحك مستثارين باللعبة المدهشة، نقهقه ثم نكتم أنفاسنا ونضرب في العمق غطسًا، يغمرنا الماء لحظة ثم نرفع رؤوسنا ونأخذ نفسًا قويًا وفي زهو، نؤكد أننا الأقدر على الفوز في السباق. ونعود نسبح ونضحك ونتقافز ونغطس ونطفو، نلعب بالماء، تُلَوِّحنا الشمس فنرى أنفسنا وبعضنا البعض أعفى وأحلى.

ينزعج حازم مما أقول، يستفزُّه الكلام، يعلق ساخرًا:

أكملي الصورة يا ست ندى: الصغار على الشاطئ في الليل فرادى

عراة وخائفين، والدوامات التي تسحب إلى قاع البحر والسفن الغارقة!!!
أكره شطحاتك الإنشائية. لا أطفال ولا بحر ولا يحزنون، الواقع أكثر تعقيدا وقسوة، ثم إننا لم نكن أبدا هكذا أبرياء. كان الظرف خارجنا أقوى منا وأكثر دهاءً، صحيح، ولكن الظرف داخلنا، ورغم حسن النوايا وبهاء المجموع، كان مفسودًا بألف شيء: من الدكاكين الصغيرة التي تصورت الشارع مسرح عرائس يمكن تحريكه بالخيوط، إلى الجهل والغباء المستحكم وفساد القراءة، واستبداد الجنرالات الصغار.

ـ لم تكن تحب أروى. حقك. لكن حاول أن تقرأ كتابها بموضوعية!

ـ نفوري من التبسيط المخِّل لا يعني افتقادي للموضوعية. أعترف أنها لم تكن شفيت تماما من متاعبها الصحية، ولكن وضع المُنظِّر الذي تتخذه في الكتاب فيه ما يقلق. في الكتاب لمحات ذكية ولكنه إجمالا كتاب فقير نظريًا، يعيبه الاستسهال: البورجوازية هي السبب والسلوك البورجوازي هو المسئول عن كل تعثر أو تشوه أو فشل، لا أسهل من مشجب نعلِّق عليه كل الأخطاء ونغسل أيادينا ونرتاح!

ـ والله حرام!

ـ ليس حرامًا، لأن قراءة هذا الواقع المركّب المحمّل بتاريخ ممتد وتناقضات بلا حصر يحتاج منا جهدًا أكبر. إنها مسئولية يا ست ندى، وإن لم نكن بحجمها فالأفضل الإقرار بذلك!

ـ كتابها أقرب لتأملات عابرة، أوراق شخصية.

ـ وأحكام، أحكام كثيرة وتعميمات خاطئة واختزال مستفِزّ. وأظن أن الانشطار الذي تشير إليه بين المثال في خاطرها والواقع الذي عاشته ليس إلا انشطارا داخليا بين ما تتوهمه عن نفسها والواقع الذي تنكره رغم أنها

هي نفسها جزء من هذا الواقع. ألم تكن أروى من قادة الحركة؟ ألم تكن على رأس دكان من تلك الدكاكين؟ ألم تقولي لي أنهم في السجن أرادوا كسر سهام لأنها لم تكن ضمن مجموعتهم؟ ألم تكن الغيرة منها ومن شعبيتها المدهشة جزءًا من دوافعهم؟

ـ قلبك أسود يا حازم، لا تنسى الإساءة أبدا.

ـ ربما! ولكنني أكره العدمية، وأكره تيئيس الناس عندما يسقط الإنسان هو شخصيًا في اليأس فيعلن هكذا بخِفّة وبساطة أن كل مسعى يلجأ إليه الناس لخلق معنى لحياتهم ليس سوى أوراق توت. تقرر أروى في كتابها أن الأسرة والأطفال والنضال حلولٌ وهمية. بأي حق...

قاطعته:

ـ كأنك مدرس غبي في يده مسطرة من حديد ينزل بها على كفّيْ بنت صغيرة ولا يرى فزعها ولا اضطرابها ولا الدم النازف منها. في الواقع سلوكك أسوأ لأن من تضربها بهذا الشكل رحلت! من أين جئت بهذه القسوة؟!

غضب وافترقنا.

لم تكن علاقتي بأروى على ما يرام. كيمياء تجذب أو تنفّر أو اختلاف في التكوين وطريقة النظر إلى الأمور؟ أم أنها الجفوة التي نشأت بيننا حين رفضتُ الانضمام إلى مجموعتها ثم صارت ككرة الثلج تكبر بمنطق وبغير منطق. ولكنني الآن لا أتوقف عند التفاصيل، فلماذا يتوقف حازم؟ ليس قاسيا بطبعه. كان أقرب من أروى، أكثر احتكاكًا بها إذ ضمتهما المجموعة نفسها، ثم ترك حازم معلنًا أن الطريقة التي تدار بها الأمور طريقة عقيمة ولن توصل أحدًا إلى بر أمان. لم يقبلوها منه حين قالها،

وعندما قالت أروى بعضا مما قاله بعد خمسة عشر عاما وسمت كتابها «المبتسرون» وجدت من يحتفي بحكمتها ويهلِّل. أما حازم فقد وجهوا له التهمة الدارجة: قالوا بورجوازي باع نفسه لأحلامه الشخصية. ولم ينقطع عنهم رغم ذلك، ظل يساند ساعة يحتاج أحدهم المساندة ويطبب المريض منهم ويسارع للإعداد للجنازة عند كل رحيل. شارك في جنازة أروى رغم أنه أعلن حين نُقل إليه الخبر أنه لن يمشي في جنازتها. قال: بصقت أروى في وجوهنا جميعا. قال: أسامحها على كل شيء إلا انتحارها. لن أسامحها على ذلك أبدا. ولكنه مشي في الجنازة. شارك في حمل النعش. رافق المشيعين إلى القبر. كان حزينًا حزنًا غريبًا لم أره من قبل، لأن الحزن قوة جاذبة تشد لأسفل، تسحب الرأس والكتفين إلى تحت، كأن الجسم في حزنه يُمسي واهنًا خفيفًا فتستقوي الجاذبية عليه وتستشرس. وكان غاضبا غضبًا غريبًا أشبه بقوة طاردة في إعصار. وكأن أروى انشطرت أمامه إلى اثنتين، قتيلة يبكي في وهن فقدها، وقاتلة يضطرم سخطا عليها ويتفزز عنفًا في مواجهتها.

قلت: الأمر أعقد من إساءة شخصية لا يريد نسيانها. اتصلت به في التليفون في اليوم التالي. وتصالحنا.

غريب أن أبقى محتفظة بنفس النظرة إلى شخص ما طوال ثلاثين عاما، أن يمضي الزمن وتمر السنوات وتتبدل المشاهد وتبقى صورته كما قرّت في نفسي في لقاءاتنا الأولى. كأنما بحدس أو بصيرة التقطت مرة وإلى الأبد قدرة هذا الولد الطويل النحيل على الاستمرار واقفًا في مشهد مروِّع تعصف فيه ريح صفراء تنشر الطاعون. (هل كان حقا صباحا مشمسا وبهِيًا التقطت لنا صورة فيه، أم كان الزمان غائمًا ويُنذر؟)

كبر حازم وكبرت، وتشتتنا، نلتقي صدفة في مناسبة ما أو نلتقي بموعد نتدبره عبر اتصال هاتفي من بلد لبلد. لا نلتقي لسنوات، ثم نعود نلتقي،

فيجد كل منا صاحبه تماما كما غادره، نقص وزنه أو زاد، شاب شعره أو اختلط سواده ببياضه، خارجًا من نوبة اكتئاب أو على وشك البدء فيها. يجد كل صاحبه، وحيدًا وصاحبه.

لم أفصح له أبدا عن مكانته في نفسي. اعتدت الحجب والمداراة بادعاء ندّيّة زميلين، أو بالمزاح والمناقرة. نلتقي فنضحك بصوت مجلجل، نتبادل أقنعة المسخرة ونلعب، وللحظة يلتبس الأمر علينا فلا نعرف أيهما الأصل وأيهما القناع. نسخر ونهرِّج فتعلو قهقهاتنا كالمجانين، نتهكّم ونلعب بالدنيا والكلام، أو يكون شاردا معطوب المزاج فأتحمله، أو لا أتحمله فنتشاجر، نشتبك بالصوت العالي ونفترق فجأة، أتركه أو يتركني في منتصف الجملة والطريق، فيرتاح كل منا ويريح.

تمر شهور ثم نعود نلتقي.

في مؤتمر ما قمت فيه بمهمتي في الترجمة الفورية، قال لي شخص ما، لا أذكر منه إلا زرقة العينين وشعر أشقر أملس لمّه فيما يشبه ذيل حصان قصير، قال: «فرد في مواجهة نظام، معادلة تبدو لي مستحيلة!» لا أذكر إن كان استطرد في الكلام وأفاض أم اقتصر على هذه العبارة. ولا أتذكر سياق الكلام. كثيرًا ما تطفو هذه العبارة في رأسي ومعها تطفو لقطة بعينها في فيلم إيطالي قديم بالأسود والأبيض، لفيتوريو دي سيكا على ما أظن. مجموعة من الفقراء المشرّدين الذين يقضون لياليهم حيثما اتفق، نراهم في صباح غائم وشديد البرودة، وقد قاموا لتوهم من مراقدهم العشوائية في أسمال يصعب أن تقيهم البرد. يقبلون على مثلث صغير في العراء يضيئه شعاع من الشمس، ينفذ من بين الغيوم. يتشاركون الوقوف فيه طلبا للدفء، يتلاصقون، ثم يتلاصقون أكثر حتى لا يبق أي منهم خارج مسقط شعاع الشمس.

لماذا بقيت هذه اللقطة من فيلم شاهدته منذ زمن طويل؟ أستعيد المشهد ثم أعود أتساءل عن المفرد والجمع، والطريق ذي الاتجاهين حيث يتحول المفرد إلى جمع أو ينفرط الجمع إلى أفراد.

انفرط وبقيت صداقتي بحازم، حميمة وراسخة. غريب!

التقينا للمرة الأولى في الاعتصام الأول الكبير. كان يجلس في المقعد المجاور. طويل ونحيل وصغير السن، تستغرب أنه طالب جامعي. قلت:

ـ ندى عبد القادر، إعدادي هندسة القاهرة.

قال:

ـ حازم كامل، طب القاهرة.

تصافحنا.

ـ في إعدادي طب؟

ـ في بكالوريوس!

ـ تمزح؟

ـ طبعًا أمزح. أنا طالب في أولى ثانوي، هربت من المدرسة وجئت إلى الاعتصام. أبدو أكبر قليلا من سني، أليس كذلك؟!

ـ في أية مدرسة؟

ـ في السعيدية. فركة كعب. أقفز من سور المدرسة، ثم خطوات وأقفز إلى داخل الجامعة.

عندما التقيته ثانية سألته:

ـ هربت ثانية من المدرسة؟

ـ فصلوني بسبب تكرر مرات الهروب!

ـ وماذا ستفعل الآن؟

ـ سأبحث عن عمل! أي عمل لأني مسئول عن ثلاثة عيال وأمهم!

لسنوات سوف يكون هذان اللقاءان مثارًا لتهكّم حازم، يسخر من سذاجتي ثم ينهي كلامه بلازمة: هبلة يا ندى!

* * *

بعد خروجي من السجن واصلت نشاطي في الجامعة بشكل تلقائي وإن عدت أكثر حرصا على التوفيق بينه ومتطلبات الدراسة. الأدق أنني أصبحت قادرة على التوفيق لأنني حسمت أمري ورفضت الانضمام إلى أي من التنظيمات القائمة والتي كانت تستهلك قدرا كبيرا من جهد أعضائها من الأولاد والبنات («القدرة المقيتة على النقاش بلا نهاية لأناس لا ثمن للوقت عندهم... بديل عن العمل المنتج..»، في هذا كانت أروى دقيقة وعلى حق، رغم أنها هي نفسها كانت من أصحاب هذه القدرة ومن دعائم تلك التنظيمات) ولم يكن الجهد الضائع هو أكثر ما نفّرني بل تراتبية سخيفة عاينتها عن قرب في السجن، تنتج طغاة صغارا وكثيرًا جدًا من صناديق الحديد.

برفضي خرجت من الدائرة الماسونية الأضيق. (علاقتي بشاذلي وانفصالي عنه لا يتجزءان عن هذا السياق)، وبدت الحركة أقل زخما مما كانت في العامين السابقين. كذلك تخرّج عدد من القيادات الأبرز فيها وبدأوا يسافرون إلى الخارج للدراسة، رحلوا إلى لندن أو باريس أو موسكو (أحيانا يبدو الأمر معكوسا: لم تخبُ الحركة لأنهم سافروا بل

سافروا لأن الحركة كانت تنطفئ فلم يعد أمامهم سوى مواصلة مشاريعهم الفردية). انفصلت سهام عن توفيق. وجاء الانفصال مزلزلا، طلقة غدر من حيث لا تتوقع. أصيبت بانهيار عصبي فاختلطت عليها المخاوف وتداخلت. بعدها حكت لي، قالت: «عشت خوفا غريبا لم أعرفه أبدا من قبل. عندما كان يدق الباب كان الخوف يداهمني فاختبئ تحت السرير، كأن مكاني سوف يحميني منهم».

فأكره نفسي لأنني فتحت باب كلام سحبها إلى قول ما قالته. أغلقه بسرعة وأفتح بابا آخر. أذكّرها برأس الحربة، الخطة التي اتفقنا عليها يوم رفضنا الدخول إلى الزنازين بعد «التمام». (نقف في شكل رأس حربة. يهاجمون فنهاجم، وبعدها نركض لننتشر في أرجاء السجن فنشتت الحراس ونهكهم. وقفنا على شكل حربة وكالعادة كانت سهام في المقدمة).

قلت لها وأنا أضحك: لم يتح لك ما أتيح لي، أقصد متابعة المشهد: سجانة عن يمينك وأخرى عن يسارك ومعهم سجان طول في عرض، كلهم عليك، فتشدين شعر السجانة بيد وبالثانية تمسكين بالسجانة الأخرى وقدماك تضربان في السجان. لم يقدروا عليك.

تبتسم:

ـ كنت منشغلة برد ضربهم. لم أفكر إلا في أن عليّ أن أتغلب عليهم.

ـ أما أنا فأخذتني الفُرجة فنسيت أن أضرب ونسيت أن أركض ونسيت أن أخاف، وقفت مأخوذة بما أرى ممسمرة في مكاني أتأمل قدرتك على مواجهة ثلاثة حراس معا وفي الوقت نفسه.

نسترجع تفاصيل الواقعة فنضحك من خطتنا الحربية الفاشلة التي انتهت بالبعض مضروبًا وبالبعض أمام الزنازين (التي رفض أن يدخلها

ساعة الاحتجاج)، يريد الاحتماء بها، وبزميلة واحدة وحيدة نفّذت الجزء الثاني من الخطة الخاصة بالانتشار في أنحاء السجن، فانتشرت وحدها فاجتمعوا عليها وأشبعوها ضربًا!

أستدعي المواقف المضحكة قصدًا فتضحك وأضحك، ولكنني حين أتركها وأذهب إلى البيت وأدخل إلى فراشي، يعود لي كلامها عن خوفها واختبائها تحت السرير فأبكي حتى تتبلل الوسادة فأقوم وأضع عليها منشفة، ثم تبتل المنشفة فأستبدل بها سواها.

لم أحك أبدا حكاية السرير هذه، ولما كدت أُسِر بها لحازم بعدها بسنوات توقف الكلام على لساني ووجدت نفسي أقول له: ألا تعتقد أن علينا أن ننشئ رابطة سياسية للأيتام من أمثالنا؟

رفع حاجبيه استفسارًا. لم أفسر. قلت: مجرد فكرة. وافترقنا.

في مطلع العام الدراسي التالي، صرت أقرأ ما يحلو لي قراءته من كتب دراسية وغير دراسية دون إحساس بالذنب وأنني أفعل على حساب القضية الوطنية. صرت أفصح عن استسخافي واحتقاري لسين أو صاد ما دمت أراه سخيفا أو لا خُلق له، وما دمت غير مقيدة بتنظيم يقودني هو فيه فيتعيَّن على من موقع التراتب التنظيمي توقيره والامتثال لقراراته الفذّة. ولم يسهم رد فعل زملائي الذين التزموا بما لم ألتزم به إلا لمزيد من النفور من جانبي والإصرار أنني أقبل ما أقبل وأرفض ما أرفض، ولا أتبع سوى رأسي حتى لو رأى البعض أن هذه الفردية ملمح من ملامح انتمائي إلى «البورجوازية الصغيرة المتعفِّنة». لم يواجهني أي من زملائي بالعبارة إلا أن شاذلي ألقاها في وجهي ذات نهار فتشاجرنا شجارا حادًا ودامت القطيعة بيننا عدة أسابيع وعندما تصالحنا فاجأني:

ـ ندى، ما رأيك أن نتزوج؟

ـ كيف نتزوج ونفتح بيتا ونحن طلاب، أبي ينفق علي وأهلك ينفقون عليك.

ـ نعمل مع الدراسة.

ضحكت:

ـ كيف؟ نحن أصلا لا نجد ما يكفي من الوقت للدراسة، لا نحضر معظم المحاضرات! ثم إننا لم نتم العشرين! سهام وتوفيق انفصلا، وأروى وخالد أيضا انفصلا. رأيي أن الزواج قرار استراتيجي، يتخذه الإنسان حين يكون ناضجا وواثقا ـ ضحكت ـ إنه كالسلع المعمِّرة مفترض أن يدوم العمر كله. سأتخرج من الجامعة أولا وأعمل عدة سنوات قبل أن أفكر في الزواج!!!!

امتقع لونه ثم اندفع في كلام حاد عالي الصوت واتهامات قاسية: لا تحبينني. لا تعرفين معنى الحب. بورجوازية ولا تفكرين إلا في الزواج بالشكل البورجوازي. أفكارك الثورية ليست إلا قشرة خارجية. ذهبت إلى باريس للاستمتاع والفرجة، وتركتني مرميًا على البُرش. أبوك شارك في حل الحزب!

قاطعني وصادق بنتا أخرى.

ثم جد جديد في حياتي لم أكن قادرة على إغفال مسئوليتي تجاهه ولا التفريط بالبهجة التي يمنحني إياها.

اختلت بي حمدية وكان وجهها شاحبًا مصفرا بشكل لافت. قالت: أريد استشارتك. تطلعت فيها. قالت إنها حامل. لم أعرف ما المتوقع مني قوله ولا عرفت كيف أتعامل مع الفكرة. لم أعلِّق، كأنني لم أسمع، أو سمعت ولم أستوعب ما قيل. قالت:

ـ أخشى نقل الخبر إلى أبيك.

ـ لماذا؟ سيفرح

ـ لن يفرح. اتفق معي قبل الزواج على عدم الإنجاب. لم أقصد الإخلال بما تعهدت به ولكنني فؤجت بأنني حامل.

ـ ها ترغبين في التخلص من الحمل؟

لم تجب. قلت:

ـ أخبريه في وجودي، واتركي لي الأمر.

أدهشني ما قلته ولم أعرف لماذا قلته ولا لماذا قررت بهذه السرعة وهذا الحزم أنني سوف أحميها من أبي.

بعد العشاء. أعدّت حمدية الشاي وحملته إلينا في حجرة الجلوس. ثم جلست بجواري وقالت بصوت خافت وهي تتطلع إلى أبي:

ـ دكتور (هكذا كانت تناديه)، أكد لي الطبيب بالأمس أنني حامل.

مرت برهة صمت أعقبها صوت أبي:

ـ لا مشكلة، بإمكانك إجراء عملية إجهاض.

تدخلت في الكلام:

ـ ولماذا الإجهاض، هل لديها مشكلة صحيّة تحول دون الحمل والولادة؟

لم يقل أي منهما شيئا. ثم نظر أبي إلي:

ـ أوشك أن أتم الخمسين يا ندى!

ـ وهذا يعني؟

كنت أستجمع قوة انعكست على صوتي إذ بدا لي أعلى مما أردت:

ـ يعني لن أعيش طويلا لأربي هذا الطفل!

قلت:

ـ ربنا يعطيك الصحة والعافية وتعيش مائة سنه. مبروك يا حمدية.

كانت حمدية تتطلع إلى أبي، تنتظر قراره أو حكمه، وبدا لي ذلك مستفِزًّا ومهينًا. قلت وأنا أتطلع في أبي.

ـ مبروك يا بو ندى.

رفع صوته:

ـ لا أرى بديلا عن الإجهاض. لدى بنت وهذا يكفي!

صحت:

ـ ولكن من حق حمدية أن يكون لها طفل. وليس من حقك أن تحرمها من ذلك، ولا من حقك أن تحرمني من أخ أو أخت. قد تقبل حمدية قرارك بالإجهاض وقد تغفر لك، ولكني لن أقبل ولن أغفر!

دخلت حجرتي وصفقت الباب.

استغرقت المعركة من أجل الطفل سبعة أيام وانتهت بقبول أبي بالأمر الواقع. ولم تقتصر النتيجة الإيجابية للمعركة على احتفاظنا بالطفل بل بتواطؤ بيني وبين حمدية، كأن دفاعي عن حقها في هذا الطفل أعطاني حقا فيه، لا حق الأخت الذي سأنعم به بعد ذلك فحسب، بل حق المشاركة في الأمومة بتتبع كافة مراحلها التمهيدية من أطوار الحمل إلى الإعداد لاستقبال المولود الذي منحني أبي وحمدية امتياز اختيار اسمه.

الفصل الثاني عشر

السيدة فرتونا تدخل المشهد

يمكن للحياة أن تكون ميلودرامية ـ أن تأخذك على غير توقع إلى سلسلة من الأحداث المثيرة المسرفة في عاطفيتها فتمنح مشروعية لأفلا عربية تربَينا عليها كفيلم فيروز الطفلة وهي تصيح في المحكمة في نهاي الفيلم: «بابا، بابا، هو ده أبويا..». فيحتضنها أبوها بالتبنِّي، الصعلوك الطيب (أنور وجدي) وتنهمر دموع المشاهدين للنهاية السعيدة، أو كأفلام عديد نتابع فيها ما تتعرض له البطلة البريئة (شادية أو فاتن حمامة)، والتي عاد ما تكون صغيرة السن والحجم، تعزز هشاشتها هول ماتلقاه من الأشرار وقسوة المواقف الظالمة التي تتحملها طوال الفيلم، إلى أن يظهر الحق في النهاية، على خلفية أذان الفجر في الغالب. ولأننا جميعا نشأنا بدرجة أو بأخرى، تحت ظلال زيزفون السينما المصرية فنحن لا شك نعرف معنى المیلودراما حتى وإن لم نتمكن من تعريفها كمصطلح (أي نكون في وضع تلك الطفلة في رواية «أيام عصيبة» لديكنز، التي يسألها المفتِّش في قاعة الدرس ما هو تعريف الحصان؟ والصغيرة التي يعمل أهلها في السيرك وتعيش بين الخيول وتتعامل معها يوميا وعن قرب لا تتمكن من إجابة المفتش بالتعريف العلمي الذي يتوقعه: الحصان حيوان من

ذوات الأربع...إلخ). تفاجئنا الحياة إذن بميلودراميتها كما تفاجئنا السيدة فورتونا التي تخيّلها الرومان القدامي امرأة معصوبة العينين تمسك بعجلة هائلة يتعلّق بها البشر ومصائرهم. تدير السيدة المصونة العجلة فجأة وبعشوائية، فيصبح الأعلون في الأسفل، ومن كانوا في الأسفل يستقرون فوق.

قبل ولادة حمدية بأسبوعين، توفي أبي بأزمة قلبية.

رحل قبل أن يتم الخمسين. رحل فجأة دون مرض يمهِّد ولا آلام تثير فكرة ولو عابرة عن احتمال رحيله. الرجال يحملون النعش، والحفرة غائرة في الأرض تنتظر، والنادبات في البلد بدأن عديدهن الذي سيعلو ويشتد ما إن نقترب من مداخل القرية. في قاعة فسيحة مخصصة للنساء ستفترش حمدية الأرض بجوار جدتي التي ستظل تسألها إن كانت قادرة على افتراش الأرض، كان بطنها منتفخا بشهور حملها التسعة، يجعل تربّعها على الأرض أقرب لمعضلة. بعد يومين علقت عمتي همسا في أذني: «بطن حمدية كبير جدًا، لم أرى بطننا بحجمه أبدا. قد تلد توأمًا» ثم: «بطنها هبط ربنا يستر، قد يأتيها المخاض في أية لحظة». ولكن الوليد لم يتسبب في مزيد من الإرباك. انتظر.

بعد ستة أيام عدنا من الصعيد، وفي اليوم السابع لرحيل أبي وضعت حمدية ولدا، وبعد ثلث ساعة خرجت الممرضة من غرفة الولادة وهي تضحك: وكمان ولد! واعتبرت أنها تكرر الخبر احتفاءً أو رغبةً في مكافأة أكبر. لم أنتبه إلا بعد خروج حمدية من غرفة الولادة أن الممرضة كانت تنقل لي الشق الثاني من الخبر: وضعت حمدية ولدين.

كانت النهاية إذن تليق بميلودراما.

لم أنتظر حتى أتزوج وأخلِّف لأعرف أن الوليد في البيت يخلق دائرة مغناطيسية يكون هو مركزها الجاذب. ندور في فلكه على مدار ساعات اليوم، فما بالك بوليدين لا يكبر أحدهما الآخر إلا بثلث ساعة. يطلبان الانتباه، ويطلبان الرعاية، ويطلبان توفير ألف شيء كبير وصغير في الوقت نفسه. فنحمل ونهنن ونهزهز ونرضع ونغيّر ونحمم، ونشتري علب الحليب المجفّف، ونغلي ونعقِّم ونبرّد ونربِّت على الظهر خفيفًا ونغير أقمطة ونغسل وننشر ونجفف، ونحمله بسرعة إلى الطبيب، ونركض إلى الصيدلية، ثم نعود نتصل بالطبيب. ونقول أمسك ونقول أسهل، ونقول أمغص ونقول يسعل. نراقب حرارة الجسم، صعودها وانخفاضها، ظهور طفح على الجلد، التهاب في الحلق. نتابع نظرة تعرُّف بالعينين، حركة باليدين، نتابع سِنّة تنبت، كركرة، كلمة أولى. خطوة، خطوات.

بدا لي ولحمدية أنني أعاونها في رعاية الولدين، وأعتقد الآن وإن بدا الأمر في أوله مجرد مساعدة فرضتها الضرورة، أن هذه المرأة التي أسميتها ذات يوم بالكمبارس كانت بتلقائية تجود ببعض أمومتها، تفسح لي حيِّزا لمشاركتها فيها، وبتلقائية أتلقّى منها عطيّتها بلا طول تفكير، أتلقّاها بارتياح وفرح، وإن لم أنتبه أن كلمة «شكرًا» واجبة.

لم يكن مصدر تعلّقي الشديد بأخوي هو رعايتي ومعايشتي اليومية لهما وهما وليدان وطفلان فحسب، بل إحساسي بالمسئولية عنها، مسئولية كانت تزداد من مرحلة إلى مرحلة. بعد شهر واحد من رحيل والدي، كان علينا أن نتدبر أمر معيشتنا. كان عمل أبي الوظيفي متقطعا، اعتقل عامين من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦ في قضية إخوان (مفاجأة من المفاجآت التي خلّفها لي أبي، لم أكن أعلم بهذا الاعتقال الأول، لا أتذكره ولا أعيه، والأغرب قضية الإخوان تلك. أخطأوا تصنيفه، على ما أظن، أم كان في

ميل وانتقل لسواه؟)، ثم اعتقل لخمس سنوات من ٥٩ إلى ٦٤. كانت فترة خدمته الوظيفية قصيرة نسبيًا ومتقطعة. وكان المعاش قليلا لا يفي بمتطلبات البيت.

قالت حمدية:

ـ سأحاول العودة إلى عملي.

ـ هل كنت تعملين سابقا؟

ـ كنت أعمل. أقنعني أبوك قبل الزواج بترك العمل.

(مفاجأة أخرى من مفاجآت أبو ندى).

ـ لماذا؟

ـ قال المرتب قليل لا يبرر خروجي كل يوم من البيت، قال إن مرتبه يكفي.

لم أعلّق.

ـ وماذا ستفعلين بالولدين؟

ـ آخذهما إلى أختي في الصباح وأعيدهما معي بعد الظهر في طريق عودتي من العمل، أربعة أيام في الأسبوع. ويمكن تركهما معك في اليوم الذي ليس لديك محاضرات فيه، واليوم الذي تبدأ فيه محاضراتك بعد الظهر.

لم توفّق حمدية في العودة إلى عملها. كانت تبحث عن عمل آخر عندما عدت إليها طائرة بخبر استقبلته على غير توقعي، بالبكاء.

ـ وجدت عملاً. مترجمة في وكالة أنباء، المرتب ممتاز. عرضوا علي...

ـ والجامعة؟

ـ سأتدبر الأمر. سأنظم وقتي.

بكت طويلا. لم أفهم ما الذي أبكاها. كنت فرحة بحصولي على عمل. وإلى أن التحق الولدان بالمدرسة الابتدائية كنت العائل الوحيد للأسرة، وحتى بعد خروج حمدية إلى العمل كانت مسئوليتي المادية عن أخوي أمرًا مفروغًا منه. أفكر في توفير احتياجاتهما، أضعها على رأس الأولويات فيما أريد توفيره. تشغلني المدرسة التي يلتحقان بها، والكتاب الذي أريد شراءه لهما، والرياضة التي يحبانها وأرغب في توفير إمكانية ممارستهما لها. أم ثانية صغيرة نشيطة قادرة بسهولة وتلقائية على الإيفاء بما أرادت الالتزام به.

ورغم مهامي الجديدة حصلت على نتيجة أفضل من تلك التي حصلت عليها في السنوات السابقة من دراستي الجامعية. تمهيدي هندسة رسوب كامل شامل. أولى فرنسي (سنة الاعتقال والقطار الروسي برفقة شاذلي: أعني الصعود والهبوط الحاد والمتتالي في علاقتنا) منقولة بمادتين. ثانية فرنسي (سنة وفاة أبي) مقبول. ثم حصلت على تقدير جيد في السنة الثالثة (سنة بدء العمل في وظيفة مترجمة)، واحتفظت بنفس التقدير في العام التالي (عام التخرج والحصول على الليسانس). كنت أتقدم في عملي بسرعة ملحوظة. فكل من اللغتين اللتين أتعامل بهما لغة أم، كما أنه بدا واضحا أن لدى قدرة على إتقان اللغات، كانت لغتي العربية أقوى من زملائي الذين درسوا في مدارس عربية. أما اللغة الإنجليزية التي درستها في المدرسة كلغة أجنبية ثانية فقد أتقنتها بما جعلني مترجمة متمكنة من ثلاث لغات.

بدت الترتيبات الجديدة إذن إيجابية في نتائجها وإن كنت أعترف الآن

أن من سلبياتها (ربما العنصر السلبي الوحيد الذي نتج عنها أنني انقطعت عن تفاعلات الحياة اليومية في الجامعة).

بتهكم علق شاذلي حين تعثرت به صدفة «أين أنت يا ندى؟ اعتقلوك شهرين فخفت وقلتِ حرّمت؟!».

السند الذي يقدمه لي حازم بلا حدود. أتساءلُ مرة أخرى إن كان في المرء كيمياء تقرِّب وتبعد أم كان محض حظ قسم لنا أن نتصادق وتفلت صداقتنا من الزلازل التي تصيب الأصحاب وتخلف لهم المرارة والركام. أحيانا أقول ربما أراد كل منا في الآخر شقيقا، (غريب أن موضوع المرأة والرجل لم يتسرب أبدا إلى العلاقة بيننا)، ربما قرر حازم بتلقائية وبساطة ولأنني أصغره بخمس سنوات أن يُعَيِّنني في وظيفة أخت صغرى فصرت من المحارم. وربما كنت بحاجة إلى شقيق أكبر أسكن إليه. وأعرف وإن لم أقل له ذلك أبدا أنني التقطت منه درسا كان له أثره الحاسم في حياتي: كان حكى لي عن أوضاعه الأسرية، حكى عن مسئولياته بعد وفاة أبيه في رعاية أمه وإخوته، ثلاثة أولاد كلهم أصغر منه. وكنت أرى بعيني، دون أن يتكلم هو عن ذلك، ما احتلته هذه المسئولية في حياته، يضطلع بها كأمر عادي، أولوية تتصدر كل ما عداها وتملي الممكن والمستحيل في تفاصيل حياته. وأحيانا أقول أننا بذكاء فطري التقطنا معا قيمة تجمعنا، أغلى من أن نعرضها لأنواء العلاقات العابرة العنيفة. (كل يوم، كل يوم، كان زملاؤنا يقعون في الحب، أسابيع، شهورا، سنة ولو طال الأمر سنتين يحلقون في العالي ليسقطوا منه فجأة. الأولاد غالبًا كالقطط لا تُدَقّ أعناقهم، أو هكذا يبدو لي، ينزلقون بسرعة وخفة ليصعدوا من جديد، مجرد مغامرة لطيفة لا تعني أكثر من الركض بخفة من شرفة إلى شرفة. البنات، إن لم تدق أعناقهن في الوقعة الأولى، يقمن وقد خلّفت فيهن كدمات وجروحًا ظاهرة أو تظهر لاحقا بعد وقعات تالية).

ربما أتحاشى الحديث تفصيلا عن علاقتي بشاذلي لأنني عندما وقعت لم أصب بكدمات ازْرَقّ لها بعض أجزاء من جسمي، وآلمني عدة أسابيع وطاب. ربما أبالغ لو قلت إن رقبتي انكسرت أو أصبت بما أوجب تجبير أطرافي الأربعة، أبالغ بعض الشيء لا كثيرًا. ثم إن الوقوع من شرفة عالية تحدث مرة واحدة فيكون ما يكون، علاقتي بشاذلي أفسدت عشرينيّاتي. عام طرنا فيه، ثم عامان كنت فيهما كالمطوّقة أتخبط بدون جرذ طيّب يقرض لي الشِباك، أعقبتها أعوام من الارتباك والمرارة والتقوقع خوفا من وقوع جديد.

كان شاذلي يربكني بسلوكه ومطالبه وأحكامه، أحكام قطعية دائما ما تفترض الامتلاك المطلق للصواب والحقيقة.

في البدء، الحب الأعمى. بعدها الارتباك. صغر السن وانعدام الخبرة بالحياة واهتزاز الثقة في النفس تطيل المراحل وتصعِّب الانتقال. ولم يكن الانتقال سوى حب مكلّف يشكك نصفه الأعمى فيما يراه نصفه البصير.

وكانت لشاذلي دوراته الموسمية، تتميز كل دورة منها بلازمة يظل يكررها ويزنّ، وإن تشاركت كلها في تعيين هدف لزنِّه. السفر إلى باريس كان له موسمه، تبعه موضوع الشيوعيين القدامي الذين حلّوا الحزب وباعوا القضية (بدا أبي الممثل الشرعي والوحيد لهم، وبالتالي هدفًا للهجوم، وبما أنني ابنته فلم أكن لأفلت من مسئولية ما جناه أبي)، في موسم ثالث كان اختلافي مع تحليله السياسي يؤكد أنني لم أتخلص من جذوري البورجوازية الصغيرة وما تمليه على من انتهازية سياسية، وفي رابع أصبح حازم موضوع الهجوم: حازم يريد أنْ يكون طبيبا ناجحا، أناني يعطي الأولوية لعمله ودراسته، ثم إنه ينتمي لأهله بشكل مريض!

مواسم ودورات، لكل منها لوحة تصويب، ينتهي الموسم، تُرفع اللوحة ويُستبدل بها أخرى.

شكوته لحازم. أشاح بيده وقال: شاذلي حمار. لا يفكر إلا في نفسه. ولد سخيف ومحدود ولا يبشِّر بأي خير. قد لا يكون قادرا على الحب أصلا!

ولأن الحب أعمى، لم أصدّقه. قلت لنفسي: ربما يقول ما يقول اليوم وغدا يقول أحبك ويعرض مصادقتي.

لم أكن أعرف حازم بعد بما يكفي.

الفصل الثالث عشر

مقال في أهمية الزراعة

كثيرًا ما أتساءل إن كان الحدس، تلك القدرة على الاستشعار عن بعد، الأشبه بقدرة الكلاب على الشم والتقاط بوادر زلزال أو إعصار، فتعوي قبل أن يشعر الناس بالأرض تهتز تحت أقدامهم أو يبصروا العتمة تهبط فجأة ثم تضرب العاصفة، أتساءل إن كان الحدس مجرد التقاط مبكر وتلقائي لأمر يسجّله العقل قبل أن يعي وينتبه أنه سجّله. أتساءل إن كنت بالحدس رأيت قبل أن أعي أن السنوات القادمة سنوات أعتى وأكثر ظلمة من قدرة أي فرد فينا أو مجموعة من الأفراد على مواجهتها.

أحيانا أقول: فيك يا ندى عنجهية وفيك غرور. لستِ بهذا القدر من الذكاء لتستشرفي القادم من السنوات، بل ببساطة، أغوتك أمومة الصغيرين فانهمكتِ على طريقتك ثم واصلت إلى آخر الشوط، حده الأقصى ومداه الأبعد، جنون من جنوناتك، لا أكثر. أقول: ليس هذا صحيحًا، الصحيح أنني بالحدس عرفت أن حرفة البستاني المتواضعة أجدى في سنوات القحط. أيهما أفضل الموت كمدًا أم الانهماك في زراعة شتلة في حوض منزلي أو حبات من الفول على قطنة مبلّلة في طبق قديم يستقر على حافة نافذة المطبخ؟

تقاطعني مرآتي القاسية: هل كنت تفكرين في الأجدى أم في الإفلات والتحصّن؟

تجيبها مرآتي الطيبة: طوبى لمن يبقى على سلامة عقله وروحه في زمن الريح الصفراء وانتشار الطاعون.

مهلا مهلا. نعيد الحساب مرة أخرى، نعيده معا أنا وأنت، فلا أجور ولا تجورين.

تخرجت من الجامعة صيف عام ١٩٧٦، وكان يمكن بعد عام أو عامين أن أكتفي بما قدمته للولدين. أوفر الدعم المالي اللازم وأترك لأمهما القيام بدورها في الإيفاء بحاجاتهما اليومية، أبقى أختا رؤومًا وفتاة في مقتبل العمر تعيش حياتها بما تمليه وتتطلبه هذه الحياة وقناعاتها. اخترتُ الصغيرين، تمترست فيهما.

لماذا؟

لأنني بالحدس عرفت أن السنوات القادمة أعتى مني، وأعتى من مسعانا نحن المجموعات الصغيرة الحالمة والمرتبكة، رغم حسن نواياها.

رفعتِ راية بيضاء إذن؟

لم أرفع لا راية بيضاء ولا سوداء. كنت أراقب فيتحول الحدس إلى يقين.

ألم يكن ذلك أدعى إلى المناطحة؟!

أقول لحازم:

ـ أنت ولدت في مطلع الخمسين، وأنا ولدت قبل شهور من اندلاع ثورة الجزائر.

ـ افتتاحية كخبطات سيمفونية بيتهوفن الخامسة، هائلة وتأخذ على غير توقع.

يضحك:

ـ لا أقصد طبعًا بداية العقدين الشديدين في النصف الثاني من القرن العشرين بل ظهور سيادتي وسيادتك على خشبة المسرح!

ـ وختامها مسك: خروج الأمريكان هاربين من سايجون من سقف السفارة على متن الهليكوبترات.

(لم نكن وصلنا لهروب الجنود الإسرائيليين من لبنان في مايو ٢٠٠٠. تابعت المشهد حيًّا عبر الفضائيات، وألح على غياب حازم وصرت أردد همسا: لو انتظرت قليلا، لماذا لم تنتظر؟ لو رأيت الأيدي وهي تدق أبواب معتقل الخيام ثم تفتح الأبواب وتتعالى التهليلات. لم ينتظر).

ـ عقدان شديدان فعلا، حقبة مدهشة بين قوسين، كأن التاريخ جاءه خاله الطيب فجأة فطيّبه وجعله بقدرة قادر، يحبنا ويسايرنا ويحِنّ علينا ويحمينا.

يقاطعني:

ـ والله ما أنا عارف من فينا ابن كلب، نحن أم التاريخ!

ـ حين يبدو التاريخ في صفِّنا نتحمّل، أو على الأقل يبقى الأمل، وإن كنا عاجزين.

أعود لمراياي، أقول كنت أناطح للحفاظ على توازني واحترامي لنفسي كامرأة منتجة ومسئولة. أراقب المشهد، سُمًّا ابتلعُه مذابا في الشاي كل صباح ومساء، لا ليس في الجريدة وحدها أونشرة الأخبار، بل في الهواء الذي أتنفسه حين أخرج إلى عملي كل يوم. فما العيب في توفير ترياق

على غير المعروف من أنواع الترياق، حلو المذاق ومتعة للقلب والناظرين. قلت حبة فول أو عدس أو حلبة على قطنة مبللة أعتني بها فأهدأ وأنا أتطلع إلى أخضرها يخرج شطأه وينمو قليلا قليلا كل يوم؟ سمّها حكمة، سمّها الكفاءة، سمّها ما شئت، ولتعكس مراياي ما تعكس.

غريب هو الإنسان، يرى ذاته مركز الكون والتاريخ والحكاية. لنفترض أنني بقيت، هل كنت أصلح ما فسد، هل كنت أحول دون ذبول حلم وحركة، هل كنت قادرة بذراعين لا ثالث لهما وساقين اثنتين فقط وعينين في رأس واحدة وقلب لم تمنحني أمي سواه، أن أوقف تلك العجلة الشيطانية لجرّافة هائلة تقترب ثم تعمل فعلها التدميري في حياتنا؟

تقول مرآتي القاسية: كنتم كثيرين، أذرعا وسيقانا وعقولا، ثم تستدرك، ثم هناك شرف المحاولة، والاستشهاد في نهاية المطاف مجد.

تقول مرآتي الطيبة: حاولنا، حظينا بشرف المحاولة. ولكن المواصلة حين تبصر العينان أن لا فائدة غباء وحماقة.

مرآة ثالثة تقول: الشهادة باطلة، كيف لامرئ أن يشهد على زمانه وهو منه وفيه. حلم صعد وانكسر. اتركوا الشهادة للقادمين.

أحمل مراياي. تعذِّبني. أطيل التحديق فيها ثم أضعها في درج من الأدراج وأواصل الإيفاء بمتطلبات الحياة اليومية. لقمة العيش. تعليم الصغيرين. والمتعة والمؤانسة في ملاحظة نموهما يوما بعد يوم.

الفصل الرابع عشر

عمتي

لم تتح لي معرفة حميمة بجدتي، إذ لم تتجاوز لقاءاتنا عدد أصابع اليد الواحدة. أذكرها في بيتنا عندما زارتنا برفقة عمتي في مطلع عام ١٩٥٩ وكنت دون الخامسة من عمري. وأذكرها يوم ذهبنا إلى البلد للعزاء في جدي (يوم واقعة الترجمة). وأذكرها أيضا في بيتنا وقد جاءت بالقفف والأقفاص والأجولة المحمّلة بالأطايب التي أعدّتها لنا احتفالا بعودة أبي. وربما التقيت بها مرة أو مرتين أخريين لكنني أفشل في تحديد متى وأين، في بيتنا في القاهرة أم في بيتها في البلد. لا يمكنني استرجاع ملامحها إلا بالعودة إلى بعض الصور التي التقطت لنا معا. أحدق في الصورة لأتذكر الوجه وتعبيراته، أما صوتها وإيقاع الصوت وأثر الكلام فاستحضره بيسر نسبي. كان صوتها عاليًا، ومخارج الألفاظ لديها واضحة، والكلام محمول على صور وإيقاعات وبلاغة، كلام له حضور لا يفوتني الانتباه لاختلافه وتميّزه وإن تعذر عليّ في طفولتي الإحاطة بقيمته أو تتبع مصادر البلاغة فيه.

رحلت جدتي بعد موت والدي بشهور. اتصلت بعمتي تليفونيا وأفهمتها أنني لن أتمكن من السفر إليها للمشاركة في طقوس العزاء، لأن الولدين

مصابان بالحمى، ولأنني سأقدم امتحانات نهاية العام بعد أيام. سمعتني ولم تُعقِّب. ولكنها بعد سنوات عاتبتني عتابًا شديدًا على سلوكي. قلت لها: «ستّي على راسي من فوق، وأنتم في نن العين، وأنتِ عارفة!» والحق أنني لم أكن أدري إن كان كلامي صادقًا أم يمزج بين الصدق والمجاملة، فقد فاجأني ما قلت.

لا ألتقي بعمتي كثيرًا، ولم نعش سويا إلا لأسابيع معدودة ومتناثرة لا تفسر ذلك القرب الذي يجمعنا والأقرب إلى تواطؤ مفروغ منه لا يحتاج إلى كلام. لعل السبب شدّة تعلقها وتعلّقي بنفس الرجل، وربما إعجاب متبادل وصامت. لا نلتقي لسنوات ثم نلتقي فيجري الكلام سلسًا، كأننا نستكمل حديثًا كنا بدأناه. أتحرك في بيتها بألفة، وأنام نومًا هادئًا وأقوم من النوم تحيطني سكينة أستغربها. تأملت ذلك وتساءلت إن كنت أحاكي بلا انتباه حالة رومانسية تسرّبت إلى وعيي من الروايات والقصائد الفرنسية المكتوبة في مطلع القرن التاسع عشر، حالة الحنين للمنابع والجذور والهرب من المدينة إلى براءة الريف... إلخ. إلخ. ضحكت من الفكرة، قهقهت، لأنني أعرف أن لا شيء محلِّقًا أو رومانسيًّا في عمتي فهي واقعية عملية أرضية، إلى آخر ما يمكن أن تزوّده اللغة من المترادفات الدالة على هذا المعنى. لا مجال للهشاشة في حياة عمتي. أنجبت عشر مرات، وعاش لها خمسة ممن أنجبتهم. تزوجت مبكرا، وعندما أنجبني أبي كانت وهي الأصغر منه بعامين لها ابنة قرأوا فاتحتها. (لم أعد أذكر كم لعمتي من الأحفاد، وأولاد الأحفاد). في بيتها كبار وصغار، وأصحاب بيت وضيوف كأصحاب البيت، وضيوف ضيوف وأصحاب حاجة وطالبو نصح، أو من جاءت لتساعد «الحاجة» أو أرادت أن تصطبح بوجهها وتبادلها كلمتين. وهي كالنحلة لا تكف عن العمل من طلوع الفجر حتى المساء. تعمل

وتأمر وتدبِّر وتوجّه وتنصح وتوبِّخ وتعتب وتلوم وتؤهل وتسهِّل وتسخ (هل أخذتُ عنها السخرية؟).

مبكرا وأنا بعد طالبة في قسم اللغة الفرنسية كنت أضحك وأنا أتصفح الكتب التي تتضمن صورا لنساء الشرق التي رسمها مصورو القرن التاسع عشر الفرنسيين. أطلقوا خيالهم فلم يُسعفهم الخيال إلا بنساء عاريات أو شبه عاريات، وغلالة رقيقة مراوغة تحجب ما لا تحجب من الجسد الفينوسيّ لنساء لهن من الشرق العيون السود وفانتازيا المصور. عمتي خصيبة البدن، طويلة وممتلئة تبدو أكثر امتلاءً بسبب عظم ثدييها وردفيها الضائعين في جلبابها الفضفاض. في الليل، تفترش الأرض وتمدد ساقيها أمامها، فأجلس ملاصقة لها نتبادل الحديث. يشغلها عدم زواجي. تقول إنها لا تصدق أن الشباب عميت نواظرهم فلم يطلبني أحد منهم للزواج. أضحك وأقول إن بعضهم طلب وأنني رفضت. تقول غلط. كبّرت أخويك وكبروا، ماذا تنتظرين؟ ثم تغطّي فمها فجأة بيسراها كأنها تحجب ضحكة أوشكت أن تفلت منها: تتجوزي سالم؟ ولا أدري من هو سالم، أسألها فتقول: سالم ابن بنتي! تعدد محاسنه، وتفيض، فأضحك وأقول: يا عمتي سالم يصغرني بست سنوات. تقول هو طبيب وقد حاله. ولا أجد من تليق به سواك. ما رأيك، أكلمه؟ أكرر: أنا أكبر من سالم بست سنين. وهي تقول: وما المانع؟ جدي الله يرحمه تزوج وهو في الستين بنت بنوت أصغر منه بأربعين سنة، كانت أصغر من أصغر بناته، وخلّف منها ثلاثة أولاد وعاش حتى جاوز التسعين. وظلت امرأته تحلف بحياته طول عمرها. لو سالم عاجبك خذيه! أحتضنها وأسحبها في الكلام بعيدا لأغيّر الموضوع. أسألها عن رأيها في الحياة. وأستبق عبارتها التي عادة ما تُظهر استنكارا لا يحجب تهيؤها لحديث تستملحه: أسئلتك غريبة يا بنت اخويا! تراوغ لحظات ثم تجيب: الحياة واسعة وضيقة. لما نكون فيها نزرع ونقلع ونربّي

ونكبّر ونشيل ونحط ونروح ونرجع ونطلع وننزل ونحب ونكره ونحمل الهم وننتظر الفرج، تكون واسعة. ولأننا فيها، عن يميننا ناس وشمالنا ناس وفوقنا وتحتنا ناس، الكل مهموم أو فرحان والكل فيها... تبقى واسعة. ولو وقفنا بعيد، نقول ضيقة مثل خرم الإبرة، ونقول إيه يعني نعيش عشان نموت، ونبني والبنا نهايته هدد، ونعمّر والريح تاخد، ونكبّر ونفتح كفوفنا نلاقيها فاضية. أنا باقول لما نعيشها نشوفها واسعة حتى لو ضاقت، ولما نفكر فيها من بعيد نشوفها ضيقة وخانقة وبلا معنى ولا لزوم. مثلا لما اشتري كتاكيت وأبص عليها وهي صغيرة وأصفرها جميل وبتعافر، وكل فرخ منها يردّ الروح، أوكلها واشرّبها وأنظف حواليها واصطبح بها كل يوم وأشوفها بتكبر، قلبي يرفرف. طب يا ندى لو فكرت إني اشتريت الكتاكيت عشان لما تكبر تندبح، أذبحها أنا أو غيري، يبقى فرحي بها ورفرفة قلبي عليها جنون. خلفة العيال مش زي الكتاكيت بس زيّها، يعني أحمل تسع شهور وروحي تتعلق بالولد وربنا يختاره. لو الحياة مش وخداني لا أحبل بعدها ولا أولد ولا أربي ولا أكبّر. ولكنها بتاخذني، تسحبني فأمشي معها، تراضيني فأرضى، تكرمني بعيل تاني وثالث، وييجي رابع يروح، ولكن الخامس يبقى. كبيرة وضيقة يا بنت اخويا.

طول عمري جسمي ينهزم قبل عقلي. أدخل أنام لأن رجليّ تعبت وجسمي انهد. وعلى فرشتي عقلي يدور، لا يونّ ولا يهدا. لما ابوك أخذوه على المعتقل كنت أفكر، طول الليل أفكر. وأقوم الصبح مخنوقة لا أطيق الهوا الطاير ونفسي مصدودة عن الدنيا، لا لي نفس أطبخ ولا اغسل ولا اقول صباح الخير. سألته لما طلع: ضربوكم يا حبّة عيني؟ قال: ضربونا يا اختي بس ما سلّمناش، اتعلمنا وبنينا وعمّرنا وعشنا. بعدها سألت نفسي هو كان قريب وجوه وأنا بره وبعيد، واقفة على الشط باقول بيغرق وقلبي مخلوع، وهو في البحر الغريق بيعوم.

ابتسمت فجأة وسألتني:

- تعرفي أني كتبت رسالة لعبد الناصر لما أبوك كان في المعتقل؟

لعمتي أيضا مفاجآتها. قلت:

- هل تحتفظين بنسخة من الرسالة؟

- بعثتها.

- من كتبها لك؟

ضحكت:

- دي حكاية طويلة. أمليتها أربع مرات على أربعة، وفي كل مرة أطالب من كتب الرسالة أن يقرأها على فأجد كلام جرايد ورديوهات، وأنا لا باشتغل في راديو لا جرنال. يكتبون ما لم أقله: مرة القائد الخالد، ومرة زعيم الملايين، والثالثة كلام كبير لا أفهم معناه، أقول يا ولاد دد مش كلامي! ثم ناديت أصغر ولد وكان في الابتدائية، قلت له اتهجي كلامي، واكتبه بالحرف والكلمة، اكتبه بالنحوي لكن من غير ما تزيد عليه ولا تنقّص.

قلت له اكتب يا ولد:

الرئيس أبو خالد، جمال عبد الناصر

ولد بني مرّ، ورئيس مصر وسوريا

أنا أخت الدكتور عبد القادر سليم الذي ذهب إلى الكتّاب أولاً، ثم تعلّم في المدارس، ثم دخل الجامعة، ثم تغرّب في فرنسا عملاً بقول الرسول الكريم: «اطلبوا العلم ولو في الصين». ولما رجع بالعلم المطلوب وبدأ يدرِّس في الجامعة ويشارك في مصلحة البلد، وضعتوه في السجن.

نحن أشراف ولا نقول للكلب يا سيدي ولا نحني رؤوسنا إلا لخالقنا، ولا نطالب إلا بحق، لا نطلبه إلا من الله وأصحاب الشهامة، لأن الكريم لا يطلب إلا من الكريم. وما أطلبه هو إحقاق الحق والتأكد من شرف الضابط الذي أمر بالقبض على أخي، وعدالة القاضي الذي أمر بسجنه، ومن صحة الأوراق التي اعتبرت عمله جريمة يستحق عليها السجن.

وأنا يا أبو خالد أقبل بك حَكَمًا لأنني أقبل بك رئيسًا للبلد، فكيف لا أقبل حُكمك في موضوع أخي؟

قال الرسول: كلكمْ راع وكل راع مسئول عن رعيته. وأنا أساعدك يا أبو خالد لكي لا تتحمل وزر قاضي ظالم أو ضابط متجبِّر. وأساعدك أيضا لأن أخي وكل الشباب المعتقلين معه فيهم الخير للبلد، فكيف تضعهم في الحبس وتعطلَهم عن تقديم علمهم الذي تعبوا فيه وتغرَّبوا من أجله؟ وكيف حين تطيب الثمرة تمنع الخلق من الانتفاع بها؟

وختامًا، أعلمكم أني لا أقرأ ولا أكتب. أمليت هذه الرسالة على ابني الأصغر فحوّل بموافقتي كلامي إلى النحوي دون أن يزيد عليه أو ينقص منه شيئا. وطلبت منه أن يقرأ على ما كتب لأتأكد أنه نقل كلامي بأمانة.

ـ ورد عليك عبد الناصر يا عمتي؟

ـ وصلني جواب من مكتبه، قالوا سنحقق في الموضوع. انتظرت. وبعد طول انتظار قلت إما وصله الجواب وانشغل أو حجبوه عنه فلم يصل.

ضحكتْ:

ـ حبيبك يبلع لك الزلط. عذر ودبّرته عشان اسامحه!

ربما تستمتع عمتي بالحديث معي لأنني بأسئلتي أتيح لها أن تتكلم فيما لا يتيح لها من حولها الكلام فيه. أحيانا تحتج وتقول ضاحكة: هو

أنا في مقابلة في التلفزيون يا بنت أخويا، تفضلي تسأليني رأيك في كذا ورأيك في كيت؟!. لكن الشهادة لله انت ذكية ودمك خفيف مش زي المذيعات، اللي صبغة شعرها أصفر واللي صبغة جفونها بنفسجي واللي فستانها زي عروسة المولد، واللي بتتكلم كأن بيضة مسلوقة محشورة في زورها، واللي تقطع كلام الراجل اللي يكلمها وتقرا المكتوب في الورقة كأنها بعيد عنك ما بتسمعش! فأضحك، أقول إن رأيها مهم، ومهم جدًا لي. أريد أن أعرفك يا عمتي وهي تستغرب كلامي وتقول: هو أنت لسه مش عارفاني؟!

أحيانا يداهمني الشعور أنني لم أعرف أبي بما يكفي، أتساءل فجأة: ما الذي كان يفعله أبي في هذا الموقف وماذا كان يقول في ذلك الشأن. حين يفاجئني هذا الشعور أرتبك، أقول لا أعرفه، لم أعرفه. ثم أعود أتساءل هل يتاح للولد أو البنت معرفة والديهما بما يكفي أم تظل المعرفة مجزوءة أبدا وناقصة؟ ربما كان ذلك هو السبب في زياراتي المتكررة لعمتي، السبب الثاني لا الأول، لأن السبب الأول أنني كنت أشتاق إليها وأهدأ حين ألتقي بها. أزورها وأطيل الحديث معها وأسألها كثيرًا وأنصت لما تقوله. أحيانا أرى سلوكي مضحكًا وسخيفًا وأنا أجلس بجوارها بالبنطلون والقميص والحذاء الرياضي، أسألها عن آرائها كأنني مراسلة أجنبية أو باحثة اجتماعية هبطت على القرية بمظلة. كانت هي التي تبدِّد هذا الشعور برسالة تلقائية وصادقة تحسم بها درجة القرب بيننا. لم تشعر أبدا وهو ما قالته لي ذات ليلة بأي غربة تجاه أخيها: ذهب وعاد، تعلّم وأقام في القاهرة، تزوّج الفرنسية، دخل السجن وخرج منه، والعلاقة بينهما أليفة والتواصل يجري لم تعوقه أية مستجدّات. ربما انسحبت علاقتها بأبي عليّ، وربما كانت للألفة أسباب أخرى تتعلق بالكيمياء التي تقرِّب وتنفِّر بلا منطق ظاهر للعيون، وربما كان مصدرها تلك الشحنة من المحبة الواضحة حتى في

لولي عمتي وقولها يا بنت اخويا. كلما غادرت تودعني بالعبارة نفسها: ما تطوليش عليّ يا ندى، تعني ألا أطيل فترة غيابي عنها. أذهب إلى زيارتها مرة أو مرتين كل عام وأتصل بها تليفونيا كل أسبوع، أسأل عن أحوالها وأنقل لها أخبار الولدين وحمدية وأخباري.

في زيارتي الأولى بعد انتحار أروى، حكيت لها. توقعت أن تبدأ تعليقها بأن الانتحار حرام. تخيلت نص عبارتها: «ربنا وحده ياخد وديعته، ولا يجوز الواحد منا يردّها بخُطره». ولكنها لم تقل ذلك. سألتني مفصّلا عن أروى، إن كانت متزوجة، لها أطفال، إخوة، أهل؟ ثم سكتت. في اليوم التالي عادت للحديث في الموضوع سألت: «وكنتم فين لما انتحرت؟» ثم تعليق أخير: «ما هو يا بنت اخويا لازم تختاروا يا إما طريقتنا: جواز وعيال وأهل وعشيرة، يا إما تدفّوا بعضكم، والصاحب يبقى عزوة صاحبه. ما حدّش يقدر يعيش وحده عريان! الله يرحمها!» ولم تزد، ولم نعد للحديث في الموضوع.

حكيت لعمتي عن أروى (أغفلت بعض التفاصيل)، ولم أحك عن سهام. غريب. يحكى الواحد منا عن أمر موجع لحجب الأمر الأكثر إيلاما.

الفصل الخامس عشر

لقـاء

واقع أم خيال؟ هل كنت أشتاق لها إلى حد أن سمعت صوتها دون أن أسمعه، أم كانت هي نفسها ولم أتعرّف عليها؟ وكيف لا أتعرف عليها؟! أرقني السؤال لعدة أسابيع. أجيب بالنفي القاطع ثم أعود فأقطع النفي بالإيجاب.

لم أكن أراها إذ كنت أقف على بعد خطوات أتفحص الأقمشة بحثًا عما طلبته حمدية لصنع أغطية للألحفة. أدقق النظر في نوع القماش والنقش والألوان وأقارن قبل الشراء. سمعت صوتها فاستدرت بسرعة وهتفت: سهام!

لم تكن سهام. ابتسمتُ ابتسامة لا بد أنها بدت بلهاء لأن السيدة التي وجدتها أمامي لم تبتسم. استدارت ومضت مبتعدة باتجاه باب المحل. لأيام لم أتغلب على يقيني بأن الصوت كان صوتها، وهل يمكن أن أخطئ صوت سهام؟ ولكن المرأة التي رأيتها حين التفتُّ كانت بدينة جدًا وتكبرني بسنين، أشبه بربة بيت تقضي أيامها داخل منزلها، لا تغادره إلا لضرورة، تعد الطعام وترتب البيت في النهار وفي الليل تستكين أمام

التلفزيون، تشاهده وهي تحرك إبرتي التريكو بدَرَبة وآليّة، تشتغل سترة صوفية لواحد أو واحدة من الأولاد أوالأحفاد. قطعًا، ليست سهام.

ثم أعود أستحضر ما لمحت من وجه المرأة، جبهة عريضة زادها نحول الشعر اتساعا، ولغد، وتحت العينين خطوط من تجاعيد داكنة في وجه أبيض ممتلئ ومدور. وجه جدة عابرة خرجت على غير المعتاد لقضاء حاجة سريعة. ولكن الجدات حين يغادرن محابسهن يملن إلى التواصل، حتى مع الغرباء. يبادلن الابتسامة بالابتسام ويفتحن به باب الكلام. كان وجهها صارمًا واستدارت فجاة وأسرعت الخطو، كأنها تهرول باتجاه الباب. هل تكون سهام؟ بياض البشرة وخضرة العينين والشعر الكستنائي الفاتح كانت أيضا لسهام.

عرفت سهام وأنا طالبة مستجدة في كلية الهندسة، أتلمّس بعد طريقي في المكان. في الأيام الأولى، ستبدو الأقسام والقاعات والممرات وأسماء الأساتذة متاهةً أتدبّر فيها طريقي بما لا يخلو من وحشة وارتباك. أراقب عن بعد الطلاب الأقدم وهم يتحلقون هنا أو هناك، يتشاركون الكلام والضحك أو تعليق جريدة حائط أو حسم نقطة خلاف في النقاش. لاحظتها قبل أن تلحظني. بنت كبيرة، فارعة الطول وبها امتلاء، يميزها عينان خضراوان وشعر كستنائي ناعم. أكاد أراها في كل مكان بالكلية، مع طلاب مختلفين، كأنها تعرف الجميع أو يعرفها الجميع. تتحدث وتنصت وتنهمك في إضافة تعليق إلى جريدة حائط أوتعلقها أو تقف بجوارها، أو تدير حوارا حول ما ورد فيها.

وفي يوم لمحتها تتوسط حلقة من الطلاب، تتناقش معهم وعينها على مجلة من مجلات الحائط، تحرسها. أردت الانضمام إليهم ومنعني الحياء

فبقيت واقفة بالقرب منهم أو ربما تحركت قدماي بلا وعي مني فصر أكثر قربا، انتبهتْ فحيتني ثم مدت يدها فمددت يدي. تعارفنا.

ثم كان ذلك المؤتمر في مدرج الساوي بالكلية.

الطلاب يملأون المدرج ويفيضون. على المنصة، وزير جاء ممثلاً للحكومة وبجواره شخصان آخران لم أعد أذكرهما، ربما كانا ممثلين للكلية ولاتحاد الطلاب. تتوالى الأسئلة والتعليقات، تضيّق على الوزير الخناق. يبدو مرتبكا، لأن الموقف جديد عليه أو لأنه هو نفسه لم يكن مقتنعًا تمام الاقتناع بمواقف الحكومة التي انتدبته للدفاع عنها؟ لم أعد أذكر وجه الوزير ولا إجاباته إلا إجابة واحدة بدت محاولة للتملص فلم تزده إلا تورطا. قال: «سأنقل أسئلتكم للسيد الرئيس وسأحمل إليكم ما يتفضّل به من إجابات». وإذا بصوت سهام ينطلق كالرمح فيصيب إصابة مباشرة: «إن كنت تعترف بأنك مجرد بوسطجي تحمل الرسائل إلى رئيس الجمهورية ثم تعود بما يتفضّل به من رد الجواب، فنرجو أن تبلغه أن الطلبة سيبقون حيث هم، لن يغادروا الجامعة حتى يأتي شخصيًا ويرد على أسئلتهم!»

ماج الطلاب، البعض يضحك، البعض يغمز ويتهكم، البعض مستفز وغاضب من كلام الوزير. والبعض صامت يتطلع مسحورًا إلى البنت، وقد أسرته الجرأة والحسم فيما قالته من كلام.

اشتبه علي الأمر.

هذه المرأة التي لمحتها ليست سهام.

يقينًا ليست سهام.

ما إن عدت إلى البيت حتى انهمكت في البحث عن قصيدة «شكوى الحصان الأبيض». لم أكن ما أبحث عنه هو الأصل الفرنسي للنص فقد كنت أحفظه عن ظهر قلب، بل ترجمة للقصيدة أنجزتها قبل عشر سنوات أو أكثر. كتبتها على صفحة من صفحات دفتر ما، ثم حرصًا على ترجمتي نزعت الصفحة واحتفظت بها في مكان ما. أين؟ قضيت اليوم بطوله أفتِّش، في أدرج المكتب، في خزانة ملابسي، في علب كرتونية أودعت فيها كتبًا ودفاتر لا حاجة لي بها. في حقائبي القديمة، لم أعثر عليها.

في الأسابيع التالية امتدت حمى البحث إلى سهام. ذهبت إلى شقتها القديمة في الجيزة وراء السور القبلي لحديقة الحيوان. طرقت الباب، طرقت طويلا. لم تكن في البيت. سألت أحد الجيران، قال: لم تأت منذ زمن. قلت: ربما تكون في بيت والدتها، اتصلت بالتليفون، قيل لي أنها لا تستقبل أحدًا. سألت عن أحوالها فجاء الرد المهذب المعتاد: «الحمد لله بخير». أكثر من مرة ذهبت إلى حيها، ورحت أتسكع في الشارع أمام العمارة التي يسكنها أهلها، أقول لعلنا نلتقي على غير موعد فأعرف أن من لقيتها في محل القماش ليست سهام.

جنون جديد من جنوناتي المفاجئة. تلبّستني روح مخبر في رواية بوليسية أو محقق في جريمة قتل. أسأل الزملاء والأصدقاء، متى وأين كانت آخر مرة شوهدت فيها سهام؟ أجمع الخيوط والأخبار. أضع ما لدي على ما أتحصّل عليه من الآخرين. أعرف أنها بعد تخرجها عملت ربما لشهور في شركة خاصة للهندسة، ثم سافرت لإنجاز الدكتوراه في الاتحاد السوفييتي، في نهاية عام ٧٨، وكتبت لي رسالتين من موسكو في مطلع عام ٧٩، تحدثت فيهما عن وضعها في المدينة، شعورها بالغربة، اشتياقها الشديد لأمها، وطأة البرد القارس، وتحدثت أيضا في جزء أكثر

مرحا من الرسالة عن حضورها فرقة البولشوي وجولاتها في أحد متاحف المدينة وزيارتها لبيت تشيخوف (وصفت لي نظارته الشهيرة التي راودتها نفسها في أخذها من على مكتبه) وبيت تولستوي (قالت: شاهدت المكتب الذي كتب عليه رواية «أنا كارينينا»). حكت لي عن تقدمها السريع في تعلم اللغة الروسية، ودهشة زملائها حين يعرفون أنها تتحدث فضلا عن العربية، الفرنسية والإنجليزية والألمانية. وفي رسالتها الثانية بعدها بشهور، وكانت انتقلت إلى بيت ثان مخصص لطلاب الدراسات العليا بدت أقل غربة، وقالت إن زميلتها في الحجرة من حلب. بعدها انقطعت الرسائل، بسبب تقصير مني أو انشغالها، لا أتذكر.

قال لي زميل ممن كانوا في موسكو أثناء فترة دراستها هناك، إنهم في إبريل ٧٩ قاموا بمظاهرة أمام السفارة المصرية في موسكو احتجاجًا على توقيع الحكومة المصرية على المعاهدة المصرية الإسرائيلية. ضحك، قال تعرفين حجم سهام، رفعناها على الأكتاف فصارت تهتف فنردد من ورائها الهتاف. سألته إن كانت بوادر التعب قد ظهرت عليها في تلك الفترة. قال ربما مرت بأزمة عاطفية، مشروع ارتباط بزميل سوري على ما أظن، لست متأكدا من ذلك على أي حال. ربما خاب أملها في النظام هناك، الرشوة السائدة والفساد وغيرها مما لم تكن تتوقعه. وقد تكون اصطدمت بسخف أو تشوه بعض الطلاب العرب. ولكن زميلنا هذا لم يتذكر متى تركت سهام موسكو، ولا إن كانت أصيبت بنوبات اكتئاب خطرة في تلك الفترة. زميل آخر درس معها نفس التخصص، قال إن تقدمها في دراستها كان مبهرًا، ثم فجأة قررت قطع دراستها والعودة إلى مصر.

قال لي زملاء آخرون إنها بعد عودتها إلى مصر، في مطلع الثمانينيات (صيف ٨١ أو ٨٢؟ لم أجد من يؤكد لي التاريخ) استقرت في القاهرة

نفس الوقت ربما لثلاثة أو أربعة أعوام، قضت منها شهورا تدرِّس في
مدرسة الليسيه بباب اللوق. ثم غادرت القاهرة للإقامة مع أمها التي كانت
تعمل في اليونسكو في باريس. هنا تعددت الشهادات، إجماع على خبر
واختلاف على غيره من الأخبار. قال أحدهم إنها حاولت الانتحار،
وقال آخر: حاولت أكثر من مرة هنا وفي باريس. وأكد أنها كانت تترد
على المستشفى للعلاج من الاكتئاب. ولكن زميلا من الزملاء قال: لم
يكن اكتئابا بل كانت تعاني من الفصام. وأغضب الكلام زميلة درّبتها
سهام وعلّمتها وهي بعد طالبة في شهورها الأولى في الجامعة. قالت:
من منا لم يصب بالاكتئاب، من منا لم يذهب إلى طبيب نفسي يساعده
على تحمل ما نتحمّل. لم تكن مريضة. اختارت حين لم يعد يروقها ما
يجري، الانسحاب، أليس من حقها الانسحاب؟!

واقعة حديقة الحيوان رواها العديد من الزملاء وإن لم يتفقوا على
التفاصيل ولا متى حدثت ومن تحديدا شاهدها بعينيه فكان أول من روى.
ذهبت سهام إلى حديقة الحيوان وحملت معها بالونات ملونة ووقفت
بباب الحديقة بين الباعة المتجولين تبيعها للصغار. (قال البعض كانت
توزّعها ولم تكن تبيعها، وقال البعض الآخر إنها لم تكن بالونات بل ألعابًا
صغيرة من صنع يديها) جاءها الشرطي وكان عليها أن ترشوه (كما يفعل
الباعة عادة) لكي يسمح لها بالتواجد في المكان. ورأى فيها الباعة غريبة
هبطت عليهم لتقاسمهم بلا وجه حق، مصدر رزقهم فتشاجروا معها (يقول
البعض اعتدوا بالضرب عليها). انتشرت الرواية كاشائعات فتناقلها أبناء
وبنات الحركة الطلابية الموزعين بين البلاد.

انهمكتُ عدة أسابيع في التقصي، ثم أخذتني مشاغل أخرى في الحياة،
إلا أنها لم تأخذني من قصيدة «شكوى المهر الأبيض». قررت ترجمتها

مرة أخرى. جلست إلى مكتبي ونقلتها إلى اللغة العربية، مسوّدة أولى لا بأس بها. بعد يومين عدت إلى المسوّدة ونقحتها. وعندما شرعت في نسخ صيغتها الأخيرة وجدت نفسي استبدل بالمهر الأبيض مهرة بيضاء، في العنوان وفي النص:

المهرة البيضاء

قصيدة بقلم بول فور

المهرة البيضاء ما أشجعها في أصعب الأوقات
جميعهم في الخلف وهي في المقدمة.

لم تكن الأجواء حلوة في المشهد الفقير
ولا ربيع خلفها ولا ربيع في المقدمة.

سعيدة بحملها الأطفال والأمطار تغمر الحقول
جميعهم في الخلف وهي في المقدمة.

سعيدة بهم تجر خلف ذيلها الصغير، العربة
جميعهم في الخلف وهي في المقدمة.

لكنها، في أحد الأيام، هكذا هادئةً تموت من صاعقة بيضاء
وكلهم في الخلف وهي في المقدمة.

ولم يكن لها أن تشهد الصفاء في الأجواء
ماتت، ولم تر الربيع خلفها، ولن تراه في المقدمة.

ترجمتها بتصرُّف

ندى عبد القادر

الفصل السادس عشر

تأملات في الزمن

لم تكن من عادتي كتابة اليوميات ولا تدوين المذكرات ولا الخواطر، لكنني مساء ذلك اليوم كتبت: «نادر ونديم ذهبا اليوم إلى الجامعة. الآن الجامعة، وغدا الوظيفة والزوجة. وأنا؟ أكتفي بمواصلة عملي الوظيفي؟ أتفرغ أخيرا لإنجاز مشروعي عن كتابات السجن؟ أتزوج؟ في هذه السن؟».

كنت في حالة غريبة أو لنقل حالة خاصة غير معتادة تمزج بين ارتياح عميق أشبه بالسكينة وإن يصعب وصفها بالسكينة، وقلق غامض لا أحيط تماما بماهيته، كأن سؤالاً غير ما دونته من أسئلة في الخاطرة التي كتبتها، معلقٌ في مكان ما وإن استعصى علي الإمساك به.

في الصباح حين تحمم الولدان وتأنقا استعدادا للنزول استشعرت رغبة مُلِحَّة في مرافقتهما، اقترحت عليهما ذلك فتبادلا النظرات وانفجرا في الضحك في اللحظة نفسها. لا بد أن الموقف كان مضحكًا. كنت أجلس من ناحية وحمدية من ناحية على مائدة الإفطار المربعة في المطبخ. حمدية ترقبهما بتمتمات غير مفهومة وهي تسترق النظر إليهما، وأنا

أتطلع فيهما مباشرة وبلا حرج. غمز نديم لأخيه: «خذ بالك، الكاميرات مركّزة علينا!».

ثمانية عشر عاما، كيف مرت؟ في لمحة على ما يبدو. أنتبه أنني على مشارف الأربعين، أتمها بعد أقل من عامين. لم أنتبه إلى أن الولدين كانا يبتلعان السنوات، سنوات كانا بحاجة إليها ليكبرا وليتنقلا من رضيعين مغمضي العيون ملفوفين في أقمطة بيضاء إلى شابين طويلين قادرين على محاججتي والانتصار عليّ في مباريات الكلام. كانت السنوات تنتقل بيسر من هنا إلى هناك ليكبرا وأكبر، وبمعادلة غريبة لم تكن هذه السنوات التي تذهب إليهما في حساب الفاقد والخسارة. كانت تضيف إليّ ما لا يحصى من لحظات مفرحة أو مربكة أو متوترة أو صعبة ولكنها وفي الحالات جميعا، حياة. لم تكن الشعرات البيضاء التي فاجأتني في المرآة ذات صباح غزوا، بل نتاجا طبيعيا لعمر عشته. كانا يبتلعان السنوات تماما كما يقبلان على وجبة شهية أعددتها لهما، فأقول هنيئًا مريئًا.

لم أوفّق في أي علاقة أقمتها ولا أي مشروع للزواج. بسببهما؟ حب خاطف عاصف كبرق خلّب. ثم مشروع الزواج الوحيد الذي بدا جديا وقابلا للاستمرار انتهى بكارثة حين قلت: نادر ونديم ليسا مجرد أخوين أتعلّق بهما، إنهما ولدي فعلا. كأنك تتزوج امرأة لها طفلان من زيجة سابقة. لم يكن غبيًا، قال إنه يعرف ذلك ولمسه بنفسه، «لكن لن تبقى الأمور على ما هي عليه. سينفصل الوالدان إن آجلا أو عاجلا، ستشغلهما الحياة بعيدًا عنك، وأنت ستكوِّنين أسرة وتنجبين أطفالا وتشغلك حياتك بعيدًا عنهما». لم يزد.

تطيّرتُ من الكلام، رأيت فيه نذير شؤم. قلت لو تزوجته سيصاب أحد الولدين بمكروه قد يودي بحياته. بعد أسبوعين من التفكير المضني

ومحاولة إقناع نفسي بأن مخاوفي ليست سوى وساوس، وأن الرجل لم يقل شيئا يستدعي توجسي، ذهبت إليه وقد حسمت أمري. لم يفهم. اكتفيت بإعلان قراري، لم أشرح. حاول إثنائي، حاول إقناعي، حاول بصبر ولطف وطيب خاطر. ثم في لقاء أخير، قال إنني مجنونة ومعقدة ولا أتحمل أي مسئولية. غادرته وأنا أكرر على نفسي: ليست تهيؤات، بل حدس، حدس صادق.

أمي لا تحب الولدين. تعتقد أنهما أبعداني عنها. ويضايقني عدم ذكرها لهما في رسائلها أو السؤال عنهما في المكالمات التليفونية. أكرر لها أنه في السنوات الخمس الأولى لم يكن دخلنا يسمح بشراء تذكرة سفر إلى باريس، لا شأن للولدين بذلك.

نتواصل عبر الرسائل، ومكالمتين تليفونيتين في العام، أتصل بها يوم عيد ميلادها، وتتصل بي يوم عيد ميلادي. لم أقل لها أبدا أنني عاتبة لأنها لم تأت إلى القاهرة للعزاء في أبي. عتبت ولم أفصح لها عن عتبي. في العام السادس لرحيل أبي تمكنت من شراء تذكرة سفر مخفضة إلى باريس. ولم تسمح ظروف عملي بالتغيب أكثر من أسبوع واحد. كانت أمي نافذة الصبر ومتوترة وقالت إنني أكثر الكلام عن الولدين. كانت تنسى اسميهما أو تخطئ فيهما فأكرر كل اسم عليها ببطء فتعود إلى النسيان أو الخطأ.

بعدها بثلاثة أعوام، وفرت لي الترجمة الفورية فائضًا سمح لي بالسفر مرة أخرى إلى باريس. اصطحبت معي نادر ونديم. قلت ستتعرف عليهما وتحبهما، فتنتبه أن أسرتها أكبر مما تظن.

كتبت لأمي، قلت لها: هذه المرة سأقضي معك شهرًا كاملا. سنذهب معا لزيارة قريتك. تعرّفيني على كل الأماكن التي قضيت فيها طفولتك.

لم تتحمس للاقتراح.

لم أعد للحديث في الموضوع. اكتفيت بالتأكيد عليها أن تكون عطلتها السنوية من العمل في الوقت نفسه الذي نزورها فيه.

بدا لها أنني أسقطت الفكرة.

لم أسقطها.

استغرق الإعداد للرحلة شهورًا إذ لم تقتصر الترتيبات على الحصول على تأشيرات السفر وشراء تذاكر الطائرة، بل شملت أشكالا من البحث والتقصي جعلتني أبدو لنفسي كأنني كرستوفر كولومبس على وشك البدء في رحلة تغيّر الجغرافيا والتاريخ ومصائر ملايين البشر. أضحك من نفسي وأنا أبعث برسائل وفاكسات وأتصل تليفونيًا لأطرح أسئلتي على أصدقاء ومعارف ومكاتب سياحية. كانت قرية أمي في الأوت سفوا على الحدود الفرنسية السويسرية، وكان عليّ قبل الشروع في الرحلة معرفة أيهما أفضل وأوفر وأسهل، الذهاب بالقطار من باريس إلى دوفين ثم الانتقال بسيارة أجرة إلى القرية، أم السفر إلى تونون وهي قرية مجاورة يصلها خط السكة الحديد وتقع على بحيرة ليمان، لننتقل منها عبر مركب إلى القرية، أم نسافر من باريس إلى جنيف ومنها نقطع الحدود الفرنسية مجددا قاصدين القرية. كنت بحاجة إلى خرائط، ومعلومات عن المسافات وخطوط القطارات، ولم يكن زمان الشبكة الإلكترونية هلّ علينا فأجد إجابة على أسئلتي بالبحث في أرجائها أو بعدد من الرسائل الإلكترونية أرسلها لمن أعرفهم أو لا أعرفهم من الناس. أيام وليال قضيتها أسأل واستعلم وأقارن وأفاضل وأجمع وأطرح وأضع ميزانيات ثم استبدل بها ميزانيات أخرى. وأخيرا قررت. وكان القرار يستلزم بدوره استعدادات أخرى: الالتحاق بمدرسة لتعلم قيادة السيارات، ثم الحصول على رخصة قيادة مصرية تمكنني من استخراج رخصة دولية.

استعدادات تليق بعيد ميلاد أمي الستين. سيكون الأمر مفاجأة تسعدها كما يسعدها أن تزور قريتها بعد سنوات من الانقطاع. ترى البيت الذي ولدت فيه والشوارع التي ارتادتها في صباها والبحيرة التي سبحت فيها والشاطئ الذي طارت فيه بدراجتها مع ولد أو بنت من أترابها. تقول: هنا... عند هذه البقعة... في تلك الزاوية... على هذه التلة... كان جدك جالسًا هنا عندما... وكانت جدتك تقف هناك يوم أن... كان خيالي يستبق الزيارة، يركض في اتجاهها محمولاً على جناح الزهو من الفرحة بهدية أهديها لأمي وجناح حنين لما لم أعشه من طفولة أمي وتاريخها الشخصي.

وصلنا باريس.

أول القصيدة كفر.

قالت أمي حين كشفت لها عن مخطط الرحلة: يمكن ترك الولدين في باريس، لن نتغيب سوى خمسة أيام!

للوهلة الأولى أطلت الطفلة التي كنتها برأسها. أوشكتُ أن تصيح فيها أنها امرأة مجنونة وبلا إحساس. نهرتُ الطفلة. واللهم اخزيك يا شيطان، أجبتها بهدوء: الولدان لم يتجاوزا التاسعة من عمرهما، ولا يتقنان الفرنسية. اقتراحك غير عملي.

زادت الطين بلة: تضاعفين المصروفات بلا داعي. كان من الأفضل عدم اصطحابهما معك إلى فرنسا ما دمت تنوين الذهاب إلى إيفوار.

تناسيت كلامها. ورحت أحدثها عن الاستعدادات والخطة ولكنها لم تكن تسمع.

ثم القطار السريع إلى جنيف: أربع ساعات. ليلة في فندق في جنيف.

في الصباح سيارة مستأجرة قدتها عبر الحدود إلى إيفوار. ليلتان في فندق، يوم في آنسيِ. جنيف مرة أخرى. ليلة في الفندق. ثم صباحا قطار العودة إلى باريس.

أفسدت أمي الرحلة. أفسدتها بإصرار واقتدار. أفسدت كل تفصيلة من تفاصيلها، وكل يوم من أيامها كأنها أرادت وقررت وعملت بجد واجتهدت وبذلت قصارى جهدها لإنجاز ما أرادته. وأشهد أنها نجحت نجاحًا باهرًا. وعندما عدنا إلى باريس تشاجرنا شجارًا حادًا أعلنت فيه أن رحلة إيفوار لم تكن بالنسبة لي سوى سياحة. قالت: اخترت قرية سياحية تمتعك وتمتع الولدين الفرجة عليها. كان الكلام جارحًا بما لا يطاق. زادت: لم أعد أحتمل الولدين، وجودهما يشكل لي إزعاجًا!

انتقلت بالولدين إلى فندق، ولم ألتق بها إلا قبل السفر بساعات لأودعها.

في المرة الأخيرة سافرت من القاهرة على عجل إذ كانت أمي في المستشفى. لازمتها أسبوعًا. أقبل جبينها ويديها وأعود أقبلها، أكرر «لا تغضبي مني». تبتسم في وهن وتقول: «هي الحياة» ثم «غريبة هي الحياة». الأيام الثلاثة التالية قضيتها أتردد على قسم العناية المركزة. لا يُسمح لي بالدخول. أقف بالباب رغم دهشة الأطباء وطاقم المستشفى.

رَحَلَت.

قضيت أسبوعا في شقتها، أنام في سريرها، وأتحمم بصابونها، وأتجفف بمناشف كانت تستخدمتها وآكل من معلبات اشترتها. طوال الأيام الأربعة الأولى لم أفعل سوى ذلك. في اليوم الخامس لم أكن ضبطت أي منبه لإيقاظي، ولكنني تنبهت من نومي كأنما دق منبه. قلت

لم يبق سوى يومين. رحت أرتب أشياءها: ثيابها، غياراتها، مناشفها ملاءات سريرها. طويتها وأودعتها علبة كارتونية كبيرة. وضعت الأحذ والحقائب في علبة ثانية أصغر. وضعت الكتب في علبة ثالثة. ثم نقلت تباعا إلى حاوية ضخمة تحمل اسم مؤسسة خيرية في شارع قريب. في طريقي إلى البيت اشتريت ساندويتش وزجاجة عصير وبرتقالة. وضعتها في المطبخ وبدأت بالأوراق والصور: شهادة ميلاد أمي، وشهادتي ميلاد أمها وأبيها. عقد زواجها وطلاقها، بطاقة هويتها، جواز سفرها، بطاقة البنك وبطاقة التأمين الصحي. وضعتها جميعا في مغلف ثم انتقلت إلى الصور: صورها وصورنا وصور لأبي وأبيها وأمها. صور في باريس، صور في إيفوار مسقط رأسها، في آنسي القريبة من إيفوار حيث كانت تذهب في رحلات مع زميلاتها وزملائها في المدرسة، صور في القاهرة والإسكندرية وفي القرية مع جدتي وعمتي. لففت الصور بعناية بمنديل وأودعتها مغلف آخر. ثم انتقلت إلى الرسائل: رسائل من والديها ومن بعض أصدقائها وأوراق بخطها ومفكرة متوسطة الحجم سجلت فيها بعض يومياتها، يوميات متفرقة بدأت في كتابتها ثم توقفت. وضعت الأوراق في حافظة جلدية وأودعتها مع المغلفين في الحقيبة الصغيرة التي أحملها معي في الطائرة، أضفت لهما نظارتيها الطبيتين. في حقيبة ملابسي وضعت ثلاثة أثواب من أثوابها أحببتها دائما وهي ترتديها، وملاءة من ملاءات سريرها ومنديل رأس وشال كانت تستخدمهما في زيارتي السابقة لها. وضعت خمسة من كتبها ثم أضفت ملابسي. أكلت الساندويتش والبرتقالة وشربت العصير. وجلست أمام التلفزيون. رحت في النوم وأنا مضطجعة على الأريكة في كامل ملابسي. ولم أنتبه إلا صباحا.

صنعت لنفسي كوبا من القهوة شربته مع بقايا شرائح من الخبز المحمص وجدتها في المطبخ. ثم بدأت بحجرة نومها. كنست الحجرة،

غسلت زجاج النافذة وسواترها الخشبية، لمعت السرير والدولاب والتسريحة ودعكت المرآة بعد رشها بمُنظِّف للزجاج. أعدت الكرّة في حجرة الجلوس. ثم انتقلت إلى الحمام. صبّنت الجدران وحوض الاستحمام والمغسلة ورفا زجاجيا عليه بقايا زجاجات صابون سائل وكريمات، تخلصت منها، ثم دعكت الأرضية. بعدها المطبخ. الثلاجة والخزانة الخشبية والمائدة المدورة والنافذتان والأرضية والجدران.

عندما انتهيت تطلعت إلى البيت من حولي، تمتمت: سترضيها النتيجة. فكرت في النزول لتناول العشاء ثم عدلت عن الفكرة، بدا النزول والسير إلى مطعم أكثر كُلفة من الجوع. دخلت إلى غرفة نومها واستلقيت في سريرها ونمت.

في الصباح غادرت الشقة. سلمت جارس البناية المفتاح واتجهت إلى محطة قطار الأنفاق الذي سيوصلني إلى المطار.

عاتبتني حمدية لعودتي ببنطلون بني وقميص أصفر. قالت: لا يجوز. اشترت لي ملابس سوداء وأصرّت أن نقيم ليلة عزاء. قالت: تنشرين في الجريدة، وتستقبلين الناس، ويقف معك نادر ونديم لتلقي العزاء في جدتهما. (اندهشت لأنها قررت هكذا بتلقائية وبساطة أن أمي جدتهما). قالت: ونوزع صدقة على روحها، هل كانت أسلمت؟ لم أجب لأنني لم أكن أعرف. أحرج صمتي حمدية ففسرت: أسأل لكي أعرف إن كان مناسبا أن نفتح تسجيلا للقرآن في العزاء. أعتقد إنه مناسب. حتى إن لم تكن أسلمت، نقرأ عليها قرآن وندعو لها بالرحمة.

في تلك السنة أصبت بالنوبة الأولى من نوبات الاكتئاب.

الفصل السابع عشر

الرسالة الناقصة

لم أنتبه لوجود تلك الرسالة إلا بعد عودتي إلى القاهرة. كنت أرتب الأوراق وأضعها في ملفّات لأحفظها فانتبهت لوجودها. غريب. رسالة من أمي موجهة لي، لم ترسلها أبدا، ولم تتمها رغم طولها الاستثنائي. كان التاريخ المدوّن في أعلاها يعني أنها كتبتها بعد حوالي شهرين من تلك الرحلة المأسوية التي حلمتُ أن تسعدها فقلبت بغم عليّ وعليها. ترى لماذا لم ترسلها؟ لماذا لم تتمها؟

كتبت أمي:

عزيزتي ندى:

لا بد أنك تذكرين تلك الليلة الغريبة التي استقال فيها جمال عبد الناصر في خطاب منقول مباشرة على التلفزيون. تذكرين بكاء أبيك، هذا أكيد، ولكنني لا أدري إن كنت تذكرين ما قاله لي أبوك عندما قلت له إنني لا أفهم لماذا يبكي على رجل وضعه في المعتقل خمس سنوات. صاح في أنني عمياء وغادر البيت. قد لا تذكرى العبارة لكنه قالها. بالنسبة لي كانت هذه العبارة فاصلة ونهائية. كانت الخلافات بيننا والشجار المتكرر بالنسبة

لي على الأقل، أمرا قابلا للتفاوض وإعادة النظر، خلافات لا تعني نهاية العالم أو علاقتنا. ولكنه عندما قال أنت عمياء عرفت فورًا أن العلاقة بيننا انتهت، لا لأنني غضبت من مسبة ألقاها في وجهي، بل لأنني أيقنت أنني لا أستطيع أن أرى ما يراه: وأعتقد أن هذه حالة تعني أن الانفصال قد حدث وأن أي إجراء لاحق لن يكون سوى تحصيل حاصل.

غادرت القاهرة بحقائب كثيرة ثقيلة لا أدري حتى الآن كيف استطعت حملها. كنت أغادر وحدي تاركة ورائي ابنتي الوحيدة والرجل الذي أحببته وعلاقة سكن عالمي فيها، تركتها ورائي كبيت دمره زلزال. ثم إنني كنت أحمل حقيبة أخرى أثقل ربما من الحقائب الأخرى. كنت أتساءل: هل أنا عمياء؟ وإن كنت عمياء فهل هذا العمى خلل في بنيتي لا يد لي فيه أم أنني لم أعرف أو لم أدرِّب نفسي على الإبصار أو النظر؟ قد يبدو السؤال سخيفًا أو بلا كثير معنى، لكن السؤال ظل يلاحقني لشهور وربما سنوات. لا أعرف العربية. عشت في مصر سنوات ولم أتمكن من الحديث باللغة العربية فما بالك باتقانها. لم أفهم جدتك ولم أفهم عمتك، لم أفهم الجيران تماما، ولم يكن لي صديقة حميمة بين المصريات، كنت أستلطف العديد منهن ولكنني كنت أعيش ارتباكًا غريبًا لا بد أن أحدثك عنه تفصيلاً ذات يوم. أنا يا ندى فتاة قروية، ومن قرية حدودية بعيدة عن باريس. تعرفين ذلك. وتعرفين أيضا أنني من أسرة من الصيادين، أبي وأجدَادي صيادون، أقصد لم نكن أبدًا لا أغنياء ولا اصحاب شأن وأهمية (ربما جمعني بأبيك إحساس مشترك بالغربة، أعني للوهلة الأولى - ربما لا يكون كلامي دقيقًا فقد استوقفني شكله الوسيم وهو أيضا قال إنه رأى فيّ بنتا جميلة، ولكنني متأكدة أن غربة ما جمعتنا). أحببت أباك فتزوجنا ورافقته إلى مصر. حتى الآن لم أفهم تماما نظرة الناس أو تعاملهم معي. وجدت نفسي فجأة في

وضع غريب. لم أكن مادلين القروية التي عاشت في باريس الهامش تعمل في النسخ على الآلة الكاتبة بل مدام سليم الفرنسية زوجة الأستاذ الجامعي، وإن كان مسجونًا. مدرسة اللغة الفرنسية في مدرسة معظم طالباتها من بنات الطبقة العليا. سلطة تلبستني فجأة، كأنها معطف ألقي به على جسدي. رأيت فرنسيات أخريات في مصر سعيدات بالمعطف، مزهوات كأنه معطف من الفراء الثمين. المعطف بالنسبة لي كان أقرب لمعطف من الشوك أو لنقل رداء غريبًا يثير توتري إذ أنني لا أتعرف على نفسي فيه. لم يبق لي سوى علاقتي بأبيك. وحين قال إنني عمياء لم يعد هناك أي شيء يقتضي استمراري. رحلت لأكتشف بعدها أنه لم يعد لدي عالم، لا هنا ولا هناك. اكتشفت أنني لم أتخلص حتى بعد سنوات من انفصالي، من الرجل الذي أحببته، أغضبني زواجه بامرأة أخرى، وأغضبني أكثر إنجابه منها. كان هناك يحب ويتزوج وينجب ويظل رغم ذلك واقفا يحول بيني وبين الآخرين. لم أوفق في إقامة أية علاقة سوية برجل آخر. أفسد حياتي وهذه هي المفارقة، أفسدها بعد أن انفصلنا لا قبل ذلك. هذا حديث طويل على أي حال لا أريد الخوض فيه. أخذني التداعي فكتبت ما لا أريد وتورطت في الحديث عن أشياء لم ولا أريد تناولها بالحديث.

أردت أن تسعديني وكلّفت نفسك ما لا طاقة لك به لنذهب إلى إيفوار. كان علي أن أقول لك صراحةً إنني لا أريد الذهاب. نعم كنت خائفة من تلك الرحلة. ولكنني أيضا كنت راغبة فيها، وإلا فكيف تفسرين أنني استجبت لإغراء دعوتك ولغواية أن أعود إلى إيفوار حتى وأنا متوجسة من اللقاء؟

كانت زيارتي السابقة للقرية مؤلمة بما يفوق الخيال. ولم أكن شفيت بعد من ذلك الألم ولا تصالحت مع حقيقة أن قريتي، الحيّز الأليف

المرتبط بألف تفصيلة تخص طفولتي وصباي قد تحولت إلى ما يشبه محطة قطارات أو سوق تدب فيه أقدام العابرين أو مدينة ملاهي يملك دخولها كل من يمتلك ثمن التذكرة. كانت الباصات السياحية الكبيرة هي أول ما رأيته عند مشارف القرية. تمهيد مناسب لما سوف أراه في القرية بعدها بلحظات. تبدّلت القرية، تبدّلت تمامًا. بقيت الشوارع الضيقة المبلّطة على ما هي عليه، بقيت البيوت المتلاصقة وبقيت القلعة القديمة والكنيسة والبحيرة لتؤكد أنها إيفوار لا قرية أخرى، ولكنها أضحت قرية أخرى يسكنها سياح كثر يملأون طرقاتها بلغاتهم وأصواتهم العالية وومضات آلات التصوير المعلّقة على أكتافهم، قبل أن ينتقلوا إلى القرية التالية في برنامجهم الترفيهي. محلات في كل ركن وزاوية. مطاعم ومقاهي أنيقة للأثرياء. وليكتمل المشهد، أضعت الطريق إلى بيتنا. كيف؟ مررت أمام البيت مرتين دون أن أتعرّف عليه، وللحظة فقدت الاتجاه والتبست الأمور عليّ. ثم عدت إلى موقع البيت، قلت هنا بيتنا، ولكن أين؟ كان أمامي محل من المحلات السياحية التي تبيع التذكارات. ثم لمحت أمي. ممتلئة مبتسمة نشيطة تبيع للسياح. دخلت وعانقتها ولم يتح لنا إلا تبادل كلمات معدودة، كان السياح ينتظرون، من يحمل بطاقات بريدية ملونة، ومن يمسك بدمية خشبية يريد الشراء، ومن يستفسر عن ثمن هذا التذكار أو ذاك. تركتها لمواصلة البيع ودخلت البيت لرؤية أبي. كان يجلس على مقعد بين الصحو والمنام في غرفة بدت لي خانقة ومعتمة. أين ذهب البيت؟ أكله الذئب. واجهة البيت وغرفتان من غرفه والحديقة الصغيرة، ملاذ أبي بعد تقاعده من الصيد، اقتطعها المحل ومدخله المزين بالورود. لم يترك الذئب إلا حجرة واحدة كئيبة في نهايتها مطبخ صغير ودورة المياه. كيف يقضي أبي اليوم يا أمي. أشاحت بيدها: يشكو كثيرًا وأنا مشغولة بالمحل.

توقعت الألم مجددا ولكنني لم أستطيع مقاومة الذهاب. قبلت دعوتك فذهبنا. لم يكن في نيتي أن أنشر ألمي أو أشركك فيه. قلت لن تلحظ ندى شيئًا. قدرت أن زيارتي السابقة كانت بمثابة تطعيم يقيني ولو بشكل نسبي، ويتيح لي التحكم في ردود أفعالي. لماذا أفلت مني الزمام؟ الرسالة كلها يا ندى، آمل أن تكوني التقطت ذلك، محاولة لشرح لماذا أفلت مني الزمام لا، لم يكن السبب أن أبي ومن بعده أمي كانا قد رحلا، بل لأنني في هذه المرة كنت عدت إلى قريتي ومعي سياح. لا ألومك، أقسم أنني لا ألومك. قرية جميلة على ضفاف ليمان، جئتها في زيارة عابرة. قرأت في النشرة السياحية عن حديقة مبهرة اسمها حديقة الحواس الخمس، ما الخطأ في أن تذهبي إليها وتعودي مستثارة بما رأيتيه من الزهور وتنسيق الزهور وجمال الزهور وعبقرية الفكرة. نظريًا لا خطأ هنا، ولكنك ذبحتني يومها فجن جنوني. الآن أعرف، أفهم عبارة أبيك لأنني وجدت نفسي أرددها يوم عدت من حديقة الحواس الخمس. قلت ابنتي عمياء. وبعد شهرين من الواقعة أقول الجاهل بالمكان أعمى، لا أكثر ولا أقل. ولا أقصد بالمكان خريطة الشارع ولا أين يبدأ وأين ينتهي بل المكان الذي يخصنا وتسكن فيه حكايتنا، وذاكرة حواسنا الخمس فيه. أعترف أن وجود الولدين كان يزيد الأمر صعوبة. لم أكن قادرة على تحمل صخبهما ومطالبهما ولا كنت قادرة أصلاً على تقبّل أنهما طفلا المرأة الأخرى الذي عاشرها زوجي.

باختصار يا ندى كانت الزيارة مأسوية لأنني يومها أيقنت أن غربتي كاملة في إيفوار وباريس والقاهرة. وأنني كنت بلا وعي وبشكل هو الجنون المحض حسمت أمري وقررت الذهاب معك إلى إيفوار متشددة بوجودك كأن وجودك معي سيبدد شيئا من الغربة أو يعينني عليها. رأيت ابنتي سائحة في مسقط رأسي. فقدت عقلي.

سأترك الرسالة وأكملها غدا أو بعد غد.

لم تكمل أمي الرسالة لا في اليوم التالي ولا فيما تلا ذلك من الأيام تركتها رسالة ناقصة لن يتاح لي قراءتها إلا بعد رحيلها.

طويت الرسالة. وغادرت البيت.

الفصل الثامن عشر

التــوأم

في طفولتهما المبكرة كانت حمدية تميل إلى شراء ملابس متطابقة للولدين فنبهتها إلى أنه ألطف أن نشتري لكلٍ ثيابا مختلفة، فتعوّدا على ذلك، وعندما كبرا صار كل منهما يختار ماً يمليه ذوقه ومزاجه. كانا متشابهين في الشكل، وإن لم يكونا متطابقين. شقيقان يتشاركان في ذات العناصر والوراثية وفي ما يتعرضان له يوميا من المؤثرات: الحضانة نفسها، والمدرسة، والصف الدراسي، والمدرسون، والزملاء والأصدقاء ونظام حياتهما اليومية. ولأن البشر كالمرايا يعكس الواحد منهم الكثير من وجه صاحبه، بدا نادر ونديم أكثر تشابها مما هما فعلاً. كان نادر أقل طولا من أخيه، بشرته أكثر سمرة وعيناه أكثر سوادًا، وفي شعره تماسك خشن مفتقد في شعر أخيه. كان يسهل الانتباه إلى كونهما توأم حتى التحاقهما بالمدرسة الثانوية. بعدها، اختلفا إذ اختار نادر الاحتفاظ بشاربين ولحية مشذبة تغطي كامل ذقنه وتجعله أشبه بكاتب فرنسي شاب من نهاية القرن التاسع عشر، أما أخوه فظل شاربه زغبا حتى التحق بالجامعة. بعدها، عندما تكاثف الشعر كان يحلقه يوميا. وكان صوتهما متشابها جدًا، النبرة متطابقة فلا نميز لا أنا ولا حمدية بينهما في بداية اتصال تليفوني، أو حين

يصيح أحدهما وهو في الحمام طالبا منشفة، ثم نميز لأن إيقاع كل في الحديث كان مختلفًا.

أقول للبذور قانونها الغامض، ومنطقها الخاص في الوراثة والاختيار أيضا. أخذ عني الولدان السخرية وقدرًا من الشك، أُصِرُّ بعناد أنه من صفات الأذكياء. ولكن نادر، الأكبر بعشرين دقيقة، كان أحدّ سخرية من المصدر الذي دربّه عليها. دربّه زمانه ربما على النظر إلى الدنيا بعين ناقصة، لا ترحم. ولكن زمانه هو زمان أخيه، فلماذا إذن؟ فاجأني نادر بمشاريعه:

ـ سأدرس هندسة الكمبيوتر. سوق العمل فيه رائجة. يمكن إن أفلحت أن أعمل في مايكروسفت. وأنتقل إلى الخارج.

توجست ولم أعلّق. التفتُّ إلى نديم، قال:

ـ سأدرس العمارة.

حصل الولدان على الشهادة الثانوية. وكنت وعدتهما باصطحابهما إلى باريس إن نجحا بتفوق. لم أقل أنني أنوي الذهاب أيا كانت النتيجة تفوّق أو لا تفوّق. كانت بي رغبة تلِّح في زيارة قبر أمي، ولم أكن أريد أن أذهب وحدي.

غريبة هي الحياة، عجيبة، تغلب لقوة فيها أم لأنانية فينا؟ ما إن وصلنا إلى باريس حتى ذهبنا معا لزيارة المقبرة. ندمت على اصطحاب نادر ونديم معي. قاومت ولم تُجد مقاومتي نفعًا، رحت أبكي. بكيت حتى بدأ نديم يدير وجهه بعيدًا ليخفي دموعه عني وعن نادر.

اشتغل نادر مهرجًا طوال طريق عودتنا، يحكى عن مواقف هزلية، حكاية فلان الذي قال، وفلانة التي فعلت، ويوم كذا... ولما... وعندما...

لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يقفز من حكاية إلى حكاية حتى تمكّن مما أراد، لأننا عندما توقفنا لتناول العشاء قبل الرجوع إلى البيت، كنا نثرثر بشكل عادي.

قبل السفر عدت لزيارة أمي. لم أبك. انهمكت معها في حديث طويل ربما لو شاهدني عابر سبيل لقرّ في نفسه أنني امرأة فقدت عقلها. حدثتها طويلا عنها وعني وعن أبي. وعن حمدية وعن الولدين. قلت لم تقبلي بهما ولكنهما حفيداك، يألفان اسمك وصورتك وما قلته من كلام، ويعرفان السيدة البدينة التي كنت تتحدثين معها في القطار، والمشاجرة التي دارت بينك وبين عمتي وانتهت بالقطيعة بينكما. يعرفان ماذا تقولين حين يستبدّ بك الغضب، وماذا تفعلين حين تسلمين نفسك للعذوبة فيغلب طبعك على أسباب التوتر. جاءا لزيارتك كما يذهبان كل عام لزيارة قبر أبيهما في الصعيد، وقد يأتيان يوما حين أذهب فيبددا وحشتك بالحديث معك عني وعن أبي فيجمعا بين قبورنا الثلاثة، رغم الشتات.

قلت لها: غفرت لك رحيلك إلى باريس. لم أع مدى غضبي واضطرابي لهذا الرحيل. وعندما وعيت كنت تجاوزت الغضب، فغفرت.

لم أشر إلى رسالتها الناقصة. قلت سأفتح مساحة من الألم هي في غنى عنها. قلت سأسلّيها بالكلام.

حكيت لها عن كل ما جدّ منذ رحيلها.

قلت سأضحكها:

حكيت لها عن قصة الحب الغريبة التي اشتعلت ثلاثة أيام:

نزلت عليه بالبراشوت. هكذا دون سابق معرفة وجد امرأة تصغره بما لا يقل عن عشرين عامًا تقف أمامه وتدعوه على العشاء. غالب الدهشة

والحرج بابتسامة سلبت القليل المتبقي في من العقل. حين قال إذن نلتقي في الساعة كذا شببت على أطراف أصابعي وطبعت قبلة خاطفة على خده الأيمن. تركته ممسمرًا في مكانه وطرت إلى السوق. اشتريت ثوبا حريريا لونه نبيذي. طرت إلى محل للأحذية واشتريت. زوج أسود لامع له كعب مدبب يمكن أن تريه في قدميّ كلوديا كاردينالي وهي ترافق مارشيللو ماستروياني إلى العشاء. طرت إلى محل لتصفيف الشعر واستبدلت ذيل الحصان بشعر مموج كثيف يصل إلى الكتفين. لا تتعرفين علي؟! ولا أنا تعرفت على نفسي لأنني حين خلعت البنطلون والبلوفر والحذاء المطاطي وارتديت الثوب الذي يكشف عن نحري وذراعي ويترك للشعر المتموج أن يغطي أعلى الكتفين، تطلعت في المرآة فشهقت ثم انفجرت ضاحكة وأنا أصيح بالصوت العالي: هل يفعل الصوت كل هذا؟

لم أقل لك إن الغواية كلها كانت في الصوت. كنت أجلس كما جلست ألف مرة في كابينة الترجمة المخصصة لي. كان عليّ أن أترجم مداخلة هذا الشخص الذي لا أعرف عنه شيئا سوى الاسم المدوَّن أمام عنوان مداخلته.

سمعت صوته فجفلت. للوهلة الأولى بدا لي أنه صوت أبي، ثم ميّزت بن الصوتين، كان صوته رخيما أكثر، أجمل أو أقوى أو أعمق، أو ربما زاد الصوت جمالا طريقته في قول الكلام، إيقاع الكلام أو الكلام نفسه. كان عليّ أن ألاحقه بالترجمة الفورية. مأزق كبير لم يحدث لي أبدا من قبل. كانت دقات قلبي تتسارع والعرق يبلل باطن كفي، أبذل جهدا خارقا لمواصلة الترجمة كأن شيئا لا يحدث.

بالعربي يا ماما لما نقول: كأن على رؤوسهم الطير نعني حالة صامته مشدوهة مأخوذة. وأنا في وجوده كان على رأسي طير غريب يجعلني في حضوره صامتة، أنصت وأتأمل وجهه وهيأته، ولكنني ما إن أغادره

حتى ينزل هذا الطير الغريب من على رأسي ويسكنني فأطير، أطير مثله وأنا آكل وأنا أتحرك وأنا جالسة في كابينة الترجمة أقوم بالعمل الذي جئت من أجله.

ثلاثة أيام وذهب كل في طريق. لو لم يكن اللقاء عابرًا لحدث انفجار. ضحكت، ربما انفجرت أنابيب الغاز في العمارة واحترق الشارع كله وربما الحى! قلت وأنا أواصل الضحك: أغلقت الأنابيب وفتحت النوافذ واحتياطًا طلبت سيارات المطافئ، واحتفظت برقم الإسعاف بجوار التليفون!

حكيت عن رفضي الزواج. التبس عليها الأمر فأوضحت أنني أتحدث الآن عن شخص آخر. شرحت أسباب رفضي. قلت: يبدو أنك لم تقتنعي، فعدت أسهب في الشرح.

قلت: ما زلت أجمع مادة كتابي عن السجن. سأكتبه يوما.

قلت: أفتقدك واشتاق لك اشتياقًا غريبًا لأنني وأنا أذهب وأجيء في القاهرة أظن أنني بعد خمس سنوات من غيابك تعودت، ثم ها أنا الآن بالقرب منك أعي حاجتي لأن أمسك يدك، أمسكها وأشد بقوة طفلة خائفة من أن تضيع، تضيع تماما، لو أفلتت يدها من يدك.

قلت: هل تغفرين لي؟

قلت: أقبل يديك. وأحتضنك.

قلت: تصبحين على خير.

في قطار العودة وأنا لا أكف عن التمخط، استغربت أنني قلت لها تصبحين على خير رغم أنني لم أكن انتبهت إلى أن الشمس غربت وانتشر الظلام.

أقول غريبة هي الحياة لأن تلك الزيارة التي بدأتها وختمتها بزيارة قبر أمي كانت زيارة ضحكت فيها مع الولدين كما لم أضحك في حياتي.

بدت إقامتنا في غرفة الفندق أقرب لمسرحية كوميدية، فقد نزلنا اقتصادًا للنفقات، في غرفة واحدة في فندق في شارع المدارس. وكانت غرفة الفندق لا بأس بها من ناحية اتساعها ولكن دورة المياه الملحقة بها كانت ضيقة بشكل هزلي. فالمرحاض يقابل الباب مباشرة ولا يفصله عنه سوى شبرين أو ثلاثة فيتوجب على الشخص ما إن ينتهي من قضاء حاجته، أن يقف بحرص، ينحني قليلا حتى لا يرتطم رأسه بالسقف، وينكمش جهة اليسار أولا ليفتح الباب ثم يسلك طريقه بحذر حتى لا يصطدم بالحوض عن يمينه أو حوض الاستحمام عن يساره أو بالمرحاض خلفه أو بحافة الباب نصف المفتوح أمامه. أما الاستحمام فكان يتطلب استراتيجيات وتاكتيكات أشد حنكة. كان حوض الاستحمام مربعا يتيح لشخص واحد أن يقف تحت رشاش الماء، محاطا بجدار الحمام من ناحيتين وساتر زجاجي من ناحيتين، أحدهما باب يفتح نصف فتحة (بسب وجود المرحاض) يسمح لشخص إن لم يكن بدينا، وإن تواضع لله وأبقى رأسه منخفضا، وإن رفع قدمه ثم أنزلها بحرص وهو يدخل إلى هذا المربع، أن يتم حمامه دون حوادث مؤسفة. ولا يسرى هذا الضمان على المرحلة التالية، مرحلة الخروج من حوض الاستحمام إذ قد يسقط جزء من المنشفة على جبين المغادر فيغطي عينيه، أو يتسبب بلل في عينيه إلى ارتباك في حدة إبصاره فيقع المحظور فيرتطم الشخص إن كان محظوظا بالمرحاض فقط، وإن لم يحالفه الحظ يصطدم بالمرحاض فيختل توازنه فيصطدم بالباب الزجاجي لحوض الحمام الذي يرده طائرا باتجاه المغسلة.

ورغم الحذر والتدريب كان اصطدام الرأس أو هذا الجزء أو ذاك من أجسامنا ضريبة يومية لا غنى عنها، وإن كانت ضريبة ارتبط دفعها بهرج ومرج وضحك وهزل. «حصل؟» يسأل واحدنا لآخر حين يسمع تأوهه المفاجئ. فيأتي صوت أجش في البداية «حصل!» فيضحك ثلاثتنا ونضحك أكثر ونحن نحصر حصيلة كل منا من الخبطات. أعلنت:

ـ أنا أكثركم حذرا، لم يرتطم رأسي إلا ثلاث مرات، في اليوم الأول مرتين ومرة ثالثة كنت منهمكة في الغناء فلم أنتبه.

صاح نديم:

ـ تفسير خاطئ، أنت أقصرنا، وأصغرنا جسما، احتمال الارتطام أقل!

تدخل نادر:

ـ كلما دخلت الحمام شعرت أنني في صندوق وأن على توفيق أوضاعي! بالأمس حين تركتكم في قاعة الإفطار وأردت قضاء حاجتي، فتحت الباب ووقفت خمس دقائق أتأمل مساحة المكان وأفكر في جرم جسمي في محاولة لتصور الوضع الأمثل للجلوس والقيام والدخول والخروج. أقول حركة الأكتاف بهذا الشكل غير منصوح بها، الخطوة يجب ألا تزيد عن كذا، حين تفتح الباب مل بجذعك بمقدار كذا!. قلت لنفسي ستصبح مهندسا يا ولد، هل يعييك الحساب؟!:

ـ وأعياك!

ـ طبعًا لا، حسبتها ولم أصطدم ولا مرة منذ صباح الأمس! ويمكنكم الآن انتظار النتائج! دخل نادر الحمام، ثم سمعنا صيحته رغم أنه أسرع

بشد السيفون في نفس اللحظة لكي تضيع «الآه» في صوت انسكاب المياه في المرحاض.

وضحكنا أكثر حين طرح علينا نادر السؤال:

ـ لو ماما معنا، كيف كانت تتدبر أمرها؟

انهمكنا في تخيل الوضع، وفي رسم استراتيجيات تسمح لحمدية بطولها وجسمها البدين من الدخول إلى الحمام والخروج منه.

ـ تترك باب الحمام مفتوحا.

ـ مستحيل، لن تمر منه!

ـ يمكنها بقدر من الجهد أن تمر.

ـ والحمام؟

ـ لا بد أن تلغيه من الجدول، تكتفي بغسل وجهها بصنبور المغسلة.

ـ كيف تتوضأ؟ لا حيز لرفع ساقها.

ـ تتيمم. ديننا يسر لا عسر!

دار الكلام بجدية دون شبهة ابتسام، كأننا كنا نجمع الضحك حتى نطلق من ثلاثتنا فجأة قهقهة مجنونة جعلتنا نتقافز ويضرب كل كفا بكف، كفه أو كف الآخر.

ضحكنا في الغرفة الضيقة، وضحكنا في قاعة إفطارها ذات الواجهة الزجاجية المطلة على شارع المدارس، وضحكنا من عيّنات الإفطار «الكونتينتال» التي ما إن ننتهي منه حتى يبدأ نادر في السؤال: متى نفطر؟ وضحكنا في المطعم المقابل للفندق، نقطع الشارع لتناول عشاءنا فيه.

وضحكنا في مترو الأنفاق وفي المتاحف والشوارع، وضحكنا وأنا أحكي لهما عن غضبي من أمي لأنها قالت لجيرار ما قالته. ضحكت وأنا أقول وما الذي كنت أطمع فيه: أن يمسك الولد يدي أو يقبلني على وجنتي وهو يقول لي وداعًا.

كان الولدان يطيران كما يليق بصبيين في الثامنة عشرة من عمرهما وكنت أطير بحكم الفطرة والاعتياد.

الفصل التاسع عشر

واقعة

التحق نادر ونديم بكلية الهندسة جامعة القاهرة. نادر يقوم بعمل إضافي يدر عليه دخلاً. أحيانا يدرِّس بعض زملائه، أحيانا يعمل في محل لإصلاح الكمبيوترات، وفي الصيف يتعاقد مع شركة خاصة ويعمل طوال شهور العطلة من التاسعة صباحا حتى التاسعة ليلا. يبدو سعيدا فلا أتدخل. حمدية تحتج بأن كثرة جلوسه إلى الكمبيوتر يؤثر على عينيه، أزعجها أنه ذهب إلى طبيب العيون واكتشف حاجته إلى نظارة طبية. تقول بحسرة: ليس في أسرتنا كلها من استخدم نظارة، لا أنا ولا أبوك ولا ندى ولا نديم. الكمبيوتر هو السبب! فيرد عليها نادر وهو يدعي الجدية: أخذت النظارة عن جدتي الفرنسية!

التحق نديم كما أراد بقسم العمارة، تروق له الدراسة فينهمك فيها. يقرأ كثيرًا في تاريخ الفن والعمارة. في العطلة الصيفية لا يجد عملا. في عطلة العام الثالث أشار عليه أخوه بالعمل معه في شركة الكمبيوتر التي يعمل بها، فقبل.

تجري علاقتي بالولدين بسلاسة ويسر، ولا مشكلة في علاقتي مع

حمدية. حين نختلف فأحتد عليها أو تبرطم هي بكلام سخيف، نتشاجر ويكون الشجار عابرًا في الغالب، لا يمس موضع ألم في نفس أي منا، ولا يدوم سوى ساعات.

ثم واقعة مفاجئة تخرق القاعدة.

أجلس أمام التلفزيون. برنامج حواري مع معتقل سابق قدّرت أنه كان زميلاً لأبي. ناديت على حمدية والولدين ليتابعا معي الحديث. كان الرجل (علىِ مشارف الثمانين الآن) يسترجع سنوات سجنه الخمس عشرة، في السجن الحربي وفي القلعة وليمان طرة وسجن المحاريق، لا يطيل الحديث عن التعذيب، يفصِّل أكثر في الحديث عن الإنجازات في سجن المحاريق، المسرح الذي بنوه، الورش الفنية، الجريدة الناطقة، الدورات التعليمية، المدرسة التي أقاموها لتعليم الأميين من السجانين، واللوحات التي رسمها وحفرها الفنانون على جدران المعتقل وأبوابه.

سأله المحاور:

ـ أشرت ذات مرة إلى لحظات ينحني فيه رأس السجين فيلعق التراب، إلى هذه الدرجة يصل الإنسان داخل المعتقل؟

ـ طبعًا.

ـ هل جربت ذلك؟

ـ طبعًا.

في الوجه هدوء غريب لا أتمثله. هل هي الشيخوخة وبعد المسافة أم حكمة في نهاية المطاف؟

يسأل المذيع:

ـ هل بكى الوالد حين رأى يديك في الأصفاد، وكنت طبيبا متفوقًا وواعدًا؟

ـ لا لم يبك.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لا شيء.

ـ لا تتذكر أي شيء من هذا اللقاء الأول بالوالد؟

ـ أتذكر أنني حاولت أن أخفف عنه، تخيلت صعوبة أن يراني والقيد في رجليّ، كان القيد الحديدي في رجليّ. لم أرغب أن يظل صامتًا وأبقى صامتًا، أردت قطع الصمت فرحت أحكي له عن القيد بخفة. أقول: تعودت عليه. أقول: ثم إننا توصلنا إلى حيلة تمكننا من خلعه حين نختلي بأنفسنا.

ـ وماذا قال الوالد؟

ـ لم يقل شيئا. فقط لاحظت وهو يغادر...

رعشة خفيفة في الملامح.

ـ لاحظت...

صعب عليه الكلام فتوقف. حاول ثانية:

ـ لاحظت وهو يغادر... لاحظت أن كتفيه كانا منحنيين بعض الشيء.

أحنى الدكتور رأسه. ابتعدت عنه كاميرا المصور. تطلّعت إلى الولدين. لم أتمكن من قراءة وجهيها. كانا يشاهدان تاريخًا بعيدًا ربما. ثم إنهما لا يعرفان العلاقة بين الأب والولد.

قضيت الليلة أحكي للولدين عن أبيهما وتجربته في السجن. حدثتهم مطوّلاً عن ذلك ثم تفرع الكلام عن القهر في بلادنا. لم تشارك حمدية في الحديث، وإن جلست معنا صامتة تتابعه.

في صباح اليوم التالي، وما إن غادر الولدان إلى كليتهما حتى قالت:

ـ لماذا تتحدثين مع الأولاد عن تلك الأشياء. هذا ماض انتهى، لماذا تنبشينه؟

فاجأني الكلام، قلت:

ـ أولا، لأنه من الأفضل أن يعرف الولدان حكاية والدهما. ثانيا، لأننا نتحدث في تاريخ البلد ولا أريد أن يكونا كالطُرش في الزفّة، لا يدريان شيئا عما يدور حولهما.

ـ أنت تفتحين عيونهما على السياسة. والسياسة سكة ندامة. لا أريد لهما أن يُسجنا كأبيهما، ولا أن يدقّ على بابنا رجال أمن مسلحون وجه الفجر ويأخذونهما إلى المعتقل كما حدث لك.

ابتسمت، قلت:

ـ اختلف الزمان. نحن في التسعينيات. لا تخافي. من يُعتقل الآن الإسلاميون. والولدان بلا ميول إسلامية!

ما الذي قلته لتغضب إلى هذا الحد؟ كان وجهها محتقنًا وصوتها حادًا وعاليًا:

ـ أريد للولدين أن يركّزا في دروسهما ويُتمّا دراستهما في أمان الله ويعيشا حياة طبيعية! لا أريد لهما حياة أبيهما ولا حياتك!

ـ كفاية يا حمدية!

لكنها بدأت منولوجًا طويلاً وغريبًا عن تضحياتها وصبرها على تدخلي في كل صغيرة وكبيرة تخص الولدين: وأقول طوِّلي بالك يا حمدية، كبَّري مخك يا حمدية، استهدي بالله يا حمدية...إلخ. إلخ. ثم ختمت بالعبارة الصاعقة:

ـ أنا في النهاية أمهما، وللأم نصيب أكبر في الولد من الأخت، خاصة لو لم تكن شقيقة!

تركت الحجرة وأنا أقول بصوت عال:

ـ منذ لقائي الأول بك عرفت بالحدس أنك غبيّة. ولكنني لم أكن أعرف أنك قليلة الأدب! غادرت البيت وصفقت الباب ورائي بعنف.

تغيّبت عن البيت طول اليوم، ولم أعد إلا بعد منتصف الليل. كانت نائمة. ولأسبوع كامل فعلت الشيء نفسه. لم أقل للولدين شيئًا. حين أعود متأخرة، أجدهما في حجرتهما يدرسان. يسألان عن تغيّبي، أقول: لدي عمل إضافي هذين الأسبوعين.

عدت ليلة فوجدتهما بانتظاري. بدأ نديم الحديث:

ـ ماما قالت إنكما تشاجرتما، وإنك غاضبة منها.

لم أجب.

قال نادر:

ـ ماذا حدث؟

لم أجب.

ـ يحدث أن يتشاجر الأهل أحيانًا، ثم تعود المياه لمجاريها.

لم تعد، لا لأننا لم نتجاوز ما دار بيننا من كلام. (بدا أننا تجاوزناه،

وعدنا للتواصل بالشكل المعتاد)، بل لأن الخلاف طرح نفسه مجددا حين عاد الولدان من الجامعة وتحدّثا عن مظاهرات الطلاب احتجاجًا على مذبحة الخليل. أول مظاهرات كبيرة تحدث في فترة دراستهما الجامعية. (كانا في الثانوية عندما اندلعت الاحتجاجات الطلابية على الغزو الأول للعراق عام ١٩٩١). على العشاء راح الولدان يحكيان عن احتشاد الطلاب.

حكى نادر:

ـ عرفنا بخبر المظاهرة فبدأ الطلاب يتسرّبون من كلية الهندسة فرادى ومجموعات قاصدين الحرم. نديم قال سأشارك. قلت سيضرب الأمن المظاهرة فلا ينوبنا سوى البهدلة. تركني وغادر الكلية وأنا دخلت محاضرتي. لم أستطع التركيز في كلام المحاضر. فاعتذرت للأستاذ وخرجت لألحق بنديم.

قاطعته حمدية:

ـ لماذا يا نديم تورِّط نفسك وتورِّط أخاك؟

واصل نادر، وهو يضحك ويحرك ذراعيه مبديًا عضلاته كآكل السبانخ في أفلام الكارتون:

«بما أنني أخوه الأكبر، أردت حمايته! الحق أنني لم أكن أنوي المشاركة، أردت البحث عنه فوجدت نفسي في وسط المظاهرة. خرجت من بوابة الكلية فرأيت المئات من رجال الأمن بالخوذ والدروع يشكِّلون حائطًا يغلق الطريق بين الجامعة والسكة المؤدية لتمثال نهضة مصر والسفارة الإسرائيلية. ورأيت متظاهرين خارج الحرم يحيطون بقاعدة النصب التذكاري، ومتظاهرين آخرين أكثر بكثير وراء البوابة، وكانت مغلقة. سرت باتجاه كلية الفنون التطبيقية لأدخل من أحد الأبواب الجانبية فوجدت

الأبواب كلها مغلقة والأمن يطوِّق الجامعة تطويقًا كاملاً. عدت أدراجي بمحاذاة السور وقبل أن انحرف يمينا إلى شارع الجامعة، قررت أن أقفز إلى داخل الحرم. نظرت يسارا لأتأكد من عدم وجود أي من الضباط. ثم تسلّقت السور. رآني جندي من جنود الأمن المركزي، ولد أسمر صغير الحجم، صاح فيّ: ممنوع يا افندي. ابتسمت له وقلت: عندي محاضرات، صباح الفل! وقفزت بسرعة.

رحت أبحث عن نديم بين الطلبة والطالبات المتجمهرين وراء السور. وكان الأقرب منهم إلى البوابة يحاولون فتحها. رأيت طالبة تتسلق البوابة ثم تقف وهي تمسك بقضبانها بكلتا يديها وتهتف بصوت عالٍ فيردد الأولاد الهتاف. ثم تعالت هتافات جديدة من ورائنا، لأن حشودا من عمق الحرم، ربما كانت تطوف بالكليات، وصلت والتحقت بالطلاب المحتشدين خلف البوابة. صارت المساحة الممتدة عمقًا بين البوابة وقاعة الاحتفالات، وعرضًا بين كلية الآداب وكلية الحقوق مكتظة بالمتظاهرين. كنت أتنقّل باحثًا عن نديم عندما بدأ إطلاق الغاز المسيل للدموع ووجدت نفسي أركض مع الراكضين. لم أنتبه متى نجح الطلاب في فتح البوابة، ولا كيف وصلت بالقرب من المدينة الجامعية، ولا كيف صرت أمسك بالحجارة وألقي بها على الجنود الذين كانوا يلاحقوننا بالعصي حتى ونحن نختنق بالغاز الذي أطلقوه. أهتف فلسطين عربية، وأركض؛ أقول يا حكومة لمّي كلابك وألقي بالحجارة؛ أقول يا ولاد الكلب وأسعل.

كان نادر يضحك ونديم يضحك. وأنا أضحك (أتاح لي الضحك أن تسيل دموعي التي كنت حبستها منذ بدأ نادر الكلام).

قال نديم:

ـ نادر كان بينضرب عند المدينة الجامعية وأنا بانضرب قرب تمثال نهضة مصر.

قاطعه نادر:

ـ غلط يا سيد نديم، كنت بتنضرب وأنا باضرب. كنت على رأس أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط!

لم تضحك حمدية. كان وجهها شاحبًا تطوله زرقة مكتومة.

ورطة أم مشاركة واجبة. اختلفت مع حمدية، ولكن الخلاف الذي سيدفع بها للانتقال للإقامة مع أختها كان مؤجلاً. لم يحدث إلا بعد ذلك التاريخ بسنوات.

الفصل العشرون

حازم

ـ في بداية الأمر لم أنتبه إلى أنني أتفاءل أو أتشاءم. وعندما سمعت ذلك الغراب الناعق في الطريق المؤدي للجامعة، لم أقل سوى أنه غراب. كان نعيقه لافتا حملني على التطلع لأعلى فرأيته يقف على غصن شجرة من أشجار الأكاسيا على الرصيف الموازي لحديقة الأورمان. ثم فرد الغراب جناحيه وطار، قطع الشارع باتجاه مباني كلية الهندسة عن يساري. واصلت طريقي إلى الجامعة. ولما مات أبي بعدها بأيام، تذكّرت الغراب واعتبرته علامة.

ـ لا أصدِّق!

ـ صدِّق أو لا تصدِّق!

ـ كيف؟ فهِّميني!

ـ أتفاءل بأشياء وأتطيّر من أشياء، أحب أن ألقي نظرة سريعة كل صباح على «حظك اليوم» في الجريدة. لا أتوقف كثيرًا، ولكن يمكن إن كان الكلام مقلقًا أن يلازمني ولو بشكل خفيف قدر من القلق إلى أن ينتهي اليوم بسلام. لكل غرائبه الخاصة على أي حال!

ـ أعرفك منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ولم يسبق أن قلت لي ذلك!

ـ لم تتح فرصة لأقول. وربما أنني لا آخذ الأمر بجدية إلا لو رأيت علامة تتبعها كارثة.

ـ وربما لأنك بكل بساطة، يا ست ندى هانم، هبلة وخجلانة تقولي إنك هبلة!

ـ وربما بكل بساطة، يا سيد حازم بيه، أنك تفترض أن كل البشر متماثلين في السير كالقطارات على سكك حديدية، وتستسهل التصنيف في خانات وأرفف وأدراج وأصل وصور طبق الأصل، وكله ستامبا!

غضب فراضيته، قلت:

ـ أمزح معك يا أخي، ألم تكن تمزح معي، أم تعتقد فعلا أنني بلهاء؟!

وصفته بما لا يستحق للمكايدة، ولكنني أيضا كذبت عليه عندما قلت إنني لا آخذ الأمر بجدية إلا لو رأيت علامة تتبعها كارثة. الحق أنني أتوجس باستمرار. حتى حين يدعو أمر ما إلى الاستبشار، يدفعني الخوف إلى التوجس، فقد يجدّ ما يعطله أو يعرقله أويلغيه. حين انتحرت أروى أخذت أتصل يوميا بعدد من زملائي، أطمئن عليهم أو أطمئن منهم عن أصحابهم المقربين: كيف فلان؟ بخير. هل رأيته قريبًا؟ بالأمس، هل كان بصحة جيدة؟ يتندّرون عليّ. أو أهبط فجأة على زميل أو زميلة لم ألتقيهما منذ سنين. أدق الباب فيفتح يصيح: ندى! أقول: جئت لأطمئن وأعلن حازم أن ندى أصبحت أم المصريين، قررت أن تنقل صلاحياته في رعاية أخويها إلى الجيل كله!

اتصلت بحازم صباح اليوم الأخير من ديسمبر. قلت: غدا تبدأ ألفية جديدة، لنمضي ليلة رأس السنة معًا. من تقترح لمشاركتنا؟ قال: لن أغادر البيت. أغويته بالطعام. سأفنّ لك طبخة عجب. لم يستجب. ولم أتوجس، ولا بدا لي أن في صوته ما يدعو إلى القلق. بقيت أنا أيضا في البيت. انتصف الليل فبدأت السنة الجديدة، قلت لحمدية: تصبحين على خير، قلت لها: لا تبقي كعادتك تنتظرين الولدين، لن يعودا قبل الصباح. ودخلت إلى فراشي.

ولما نعاه لي الناعي، قلت: يا إلهي، أين أذهب الآن؟ ارتديت أسود الحداد وقصدت بيته. لم أقل ولم تقل أمه ولا إخوته ولا قال أي من زملائنا الذين تجمعوا في بيته قبل خروج الجنازة أنه أبونا وزاملنا. تواطأنا على معرفة لن يتمثلها سوانا، فاحتفظنا بها لأنفسنا. فما معنى الإفصاح وما ضرورته؟

في الجنازة ظهر اليوم التالي، اختلط حزني بخوف لم أعرف له مثيلاً من قبل. كنت أرتجف، أجد صعوبة في المشي بشكل متزن. وضع أحدهم معطفه على كتفيّ، وأمسك بذراعي طوال الجنازة. وفي العزاء في المسجد الكبير بعدها بيومين، رافقني نادر ونديم ولم يتركاني حيث يفترق الرجال والنساء، بل رافقاني إلى القسم المخصص لجلوس النساء، وانتظرا إلى أن جلست وجلست بجواري زميلة يعرفانها. ذهبا إلى القسم الخاص بجلوس الرجال، ثم عاد نادر ليطمئن، وذهب. بعدها جاء نديم ليسأل إن كنت أحتاج شيئا، وظلا يترددان على الواحد بعد الآخر إلى أن انتهى المقرئ من التلاوة وبدأ العزاء ينفض. رافقاني إلى خارج المسجد ثم إلى البيت.

لم أفهم ما يحدث لي. أفهم الحزن على رحيل حازم ولا أفهم الفزع. لاحقًا ربما فهمت أنني بمعادلة غريبة قلت إن ذهاب حازم هو ما يدعو

إلى التطيّر، لم تكن العلامة مجرد غراب يرفع صوته بالنعيق على غصن
شجرة ثم يطير، بل فقد حازم، في مطلع العام وبداية قرن وألفية. قلت
القادم هول فماذا أفعل الآن، ماذا سنفعل؟ ثم إن الغراب طار يسارا باتجا
كلية الهندسة. حكيت لنادر ونديم ورحت أعدد لهما أسماء من رحلو
من طلاب الكلية، من أسسوا جماعة أنصار الثورة الفلسطينية. ولكنني لـ
أقل لهما إنني خائفة إلى حد الهلع، أرى القبر يتّسع ويتغوَّل ويتوحَّش
يحاولان تهدئتي. يقول نادر إنني أترك نفسي لخزعبلات لا تصح: أفهم أ
تبكي حازم. نحن أيضا متألمان جدًا لرحيله، ولكن أن تضيفي للفقد هذ
الخيالات الغريبة، حرام! ثم نظر إلي وهو يبتسم، كأنه أوشك أن يتهكّ
ثم عدل وأعطي إشارة لأخيه وحملاني من السرير ودارا بي في البيت وأ
أصيح فيهما أن ينزلاني وهما يواصلان حركات بهلوانية. وعندما أنزلاني
أخيرا ضحكا فشاركتهما الضحك.

عادة ما أشعر أنني خفيفة قادرة على أن أطير، وأطير، فعلا لا مجازا.
كنت أطير وأنا ألاعب الولدين في البيت حتى يشكو الجيران من صخبنا.
أطير ونحن نركض في حديقة الحيوانات أو حديقة الأسماك، يحاول
الولدان اللحاق بي فلا يستطيعان. أطير وإن بدا ذلك غريبا، وأنا مستقرة
في مقعد أقرأ رواية ممتعة، أو أترجم نصًا جميلاً، أو أفِنّ طبخة لم ترد في
كتاب أو خاطر، أغنّي بالصوت الحيّاني في الحمام فأفسد اللحن بالنشاز
وصوت اندفاع رشاش الماء على رأسي وجسمي. وأذكر الآن أنني طوال
العامين اللذين شاركت فيهما في الحركة الطلابية كنت أطير إلى الجامعة،
أطير إلى قاعة الاعتصام وأطير إلى المظاهرة.

حين أشعر بنفسي ثقيلة أعرف أنني على مشارف نوبة جديدة من
الاكتئاب. قلت للطبيب المعالج: لدي شعور بالذنب لا أستطيع التخلص
منه. أشعر بالذنب تجاه أبي وتجاه أمي، ذنب لا علاج له لأنهما رحلا.

وأشعر بالذنب كلما مات زميل من زملائي كأنني تركته يتحمل عبئًا لم أشاركه فيه. أعي التناقض في كلامي، لكن هذا هو ما أشعر به. أو ربما يكون كلامي وهمًا أخفي به حقيقة أنني أشعر بالذنب كلما نظرت حولي فيتأكد لي أننا نترك للصغار خرابًا نطالبهم بالعيش فيه.

أقول للطبيب: أشعر بالخوف، في الصحو والمنام. ربما أطير لأنني خائفة، ولكن عندما أطير أتخفّف من خوفي. لا أعود أنتبه لوجوده. وحين يغلب الخوف أجد نفسي غير قادرة على الوقوف أو المشي. أتمترس في السرير. يبدو الذهاب إلى العمل أو الخروج من البيت مهمةً مستحيلة. أتحاشى الخروج ما أمكن. أتحاشى الناس، وأشعر بالوحشة لأنني بعيدة عنهم في الوقت نفسه. لحظة استيقاظي من النوم هي الأصعب. يستغرقني الاستعداد للخروج إلى العمل ساعتين، لا لأنني أتزيّن وأتجمل بل لأنني لا أكون قادرة على النزول إلى الشارع والذهاب إلى الوظيفة ولقاء من سألتقي بهم. وحين أذهب إلى العمل وأنهمك فيه، يتراجع الخوف كأنه كان وهمًا، أو كأن حالتي في الصباح لم تكن سوى هواجس وخيالات. أسميت شعوري خوفًا ولكنني لست متأكدة من دقة التوصيف، ربما هو شيء آخر، إعراض أو وتوجّس أو شعور مختلط لا يشكل الخوف إلا عنصرًا واحدًا من عناصره. لا أدري.

هو ينصت، لا يقاطع الكلام إلا بعبارات مقتضبة، وعندما أتوقف عن الكلام يسألني عن قدرتي على إنجاز عملي. أقول: أحيانا أجد صعوبة في التركيز، ولكن إجمالاً لا مشكلة لدي في العمل. لا تشكّل لي الترجمة أي عبء. الترجمة البسيطة أنجزها بسرعة وآلية، الترجمة الأعقد، الأدبية والفكرية وهي عادة ما تمتعني وأجد فيها نوعا من التحدي أو لعبة مثيرة، لا أقترب منها. إن كنت متعبة، لا ألتزم بهذا النوع من الترجمة، وإن سبق والتزمت، أضعه جانبًا ولا أفي بالتزامي.

يؤكد الطبيب أنني أقوى مما أظن، يقول إن دفاعاتي شديدة. لا أصدقه وأتشكّك في نفع هذه الجلسات الطويلة المكلِّفة. أغادر عيادته وأمشي في الشارع، أبكي. أجفف دموعي وأدخل صيدلية أشتري منها الدواء الذي أوصي به. أواظب عليه يومين أو ثلاثة ثم ألقي به في الزبالة. لا أحتاج دواءً!

يتعيّن على تسليك الخيوط، لا بد من إيجاد مخرج. ما المشكلة؟ لا بد من تحديد المشكلة قبل محاولة الخروج منها. ما هي المشكلة؟

الفصل الحادي والعشرون

العيد الكبير

أحيانا يأتيني خالي الطيّب فأفكر أن في الحياة الكثير مما يستحق الحياة، أسترجع لحظات متوهجة فأقرر أن الدنيا رغم كل شيء، كانت كريمة معي.

حين أتم نادر ونديم عامهما السادس عشر، قلت نقيم حفلا بالمناسبة، لم تكن من عادتنا إقامة حفلات لأعياد الميلاد، نكتفي بـ «كل عام وأنت بخير» لصاحب العيد، وربما هدية قد تكون باقة زهور أو بطاقة أو قميصا سرّع العيد بشرائه.

لم نُقِم الاحتفال في يوم عيد الميلاد بل بعدها بأيام حين عاد الولدان كلٌ ببطاقة هويته فأصبح رسميًا مواطنًا مستقلاً وكامل الصلاحية. سألت: مساء الجمعة؟ وافقا. قضيت مساء الخميس وصباح الجمعة أعد الحلوى. ثم أعلنت: أقفلنا المطبخ. ممنوع دخول المتطفلين! كان المقصود نادر ونديم لأن حمدية كانت شاركتني الإعداد. تحممت وأرسلت شعري الذي عادة ما ألمّه في ذيل حصان، وارتديت أجمل أثوابي. وجاء الأصحاب وصار العيد عيدًا. غنينا ورقصنا ولعبنا وضحكنا وتهكمنا، وتطايرت

الكلمات ككرة البنج بونج في مباريات من القفشات والنكات واللذعات الساخرة من كل شيء بما في ذلك أنفسنا.

ولما حصل الولدان على الثانوية العامة أقمنا عيدًا ثانيًا، وعند تخرجهما من الجامعة أقمنا العيد الثالث. وفي نهاية كل عيد منها كنت أدخل فراشي، الدقيق كنت أسقط في الفراش كحمولة بصل أو بطاطس يُسقطها أحدهم من سيارة النقل التي حملتها. أستغرق في نوم هادئ وعميق، ويمتد العيد إلى صباح اليوم التالي فأسارع ما أن أستيقظ إلى الحمام، أفتح رشاش الماء الساخن وأتحمم طويلا وببطء وسط بخار متكاثف وأنا أغني بأعلى صوتي أغاني أحبها لفيروز أو عبد الوهاب.

كان شعوري وأنا أودِّع الولدين في مطار القاهرة في ذلك اليوم القائظ من شهر يولية مماثلا، ولولا الحرج لارتفع صوتي بالأغنية التي كنت أترنّم بها فتوقف المطار مشدوها لتلك المرأة التي تجاوزت الأربعين (قد لايبدو للعابر أنني تجاوزت الأربعين بسبب ثيابي وتصفيفة شعري الملموم على شكل ذيل الحصان، ولكنني كنت أتممت السادسة والأربعين، أي بالعربي الفصيح، امرأة في العقد الخامس من عمرها قطعت أكثر من نصف الطريق باتجاه العقد السادس)، أقول لو صدحتُ بالغناء (وصدحتُ هذه كارثة من كوارث لغتنا الجميلة) لتوقّف المطار مشدوهًا لغرابة السلوك، وربما أيضا لقدرتي الاستثنائية على النشاز وإفساد أي لحن. ولكنني واصلت الغناء على أي حال، بصوت هامس وأنا أمد يدي بجواز السفر للموظفة في شركة طيران الشرق الأوسط، ثم توقفت اضطرارًا لأجيبها على سؤالها، قلت: ليس معي سوى هذه الحقيبة الصغيرة، سأحملها في يدي. أخذت جواز السفر وعدت إلى الغناء وبقيت أغني وأنا أقف في طابور الجوازات ثم أمد يدي للضابط ليختم الجواز بختم المغادرة ثم أخيرًا وأنا أستقر في مقعد بمقهى المطار في انتظار موعد الإقلاع.

كنت تابعت المشهد تفصيلاً، كل يوم وكل ساعة. في اليوم الأول جلست أشاهد التلفزيون منذ عودتي من العمل حتى المساء، وفي اليوم الثاني طرت إلى العمل، وأنجزت المطلوب ثم عدت طائرة إلى البيت. وفي اليومين التاليين لم أغادر البيت ولا غادرت موقعي أمام التلفزيون. في الأول تحرير القنطرة ودير سريان والقصير والطيبة. ثم توالت القرى والبلدات: مَرْكَبا، بيت ياحون، العديسة، الحولا، بني حيّان، طَلّوسة، ميس الجبل، كفر كلا، الخيام، الناقورة، بنت جبيل، مرجعيون. أعزز المشاهد بالعودة إلى الخريطة لمعرفة موقع كل منها. في أيام معدودة أضحت هذه القرى والبلدات المجهولة لي من قبل، أماكن معلومة أليفة وتخصّني. حين يعود نادر ونديم من عملهما أعيد عليهما تفاصيل ما شاهدته وأُتبع اسم كل قرية وبلدة بتعيين مكانها. وأضحك فجأة إذ أتذكّر عمتي وهي تتحدث عن القرى المجاورة لقريتنا، تحرص على ذكر موقعها: في البر الشرقي أو البر الغربي، على خط قريتنا أو على خط مغاير والمسافة بينهما، كأنها تخشى على السامع أن يخطئ موقع القرية فيضيّع الطريق.

هرب الجيش الإسرائيلي.

محاولة يائسة لرجال لحد. قصف الأهالي العائدين إلى بنت جبيل. محاولة أخرى: يطلق الإسرائيليون النار فيصيبون عملاءهم من جيش لحد. محاولة ثالثة: يسكبون بترول الدبابات على الطرق. لا فائدة. في الشقيف العالية، آخر معقل لهم فيه وجود، مجموعة محاصرة تنتظر طائرات الهليكوبتر لتنقلها جوا إلى إسرائيل. ثم الانهيار. كاملا ونهائيا. تركوا وراءهم الدبابات والسيارات والمدافع والبنادق والمسدسات والذخائر، وجيش عملائهم.

سيصعب علي كثيرًا أن أنقل مشاعري وأنا أتابع آلاف البشر القاصدين قراهم المحررة، يسلكون سككا ترابية، يصعدون سيرًا على الأقدام، أو

في سيارات أو على متوسيكلات. أعلام صفراء وأعلام خضراء وأعلام بيضاء ملونة بالأخضر والأحمر. الجرّافات تزيل الحواجز. أيدي وسواعد ومناكب تفتح بوابة تغلق عليهم الطريق. يمرون، يواصلون الصعود، يقتربون ثم الوصول: تنثر النساء الأرز وأوراق الورد على القادمين. «أهلا وسهلا». «عشرين سنة إلنا ميتين، إسّه خِلِقنا». يقولها شيخ وهو يستقبل القادمين. امرأة ترتدي سترة عسكرية، تسألها المذيعة إن كانت هذه السترة من «الغنائم» فتجيبها: لا، هذه ملابس زميل ابني، وكلاهما شهيد. تسألها المذيعة. سعيدة في هذا اليوم؟ تجيب السيدة: سعيدة، وتكتمل سعادتي بعودة المعتقلين في السجون الإسرائيلية، واستعادة جثث أبنائنا الشهداء. شاب ينزع ملصق يحمل صورة أحد قادة الجيش العميل، يمزقها ويمضي. صبايا يبكين، نساء يزغردن ويهزجن، رجلان يتعانقان، يطيلان العناق كأنهما يخشيان إن أفلت الواحد صاحبه يجده وراء سلك شائك يحول بينهما من جديد. وعلى تراب ساحة قرية تقام صلاة جامعة للعائد والمقيم. صورة جماعية في بنت جبيل، أمام مركز العملاء في السنترال القديم، وجوه ضاحكة وأكتاف متلاصقة والأعلام الصفراء تثبتت في الصورة وهي ترفرف. وصوّر يا زمان.

رجال جيش لحد المتعاون مع إسرائيل يسلمون أنفسهم. تقترب منهم الكاميرا وهم جالسون في عربة نقل كبيرة. يخفون وجوههم. ذهبت السكرة. قادتهم طلبوا الإذن باللجوء مع أسرهم إلى إسرائيل. صف طويل من بشر وسيارات بانتظار السماح لهم بالانتقال إليها. بوابة فاطمة تنغلق بعد خروج آخر جندي إسرائيلي من لبنان، ينقل التلفزيون البوابة الحديدية الكبيرة، ينقل صريرها العالي إذ يتحرك مصراعاها. جندي إسرائيلي على الجانب الآخر يحيطها بالسلاسل الغلاظ. ثم قفل الحديد.

في بنت جبيل، قال السيد حسن في خطابه في اليوم السادس والعشرين
ن مايو عام ألفين: ضعوا اليأس جانبًا، قال: تسلّحوا بالأمل.

قال أنطوان لحد في تصريح من باريس: أخلصنا لإسرائيل ٢٥ سنة وخانتنا وتركتنا في ليلة واحدة.

قال السيد حسن في خطابه: زمن الهزائم ولّى.

في اليوم التالي (السابع والعشرين من مايو) غادرت فراشي ما إن استيقظت من النوم وتحممت وارتديت ثوبا ملونا وكانت المرة الأولى التي أخلع فيها ثوب الحداد منذ رحيل حازم. أعددت لنفسي كوبا من الشاي، وأمسكت بالقلم وجلست لأكتب له:

«ألم يكن بمقدورك الانتظار خمسة شهور؟ لو انتظرت أربعة شهور وعشرين يوما لا أكثر، لطال عمرك سنين. أشتاق لك كثيرًا لكنني أدع ذلك جانبًا الآن وأحكي لك ما حدث» وحكيت، حكيت له تفصيلا كل ما شاهدته عبر البث المباشر في التلفزيون، ثم رسمت له خريطة عليها مواقع القرى والبلدات. وفي ختام الرسالة أخبرته أنني أنوي زيارة جنوب لبنان ما إن تتاح لي الفرصة (كان حازم أول من أخبرته بمشروع السفر). وحين انتهيت من الرسالة، وضعتها في مظروف، ولما أردت أن أكتب عليه العنوان احترت، فوضعتها في حقيبة يدي، وقمت لأعد لنفسي كوبًا آخر من الشاي، وأستعد للذهاب إلى العمل.

بدا لي للحظة أنني سوف أداوم على كتابة الرسائل لحازم. قلت قد تكون بداية واحدة من جنوناتي لطارئة. وقد يكون جنونًا فعليًا يخرج بي من عالم الراشدين. لكنني لم أكتب له سوى رسالة واحدة بعد ذلك، بدأتُ في كتابتها وأنا في مطار بيروت أنتظر موعد الإقلاع، وفي الطائرة واصلت الكتابة. وحين انتهيت منها كانت المضيفة تطلب منا ربط أحزمة الأمان لأن الطائرة على وشك الهبوط إلى مطار القاهرة.

في رسالتي لحازم حكيت له عن الطريق إلى بلدة الخيام، عن صور الشباب الملوَّنة على الطريق: «في كل موقع شهد عملية مقاومة عمود كأعمدة النور لا ينتهي بمصباح كهربائي بل بصورة لشهيد شارك في العملية، صورة كبيرة ملوّنة تظهر ملامح الوجه واضحة، وتحت الصورة اسم الشاب وسنه وتاريخ استشهاده».

وحكيت عن معتقل الخيام: موقعه المشرف على فلسطين وسوريا وجبل عامل في لبنان. وصفته له بدقة. بدأت بالقائمة المعلقة يسار الداخل إلى الباحة، قائمة تسجل أسماء السجّانين الذين قاموا بالتعذيب. وصفت له غرفة التحقيق و«عمود الشّبْح» والزنازين الكبيرة والزنازين الصغيرة، متر واحد في متر واحد وارتفاعها متر وثمانون سنتيمتر، يقضي فيها المعتقل شهرا أوشهرين دون أن يتاح له أن يتمدد أو يفرد ساقيه. قلت: دخلت واحدة منها ورددت الباب، لم أرى إصبعي في الظلام. حكيت له عن الصندوق: يتربع فيه المعتقل لأيام في حيز طوله متر وعرضه متر وارتفاعه متر، وعن ساحة الفسحة في الشمس، سقفها من الأسلاك الشائكة يسمح للمساجين الخروج إليها عشرين دقيقة، مرة كل ثلاثة أسابيع. بقي المعتقل على حاله بعد التحرير ليصبح متحفا للزائرين، ولكن الجدران أعيد طلاؤها ففقدنا كل الكتابات المحفورة والمرسومة عليها. لا شيء الآن على الجدران.

لم أحك له عما سمعته من صنوف التعذيب، ولا محاولات الهرب رغم حقل الألغام الذي يحيط بالمعتقل، ولكنني نقلت له تفصيلا حكايتين من الحكايات الكثيرة التي سمعتها، حكاية علي قشمر الذي قضى عشر سنوات في المعتقل وحكاية عبد الله حمزة الذي لم يبق فيه إلا ثلاثة أسابيع:

«علي من بلدة الخيام، قبض عليه وهو في الرابعة عشرة من عمره. لم يعرف تهمته. يقول: كنت كأمثالي من الأولاد في هذه السن، أكره الاحتلال

لكن لا أفكر سوى في اللعب. لا يشغلني المستقبل كثيرًا، وإن فكرت فيه فلا يتجاوز تفكيري النجاح في الامتحانات.

اعتُقل وعُذِّب، عُذِّب طويلا.

تصعد أمه إلى سطح دارها كل يوم. تتطلع إلى مباني المعتقل القريب، تتحدث إلى ابنها، كأن كلامها يصله، وكأنه سيجيبها على ما تقول. يسمعها الجيران وبرفق يصطحبونها من السطح وينزلون.

عند خروجه من المعتقل لم تتعرف أمه عليه. في الخيال ولد صغير وأمامها شاب طويل له لحية. قال مبتسما: أنا علي يا أمي.

عرفته من ابتسامته.

هو أيضا لم يتعرف على نفسه ذات نهار لمح فيه مرآة في غرفة الحارس. يقول: رأيت على صفحتها شخصًا لا أعرفه. التفتُّ ورائي. لم أجد أحدًا.

قضى علي في المعتقل عشر سنين، أما عبد الله حمزة المدرِّس فلم يعش فيه سوى ثلاثة أسابيع. علّقوه على عمود الشَبْح وظلوا يضربونه ويسكبون عليه الماء البارد (في شهر فبراير) حتى مات. وطوال عامين ونصف داومت فيروز، زوجته وأم أطفاله الثلاثة على زيارة المعتقل، تقطع الكيلومترات الخمسين من قريتها إلى الخيام، تحمل لزوجها ملابس ومأكولات، تسلمها للحراس وتعود. لا تعرف أنها منذ عامين ونصف أرملة وأن صغارها منذ عامين ونصف، أيتام.

«حكايتا علي قشمر وعبد الله حمزة حكاهما لي الدليل الذي كان يرافقني في المعتقل. هو أيضا معتقل سابق. لم يحك حكايته. لم يتحدث

عن نفسه إلا مشمولاً بنون الجماعة، وهو يقودني من زنزانة إلى زنزانة، ومن غرف التحقيق إلى عمود الشّبح ويشرح ويفيض».

في الختام قلت لحازم: «في كتابي عن السجن، سأفرد فصلاً للخيام، يتناول على غير الفصول الأخرى، لحظة التحرير. وربما أفرد له فصلين، فصلاً يكون واسطة العقد في الكتاب عن الحياة في المعتقل، ثم فصلاً أنهي به الكتاب، عن التحرير».

الفصل الثاني والعشرون

مستجدات

يدرّبني نادر على التعامل مع الكمبيوتر. أرتبك، أبدو شديدة الغباء، ثم أبدو أقلّ غباءً. أتلمّس طريقي بوجل من يمسك بالقلم للمرة الأولى أو يستجيب لطلب الكلام بلغة لم يتعلم منها سوى المبادئ. أقول بنفاذ صبر: فهمت، اتركني الآن لأتصرف. يتركني، أسبح أشبارا ثم أصيح في طلب النجدة. أستفسر كل بضع دقائق. يأتي نادر ويوضّح، يطيل الشرح فأحتج: هل تفترض فيّ الغباء! يذهب، تبدو الأمور أسهل، وفجأة تتعقد. أنادي نديم.

في الأسبوع الأول يبدو التعامل مع البرامج والملفّات والنوافذ والأسئلة التي تقفز على الشاشة أمامي فلا أدري إن كان على الإجابة عليها بنعم أو لا، متاهة في شوارع مدينة لا أعرفها، أتوقف. ثم أحسم أمري وأقول هذا هو الطريق، أتقدّم بشيء من الثقة، تتلاشى تدريجيًا إلى أن أوقن أنني بكل بساطة ضعت، لا أعرف كيف أصل إلى ما قصدت ولا كيف أعود حيث كنت. قلت: علِّمني التعامل مع الملفَّات فقط. أتقن الكتابة السريعة على الآلة الكاتبة، أريد أن أتعلّم كيف أفتح ملفًّا جديدا، كيف أغلقه، كيف أعود

إليه، وكيف أنسّق ما كتبت وأحرره بالإضافة والحذف. علَّمَني.

في اليوم التالي. فتحت ملفًّا جديدا وبدأت أترجم. وضعت النص إلى يميني، أنظر إلى الجملة العربية وأحرك أصابعي بيسر على المفاتيح فتتشكل الجملة الفرنسية على الشاشة أمامي. عادة ما أترجم بسرعة، وعادة ما أعيد صياغة ما ترجمته عند الانتهاء من كل فقرة. كان التعديل هنا أبسط وأسرع: أمحو حرفًا أو كلمة أو سطرًا وأستبدل به سواه. لا حاجة لمسوّدة أبيّضها ثم أعود إليها بتشذيب أخير يتطلب نسخًا للمرة الثالثة. واظبت على العمل في الملفّ أربعة أيام، ترجمت فيها خمسين صفحة.

كنت سعيدة كعادتي حين تروق لي ترجمتي لنص، وسعيدة أكثر لفلاحي في التعامل مع الجهاز الذي بدا لي قبل أسبوع واحد فقط، لغزًا يستعصي.

ما الذي حدث؟ ضغطة ما أدت إلى أمر ما. اختفى الملفّ. طوال ساعتين حاولت استرجاعه، ولم أفلح. أيقنت أنه مختف في مكان ما في تلافيف الجهاز فجلست أنتظر عودة أي من الولدين ليجده.

عاد نادر وكعادته قال إنه سيموت جوعًا، وإن لم يأكل فورًا سنضطر لطلب الإسعاف، وقبل أن يصل الإسعاف يكون الطبيب قد كتب شهادة الوفاة!

سحبته من يده وأجلسته أمام الكمبيوتر. قلت: الملف أولاً، بعدها تموت براحتك، لن أمنعك! تطلّعت حمدية باستغراب، ولكنها آثرت الصمت. جلس نادر إلى الجهاز، سألني عن اسم الملف، وتاريخ بدئه وآخر مرة كتبت فيه. بحث. قال: غير موجود. ثم راحت يده تضغط ضغطات سريعة على الفارة فتظهر مربعات وقوائم فيؤشر بلا أو نعم، ويغلق ويفتح ويغلق، وأخيرا أعلن:

ـ من حقي أن آكل الآن. اشتغلت بلقمتي. أضعت الملف ياست ندى!

ـ لم يحدث! كيف ضاع؟!

ـ لا بد أنك أردت «تسييفه» و...

ـ ما معنى تسييفه؟

ـ يعني حفظه، ده عربي كمبيوتر: يسيّف يعني يحفظ!

ـ وبعدين؟

ـ ضاع الملف لأنك أغلقتِ الكمبيوتر دون حفظه!

ـ لم يحدث.

ـ إذن احكي لي ما حدث؟ لكن آكل أولاً وبعدها أسمع.

جلست بجواره وهو يتعشى. قلت:

ـ انقطعت الكهرباء فتوقف الكمبيوتر. عادت الكهرباء، فتحته، وكان الملف موجودا وعال العال. عملت فيه لأربع ساعت وعندما قررت أن أتوقف طلع لي مربع الحفظ، ضغطت كالمعتاد على نعم فطلع لي المربع نفسه مرة ثانية وثالثة ورابعة، فعلت ذلك عشرين مرة ثم قررت أن الإجابة بنعم غير مجدية ورجّحت أن الضغط على «لا» سيحل المشكلة، وهذا ما فعلته. بعدها أغلقت الملف والكمبيوتر ودخلت المطبخ. والعصر حين فتحته لم أجد الملف.

ـ ذكاؤك حاد... مذهل! والله أنا معجب! لما انقطعت الكهرباء احتفظ لك الكبيوتر بنسخة مؤقتة من الملف. كان عليك بكل بساطة أن تغيري اسمه أو تحتفظي به بنفس الاسم مع الموافقة على استبدال الملف المؤقت

بملف آخر دائم. كنت في كل مرة تعطي أمرًا بالحفظ ينتظر الكمبيوتر أن تعلميه بحفظ الملف تحت أي مسمى. وكان عليك أن...

لم كن أنصت. كنت أفكر أنني ضيّعت عمل أربعة أيام.

أعلنت:

ـ لن أقرب الكمبيوتر بعد اليوم.

حرك نادر رأسه وكتفيه متهكّما:

ـ «خايف تنزل البحر يا نادر، عيب عليك!»

كان يقلِّد كلامي له حين كان صغيرا، يخاف الاقتراب من البحر.

وعند عودة نديم صنع نادر مسرحية هزلية من فقد الملف. قال:

ـ وصلت لقيت ندى فاتحة مناحة وتقول الملف الملف. أقول لها سأموت من الجوع تقول: الملف الملف. رن التليفون ردت: الملف الملف، دق الباب، طلع البقال قالت: له الملف الملف!

بقيت أسابيع لا أقرب الكمبيوتر، وذات جمعة بعد أن أفطرنا سحبني الولدان إلى الكمبيوتر وجلس كل منهما من ناحية ممسكًا بجريدة وقالا: لن نتحرك. افتحي الكمبيوتر وتعاملي معه. كلما حاولت مغادرة مكاني يمنعانني. إلى أن قلت: أريد الذهاب إلى الحمام. لم يصدقا. أقسمت. لم يصدقا. قلت لهما «يا ولاد حاعمل على روحي!» تركاني. ووقفا بباب الحمام. يصيح الواحد منهما بعد الآخر: خلاص! ومن باب الحمام سحباني إلى الكمبيوتر.

ثم استغرقتني اللعبة الجديدة. استغرقتني أكثر حين تعلمت استخدام البريد الإلكتروني والطواف في أنحاء الشبكة، أتابع الأخبار، أقرأ الجرائد والمجلات، أبحث عما أريد في هذا الموضوع أو ذاك.

أعلنت ذات صباح مزهوّة كديك رومي:

ـ خبر الموسم. أصبح لي مدوّنة خاصة بى!

صاح الولدان كأن الفريق الذي يشجعانه أحرز هدفًا. هتفا وصفّقا:

ـ ما اسم مدونتك؟

ـ «على باب الله».

قال نديم:

ـ جميل!

رد نادر:

ـ حزين وغلبان. فكّري في اسم آخر.

ـ مثلا؟

قال نادر:

ـ السفيرة عزيزة.

أضاف:

ـ أو قطر الندى.

قال نديم:

ـ «على باب الله» جميل، لو قررت تغييره فليكن الاسم «عجبي!».

ـ سأُبقي عليه!

حمدية لا تحب الكمبيوتر. تشعر أنه سحب منها نادر ثم نديم، ثم صرت أنا أطيل الجلوس أمامه. وكثيرًا ما نجد أنفسنا منهمكين في حديث يُشعرها بالعزلة، فهي لا تفهم ما الذي نتكلم عنه. تكرر أن الكمبيوتر يضيّع

الوقت ويضعف العينين. تمر أيام لا أدخل فيها المطبخ على الإطلاق فألاحظ توترها وهي تعد المائدة، لا تضع الأطباق والشوك والسكاكين بهدوء بل ترقعها رقعًا يجور على أذنيّ في الغرفة المجاورة.

عدت للاختلاف مع حمدية حين طرح نادر عرضًا جاءه بالعمل في دبي. استغربت أنها تهللت للخبر. اعترضت. قلت: تحب عملك وتحصل منه على راتب جيد. حاولت إثناءه فقال إن العمل المعروض عليه سيوفّر له نقلة في حياته العملية، خبرة أوسع ومرتبًا أكبر ومركزًا أهم.

حسم أمره وسافر.

نتواصل كل ليلة عبر المرسال الإلكتروني، ولكن نادر على ما يبدو لديه عمل كثير فيكون الاتصال مقتضبًا إلا في يومي الخميس والجمعة. يبدو سعيدا بعمله، وبالمرتب الكبير الذي يتقاضاه.

لم يوفق نديم في الحصول على وظيفة في مجال تخصّصه. كل مكاتب الهندسة المعمارية تفضّل من له خبرة، وهو لا يجد عملاً يوفر له الخبرة. دائرة مغلقة. يتنقل في العمل بين شركات خاصة للكمبيوتر. يسجل في قسم الدراسات العليا أملاً في الحصول على ماجستير في العمارة تحسِّن فرصه في العمل في مجاله، ثم ينقطع عن الدراسة.

كانت الشركة التي تركها تتيح له بعض الوقت للدراسة ولكنها تؤخر مرتبات العاملين. لا يحصل نديم على مرتبه إلا في النصف الثاني من الشهر، وأحيانا في آخر الشهر، وأحيانا في الشهر التالي. يقولون ننتظر شيكًا ما إن يأت نصرف المرتبات. أستفسر منه: شركة صغيرة؟ يقول شركة كبيرة فيها مئات العاملين. أصحاب الشركة يعرفون حاجتنا للعمل ويعرفون أن المؤهلين بلا حصر، إن ترك واحد منا، هناك ألف ينتظرون بلا عمل ويتطلعون ليحلوا محله. يعلنونها بصفاقة: الباب يفوِّت جملا.

الشركة الجديدة التي انتقل إليها تنتظم في دفع الأجور وفي المقابل تعصره عصرًا كعود القصب. يغادر البيت في السابعة والنصف صباحا ويعود في الواحدة بعد منتصف الليل، كل يوم، ستة أيام في الأسبوع. يعود كأنه بلا عينين، يأكل وهو نصف نائم ثم يدخل لينام. (لو كان ماركس على قيد الحياة لأضاف جديدا بشأن فائض القيمة الذي يوفره أصحاب الياقات البيضاء من حملة الشهادات. وكيف يا ترى كان يصنفهم: طبقة وسطى أم شغِّيلة كادحين؟).

فقط يوم الجمعة يتاح لي أن أتواصل مع نديم، نفطر ببطء ونبقى في أماكننا حول مائدة المطبخ نثرثر في استرخاء. يحكى لي عن أحوال زملائه وعن ما يراه كل يوم في الميكروباس في الذهاب والعودة. (يستغرقه الطريق إلى العمل أكثر من ساعة، ساعة وربع أوساعة ونصف للذهاب، ومثلها للعودة).

حتى شهور مضت، يقول لي نديم، كان السائق يفتح تسجيلاً لآيات من القرآن. ينطلق الصوت عاليًا ومجلجلاً في الميكروباس، لا يحول دون كلام الراكبين. يعلقون ويثرثرون ويحكون حكاياتهم، وأحيانا يتهكمون. (لا لم يعد أحد يطلق النكات الآن). في الفترة الأخيرة استجد أمر غريب: لا السائق يفتح تسجيلا ولا أي من الركاب يتكلم، يسود الصمت في الميكروباس، الكل شارد بفكره أو كأن على رؤوس الجميع الطير. هذا ما لاحظته في الميكروباسات المختلفة التي أستقلها كل يوم. والأغرب الذي لاحظته أن الركاب إن نطقوا، وهو ما يحدث نادرًا الآن، أعني لو نطق واحد ثم جاوبه آخر فانطلق الكلام، يتحدثون حديثا سياسيًا تحريضيًا يفوق في قوته كل ما تتخيلين. يتناولون بنقدهم كل شيء من رغيف الخبز لفساد الحكومة للبوارج التي تقترب لضرب العراق.

* * *

فاجأنا نديم بزيارة لم يعلن لنا عنها. دق الباب مساء الخميس فوجدنا أمامنا. يحمل في يده حقيبة صغيرة ويعلق على كتفه حقيبة أصغر. بعد صخب اللقاء، صخب مجنون لأننا ونحن نعانق نادر الواحد بعد الآخر كانت حمدية تبكي وأنا أضحك ونادر يتكلم ونديم يصدر أصواتا غريبة كأنه تناسخ جوقة من العصافير ترفرف وتغرغر وتغني. أعلن نادر:

ـ أولا: زيارة على طريقة: خالتي عندكم، لا، إذن، السلام عليك!

ـ يعني أسبوع واحد!

ـ خميس وجمعة وأسافر صباح السبت.

هتفت الجوقة الثلاثية:

ـ لا!

واصل نادر:

ـ سبب الزيارة عيد ميلاد ندى. قلت أول عيد ميلاد وأنا راجل شغّيل شديد بمرتب شديد.

هجم علي وقبل وجنتيّ وجبيني: «كل سنة وأنت طيبة، وسعيدة وست الكل!» قدم لي الحقيبة التي بقيت معلقة في كتفه منذ أن دق الباب.

ـ افتحيها!

فتحتها. لم أنطق، لأن الصوت لم يتح له الخروج دون دموع.. نادر يفهمني. لم يطل الموقف. انتقل إلى حمدية. أخرج من جيب سترته علبة صغيرة فتحها وقدم لها ساعة صغيرة أنيقة. واصلت البكاء. قال:

ـ أما نديم فعليه أن ينتظر للزيارة القادمة لأن المرتب بحّ على قد كده. اشتريت قميصين قميص لك والآخر لي.

وفي ثواني خلع الولدان قميصيهما وراح كل يفض الغلاف الشفاف لقميصه الجديد وينزع الدبابيس والياقة البلاستيك ويفك الأزرار. ارتدي كل قميصه، وكان القميصان متطابقين. ثم أعلن نادر:

ـ إن لم آكل فورا سأموت، فأحرم من الخروج بقميصي الجديد!

ـ ألم تأكل في الطائرة؟

ـ أكلت، لكن لا يشبعني إلا أكل حمدية وندى!

وقفنا أربعتنا في المطبخ أعد أكلة وحمدية تعد أكلة أخرى ونديم يعد السلطة ونادر يحكي. ثم حملنا الأطباق إلى مائدة الطعام. بقينا حول مائدة الطعام نثرثر ونشرب الشاي حتى أذّن الفجر. ثم دخلنا لننام.

قبل السابعة كنت شربت الشاي وفتحت الكمبيوتر المحمول الذي أهداه لي نادر. كان جميلا جدًا، مبهرًا. ولم أتأكد إن كنت سأشعر أنه بهذا الجمال لو رأيته معروضا للبيع في محل من المحلات. قلت نفسي: جميل لأنه هدية، وجميل في المطلق وبصرف النظر عن السياق. كان صغيرًا وخفيفًا وأنيقًا، غطاؤه فضي يحيط بشاشته ولوحة مفاتيحه إطار فضي دقيق. لوحة مفاتيحه سوداء نقشت عليها الحروف العربية واللاتينية باللون الأبيض. وكانت حقيبته أيضا أنيقة فيها حيز للجهاز، وحيز آخر للأوراق، وحيز ثالث لوضع المحوّل والأسلاك ومرفقاتهما، وفيه جيبان أحدهما مربع به الأقراص المدمجة للبرامج الأصلية، والثاني أصغر ومستطيل لوضع الفارة.

كنت أعد كوبا ثانيا من الشاي حين استيقظ نديم، قبّلني وقال وهو يمد يده بشيء من الاستحياء بلفافة ملونة:

ـ كل سنة وأنت طيبة يا ندى.

ـ وأنت طيب يا حبيبي.

ـ الهدية مش قد المقام!

فتحتها. قبلت الهدية وقبلته.

جلسنا لتناول الشاي معا.

كدت أقول «اللاب توب الذي أحضره لي نادر تحفة»، ثم عدلت.

ـ على فكرة يا ندى، قولي لماما إنك أوصيتي نادر أن يشتري لك هذا الكمبيوتر.

ـ لم أوصِه!

ـ أعرف. لكن يبدو إن ماما انزعجت. بالأمس ونحن نعد الشاي علقت تعليقا ينم عن حساسية.

ـ ماذا قالت؟

ـ لا يهم ما قالته ولكن يبدو أنها تعرف ثمن هذا النوع من الأجهزة وربما قارنت بين ثمنه وثمن الساعة.

ـ ولماذا تنقل الكلام؟! (طفت صرامة المُربّية القديمة).

ـ لا أنقل كلامًا. أردت أن أزيل أي مجال لسوء الفهم أوالحساسية. قولي لها أعطيته مالا ليشتريه، اتضح أنه لم يكن كافيا، أصر هو أن يكمل المبلغ الباقي. يعني حل وسط بين الهدية وشيء أوصيته بشرائه. ستهدأ حين تقولين لها ذلك.

ـ لن أقول!

ثم بحسم:

ـ أرجو ألا يعرف نادر شيئا عن كل هذا الكلام الفارغ!

سكت. ثم.

ـ نادر يعرض على أن أسافر إلى دبي.

ـ جاءك بعقد؟

ـ لا، ولكنه يقول أن باستطاعته توفير عمل لي بمرتب مجز، ما رأيك؟

ـ ما رأيك أنت؟

ـ لا أعرف. ولكن إن استمر الحال على ما هو عليه، سأقبل!

غريبة ردود الفعل. انصب غضبي على نديم لا على حمدية. كنت حانقة عليه لنقله كلام أمه، بل نقله بما هو أسوأ من إعادة نص ما قالته. منذ صغرهما كنت أرفض أن يقول نادر نديم فعل كذا أو يقول نديم نادر قال كذا. أوبّخهما بشدة، وأحيانا أعاقب الواشي. لم يكن نديم يشي. أراد تحاشي حساسية بلا داع. هل تحاشاها أم خلقها؟ نادر سيبقى معنا يوما واحدا، ليس أمامي سوى أن أُسقط الموضوع كله كأنني لم أسمع به. كيف؟

على مائدة الغداء، قال نادر:

ـ وجهك شاحب يا ندى.

ـ أسرفت في الأكل ليلا، ولم أنم إلا ساعتين، ثم إننا بدأنا العد التنازلي: تسافر غدا.

ـ لنبقى في اليوم لا غدا.

ـ أنا ونديم سنصنع لك كعكة عيد الميلاد، تُؤكل أو لا تُؤكل، الأعمال بالنيّات.

تدخلت حمدية:

ـ أنا سأصنعها.

قلت:

ـ سأدعوكم جميعا على الغداء في مطعم. لا داعي للكعكة. شكرًا يا حمدية.

الفصل الثالث والعشرون

السيارات الزرقاء

جد علّي جديد، استغربه في نفسي ولا أقلع عنه. أتبع السيارات الزرقاء، ألتقي بها صدفة في الطريق فألاحقها. لم أحك لأحد عن ذلك فقد يثير سلوكي السخرية أو الضحك أو التشكك في سلامة عقلي. ألمحها أمامي على بعد سيارتين أو ثلاث، أو أنتبه لوجودها خلفي إذ أرى انعكاسها في المرآة الأمامية للسيارة أو في المرآة الجانبية عن يساري أو يميني. تلقائيًا أجد نفسي أحرِّك المقود يمينًا أو يسارًا، أسرِّع أو أبطئ قاصدة الحيز المجاور. غالبا ما يعيقني ازدحام الشوارع والميادين، أو يظهر الضوء الأحمر فجأة فيضطرني للتوقف أو يضيء الأخضر فيتعين علي السير قدما، أو تتجاوزني سيارة أو سيارتان فأفشل في اللحاق بها. وأحيانا يفترق الطريق ولا يسمح لي برنامج يومي (أكون في طريقي إلى عملي، أو على موعد لا يمكن التخلّف عنه) بأن أتابعها حتى لا ينتهي بي الأمر في حي لا أقصده، أتوغّل في سكك يستغرقني الخروج منها ما لا أملك من الوقت.

سيارات كبيرة، أزرقها لا يقترب من الأزرق السماوي ولا البحري، أزرق خام لطلاء رخيص علق به التراب حتى صار جزءًا منه، وربما أعيد

الطلاء المرة بعد المرة دون تنظيف أو صنفرة فجاءت طبقة اللون الأخيرة عكرة وغير مستوية. السائق في المقدمة وبجواره رجل أو رجلان، ثلاثتهم من جنود الشرطة. خلفهم الصندوق الحديدي الكبير. له باب من الخلف يفصله عن الشارع درجات. الباب مغلق بمزلاج كبير وأحيانا يضاف إليه قفل، وفي حالات قليلة يقف ولدان ريفيان في زي رث وإن كان رسميًا لمزيد من تأمين الحراسة. وعلى جانبيّ الصندوق، في ثلثه الأعلى أربع طاقات صغيرة متجاورة يفترض أنها نوافذ، لها قضبان من حديد أو يستبدل بالقضبان شبك معدني سميك يضيِّق على من في داخل الصندوق مجرى الهواء وحدود المرئيّ من وراء هذه الطاقات، ويزيد علاقته به تقييدا.

يسمّونها سيارات الترحيلات إذ ينقلون فيها المقبوض عليهم من مكان إلى مكان، من قسم الشرطة مثلا إلى مقر النيابة أو من المحكمة إلى السجن.

حين أتبع سيارة منها يكون هاجسي الأول معرفة إن كان في الصندوق بشر، وإن كانوا يلصقون وجوههم بالشبك المعدني طلبا لنسمة هواء أو شعاع ضوء أو أملاً في رؤية وجه أو شجرة أو باب مدرسة ينفتح فجأة على جمع من الأطفال.

أقترب بما يكفي. أود أن أوقف سيارتي تماما لكي لا يعوقني الانتباه الضروري للقيادة عن التحديق عبر النوافذ المغلقة بالشباك، لعلني أرى وجهًا، أو ألتقي بنظرة عينين أو ابتسامة. ثم يدفعني بوق ملحّ إلى تحويل النظر لأكتشف أنني على وشك الاصطدام بسيارة أمامي أو أن السيارة تنزلق متراجعة توشك أن تصطدم بسيارة خلفي.

نادرًا ما أنجح في محاذاة سيارة الترحيلات. وفي المرات التي أفلحت فيها، مرتين أو ثلاث، خلت أنني أرى وجهًا وراء الطاقة، أتطلع فيه. ويبدو

لي أنه كذلك، يحدِّق فيّ. أبتسم. ثم لا يتيح لي الانتباه للطريق أن أرى رد الابتسامة، ثم تبتعد السيارة، فأمضي في سبيلي.

لم يرد بخاطري وأنا أتأمل هذا الجنون الجديد الذي أصابني أنه كان حدسًا، وأن قلبي كان يستبق الأحداث. قلت جنوني الجديد من مترسِّبات الماضي، ربما بلا وعي مني أتذكر أبي فأتتبع طرقا ربما سار فيها.

لم يرد بخاطري أن السيارة علامة شر قادم، ربما أوشكت للمحة أن أفكر في هذا الاتجاه ثم عدلت لأنني قلت كيف تكون علامة شؤم والجديد هو أنني من يتبع السيارة؟ لا علامة هنا ولا مجال لتطيُّر ولا تفاؤل. سلوك غريب، يمليه ما يمليه من دوافع غامضة، جنون من جنوناتي العابرة، لا أكثر.

لم يمت لي صديق جديد في ليلة رأس السنة، ولا رأيت غرابًا سانحًا باتجاه كلية الهندسة. لم يحدث أي شيء سوى المعتاد. أعني أنني أمضيت الليلة أمام الكمبيوتر، ثم ذوقيًا قبل انتصاف الليل بربع ساعة انتقلت إلى حجرة الجلوس حيث كانت حمدية تشاهد التلفزيون وشاركتها جلستها. فلما دقت الساعة معلنة انتصاف الليل ونهاية عام ٢٠٠٢ قلت لها: كل سنة وأنت طيبة يا حمدية، وقبلتها، وهي قبلتني وقالت: وأنت طيبة. ثم دق التليفون واتصل بنا نادر من دبي، أعقبته مكالمة أخرى من نديم الذي كان يمضي السهرة مع أصدقائه.

ـ ما رأيك في كوب شاي بالنعناع يا حمدية؟

ـ عز الطلب!

أعددت الشاي وطبقا فيه قطعتا كيك وضعت بجوارهما فرعي نعناع أخضر، وفي الزاوية أضفت كبشة من اللوز والزبيب. بدا الطبق جميلا، فابتسمت وحملت الصينية إلى حمدية ووضعتها أمامها قائلة:

- شيف ندى تتمنى لكم ليلة هنيئة وعاما سعيدا!

ضحكت حمدية وقالت:

- لا مثيل لذوقك يا ندى!

- تفاريح ع الماشي في ليلة راس السنة!

تناولنا الشاي معا وأكلنا الحلوى وبدا أن العام الجديد كجلستنا. سيكون هادئًا وعاديًا وربما حلوًا.

لم يحدث.

حمل العام الجديد في أول شهرين منه حمولا من القلق لم تكن سوى إعداد وتمهيد لما يحمله لنا الشهر الثالث.

قال نديم إنه سينتقل للعمل في دبي. ورغم هِمَّته في استكمال أوراقه، ورغم تلقّيه تأشيرة السفر إلى الإمارات وتوقيعه عقد عمل في الشركة نفسها التي يعمل فيها أخوه، لم يبد سعيدا. لم يفصح عما يدور في داخله وإن لم يصعب عليّ قراءة النظرة في عينيه. كان سفره قبولاً بأمر واقع يتطلب ترويضًا للنفس. أراد التخصص في مجال وتخصص فيه، أقبل على الدراسة بجد واهتمام فحصّل معارف أحبها فانفتح باب الخيال على حلمٍ عليه الآن أن يتخلّي عنه، ويرفع وهو دون الثلاثين، راية بيضاء ويقول سلّمت.

وفي الخلفية تدق طبول الحرب، حرب أخرى أكبر من الجميع. نتابع النقاشات في مجلس الأمن، نتابع سيناريوهات الحرب الوشيكة. يقول نديم سيضربون العراق، وأنا أتشبث بإمكانية أن يكون الأمر تهويلاً ومحاولة للترهيب بالكلام. ذاكرة الحرب السابقة حاضرة كأنه لم يمض

عليها أكثر من عشر سنين، الحرب الأولى التي عايشها الولدان. في عام ١٩٨٢ كانا صغيرين، أكثر انشغالا بلعب الكرة ومسلسلات الكرتون ونصف درجة أقل أو أكثر في اختبار مدرسي، أو غُلٍّ من مسابقة فاز فيها فريق البنات على الأولاد. يومها اكتفيت بالقول أن إسرائيل التي هاجمتنا عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ الآن تهاجم لبنان. لم أكن أحبذ أن يتابعا نشرة الأخبار معي، وعند دخول قوات الاحتلال بيروت والمذبحة التي أعقبت الدخول، اختزلت ما حدث في عبارة مقتضبة: تسبب الإسرائيليون في قتل الكثيرين، عندما تكبرون قليلا ستعرفون كم هي شريرة إسرائيل. ولكنني حجبت عنهما الشريط الذي حصلت عليه عن مذابح صبرا وشاتيلا، صور الجثث المنتفخة والذباب. وحجبت الحكاية المفصّلة عن الكتائب والقوات اللبنانية التي ذبحت بالوكالة عن إسرائيل. قلت: طفلان صغيران دون الثامنة لماذا ألوِّث خيالهما بصور الدم، وتعقيدات العلاقة بين قوات غازية يساندها محليون، ومقاومة يتشدد بها بعض أهل البلد ويسعى البعض الآخر للقضاء عليها؟

ولكنهما يوم قصف بغداد الأول عام ١٩٩١ كانا في الثانوية يتابعان نشرات الأخبار في التلفزيون، ويقرآن الصحف اليومية، ويتناقشان في مجريات الأمور مع زملائهما في المدرسة، ويقبلان ويرفضان.

كانت هذه الحرب الوشيكة على العراق الحرب الثانية التي يعيشها نادر ونديم.

قبل الحرب بأربعة أيام، اتصال تليفوني من أحد الزملاء: قال:

ـ ماتت سهام.

كدت أساله من هي سهام؟

صمت طال على ما يبدو لأنه ظن الاتصال انقطع، كرر:

ـ ألو، ألو...

ـ سهام صبري؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ منذ ثلاثة أيام، نعيها في أهرام الأمس.

ـ انتحرت؟

ـ لا أعرف.

ـ أهلها ماذا يقولون؟

ـ يقولون صدمتها سيارة. نريد أن نعد لها تأبينًا، ونريد أن ننشر نعيًا جماعيًا في الجريدة باسم زملائها ونريد....

وضعت السماعة.

عدت إلى جريدة اليوم السابق. كان النعي منشورا في أعلى صفحة الوفيات، يحتل العمود الثالث من اليمين.

رحلت سهام يوم الخميس الثالث عشر من مارس ٢٠٠٣ الموافق العاشر من المحرم عام ١٤٢٤ . صدمتها سيارة في مكان لا يبعد كثيرًا عن بيتها عند مَنْزَل الجسر العلوي في طريق العروبة المؤدي إلى المطار. هل كانت تسير شاردة الذهن وهي تقطع الطريق، مجرد حادث مما تتسبب فيه السيدة فورتونا سالفة الذكر حين تحرك عجلتها صدفة وبعشوائية، أم كانت سهام متعبة لا تعي أنها تعبر طريقًا سريعًا تندفع فيه السيارات بما لا يسهل إيقافها إن فوجئ السائق بامرأة في مجرى الشارع؟ أم اندفعت في طريق السيارة وقد قررت الرحيل في هذا اليوم بالذات؟ هل أرادت أن

يكون رحيلها يوم عاشوراء أم رغبت في هذه اللحظة تحديدًا أن تمضي في صمت لا يلتفت له أحد وسط العنف والصخب، فيتوارى غيابها خلف خوف جماعي من غزو وشيك، أم أنها اختارت أن تستبق الهول بالرحيل لأنها رغم مرضها وألمها، لم تكن قادرة على تحمل الحدث القادم؟

صدمتها سيارة، هذا ما أكده أهلها. كيف ولماذا؟ لا أعرف.

بعد ثلاثة أيام سينطوي خبر رحيلها ويستقر في مكان ما غائر أو غائب أو مطموس فلا أتعثر به أو أراه. بدأ قصف بغداد والهجوم البري على العراق. ثم في العاشرة صباحا اتصال التليفوني: «على بعد شارعين من بيتكم تدور معركة بين الطلاب والأمن. الطلاب يحاولون الوصول إلى السفارة الأمريكية والأمن يحاصرهم ويضربهم. هناك جرحى. سننزل إلى التحرير». محاولة يائسة ومتأخرة للاحتجاج، فليكن. قال نديم إنه سيصحبني إلى الميدان. حاولت حمدية أن تثنيه ثم قررت أن ترافقنا.

بقينا في الميدان من الواحدة ظهرا حتى الحادية عشرة مساء، تركنا الأمن نتظاهر في الميدان، ولم يتدخل إلا عندما حاول البعض الوصول مجددًا إلى السفارتين الإنجليزية والأمريكية في جاردن سيتي. ساعتها دارت معارك حامية بالعصي والغاز المسيل للدموع ورشاشات سيارات المطافئ من جانب الأمن، ومن الأهالي السلاح المعتاد: المتاح من الحجارة. في الحادية عشرة ليلا خف عدد المتظاهرين، وازداد طوق الجنود حول الميدان. عدت إلى البيت مع حمدية وذهب نديم مع عدد من زملائه إلى مقهى في باب اللوق على بعد أمتار من ميدان التحرير. أردت أن أعود إلى البيت لأسمع الأخبار لأنني حتى وأنا أقف في الميدان أو أمشي فيه أو أهتف أو أتحدث مع بعض زملائي القدامى، كان بداخلي فكرة تتكرر بلا انقطاع تقول إن الحدث يتشكل هناك بعيدًا عن مظاهرة من عشرين ألفا أو ثلاثين، مجرد صوت في الهامش، لن يغيّر من الأمر الكثير.

بقيت حتى الفجر أتابع مشاهد المعارك تنقلها القنوات الفضائية نقلاً مباشرًا عبر التلفزيون. استيقظت ظهرًا، كان نديم غادر البيت. قالت حمدية إنه ذهب لأداء صلاة الجمعة في الجامع الأزهر فقدرت أنه ينوي المشاركة في المظاهرة التي تعقب الصلاة.

قالت حمدية:

ـ اليوم عيد الأم، نسي نديم أن يقول لي كل عام وأنت بخير، وكذلك نادر لم يتصل.

كدت أوبّخها على غبائها. لم أفعل. قلت:

ـ كل سنة وأنت طيبة يا حمدية، كل سنة وأنت طيبة ثلاث مرات، مرة مني ومرة عن كل ولد إلى أن يقولاها لك شخصيًا!

صنعت لنفسي كوبا من الشاي ثم جلست أمام التلفزيون. تطلعت إلى ساعتي، عقاربها تقترب من الواحدة والنصف. قمت فجأة كأنني على موعد وارتديت ملابسي. قلت لحمدية: لن أتأخر. ساعة واحدة أو ساعتين على الأكثر وأعود. يكون نديم قد عاد فنتغدى معًا.

سرت إلى شارع القصر العيني ومنه اتجهت إلى ميدان التحرير. كان الميدان هادئا تنساب فيه السيارات كالمعتاد وإن جدّ عليه أعداد إضافية من سيارات الأمن. انعطفت يمينا في شارع التحرير قاصدة ميدان باب اللوق ثم دخلت يسارا في اتجاه ميدان طلعت حرب. ما إن وصلت شارع صبري أبو علم حتى انتبهت إلى أن طوقا كثيفا من الجنود يحول دون الوصول إلى الميدان. كنت أسمع ولا أرى مظاهرة كبيرة في شارع قصر النيل آتية على ما يبدو من ناحية العتبة وميدان الأوبرا. هتافات عالية. أحاول الاقتراب فيطالبني الجنود بالابتعاد. انتحيت جانبًا من الرصيف مع جمع من المارة كانوا هم أيضا منشغلين بأمر المظاهرة وغزو العراق.

اتجهت المظاهرة إلى التحرير من جهة شارع محمود بسيوني أو شارع قصر النيل. فك الأمن الحصار وسمح لنا بالمرور باتجاه الميدان. كان الشارعان اللذان قدّرت أن المظاهرة مرت منهما أو من واحد منهما ما زالا مغلقين. بلغت الميدان ثم انعطفت يسارا إلى شارع طلعت حرب. على باب مقهى ريش رأيت زميلاً من زملاء أبي على كرسي متحرك وزوجته تقف بجواره. سلمت عليهما. ابتسمت لي المرأة وبكى الرجل. ربما كان يبكي قبل أن يراني. كان آخرون يقفون بجواره على الرصيف ثم جاء ضابط وأمر الجميع بالانصراف. قال: الوقوف هنا ممنوع. جرّت السيدة كرسي زوجها المتحرك ومضيت أنا باتجاه التحرير. قبل أن أصل إلى التقاطع التالي، تقاطع شارع البستان بشارع طلعت حرب، رأيت صفا من سيارات الأمن على الجانب المقابل لمقر الحزب الناصري وانتبهت إلى أن الأرض مبللة بماء كثير، وبها آثار حجارة صغيرة وكبيرة ومفتتة. ثم رأيت الكلاب، كلابًا كبيرة، مع كل كلب منها حارس خاص يمسك بزمامه بسلسلة من حديد. واصلت باتجاه الميدان فوجدت الطريق إليه مغلقا بطوق من الخوذ والهراوات. عدت أدراجي إلى شارع البستان. تبدو عليه آثار المعركة: الحجارة على الأرض والماء. تتسارع ضربات قلبي بشكل غريب. أستند إلى إحدى السيارات. آخذ نفسًا عميقًا ثم أحاول أن أتنفس بانتظام. فجأة أقول حدث مكروه لنديم. بدأت أركض.

كيف ركضت وكنت قبلها بلحظات أشعر أنني أسوف أسقط مغشيًا علي؟ كيف لم أنتبه أن أيًا من الضباط كان بإمكانه اعتبار ركضي علامة أنني متظاهرة مطلوب القبض عليها، ثم أي طريق سلكت إلى البيت من ميدان باب اللوق؟ شارع الفلكي أم شارع منصور أو توغلت باتجاه شارع نوبار وسلكت طريقا ملتفًا أوصلني إلى شارع القصر العيني ومنه إلى البيت.

ـ أين نديم؟

قالت حمدية:

-لم يقل إنه سيتناول غداءه مع أصحابه. تأخر!

حتى التاسعة مساء لم يظهر نديم فبدأت الاتصال بمن أعرف من أصحابه. قال البعض لم نره منذ أيام، قال البعض: كنا معا بعد خروج المظاهرة من الجامع الأزهر. كانت مظاهرة كبيرة لم يستطع الأمن تفريقها إلا عندما اطلقوا علينا كلاب الشرطة وأنزلوا القوات الخاصة. صرنا نركض، وتوزعنا في الزواريب والحارات ثم عدنا واجتمعنا. حين انتقلنا من شارع الأزهر إلى ميدان العتبة ومنها إلى وسط البلد لم نره، ولا عندما وصلنا ميدان التحرير. كان الحشد كبيرا وقلنا إنه لا بد في جهة أخرى من الميدان.

اتصلت بزملائي ممن قد يكون لديهم أخبار عن اعتقالات أو إصابات. لا أخبار بعد.

لا تكف حمدية عن البكاء. تقول: ربما ضربوه في المظاهرة فسقط فداسته الأقدام، تقول: ربما أصيب فنقلته الشرطة إلى المستشفى. تقول: علينا أن نسأل في المستشفيات. تقول نتصل بنادر لكي يأتي ويبحث عن أخيه، تقول... وأنا أصيح فيها وأطلب منها أن تسكت كي أتمكن من مواصلة مكالماتي والاستفسار.

لم تهدأ. قررت أن تذهب للبحث عنه. خرجت معها وأنا أتمتم أنها امرأة لا تُحتمل. مررنا بالمستشفيات بدءًا بمستشفى الإسعاف وانتهاء بالقصر العيني. دخلنا أول مستشفى فسارعت حمدية بالسؤال عن الشباب الجرحى الذين ضربهم الأمن في المظاهرات. جذبتها من ذراعها بقوة وهمست في أذنها: لن يقدموا لك إجابة على هذا السؤال. نسأل عن شاب جاءهم في قسم الحوادث مصابًا أو مجروحًا. نقدم الاسم والوصف. بحثنا

في أقسام الحوادث من مستشفى إلى مستشفى في الأزهر والعتبة ورمسيس ثم انتقلنا إلى القصر العيني.

قلت لحمدية ونحن ندخل البيت: لم تكن فكرتك صائبة يا حمدية. كانت تواصل البكاء.

عدت للاتصال بمن أتصور أن لديه معلومات. بعدها لم يعد أمامنا سوى الانتظار. أعددت كوبين من الشاي وفتحت التلفزيون لأشاهد ما جد من أخبار. قرب الظهر رن التليفون واتصل بي زميل ممن سبق أن اتصلت بهم. قال: نديم من الشباب المقبوض عليهم. أرسلنا عددا من المحامين إلى الأقسام لمعرفة مكان كل. يقال إنهم قد يعرضون على النيابة ظهر الغد. سأتأكد وأخبرك. سنبقى على اتصال.

نقلت الكلام لحمدية.

آخر ما توقعت. لم يكن خيالي ليصل أبدا إلى المشهد الذي أعقب المكالمة. ازداد وجه حمدية المحتقن من أثر البكاء، احتقانًا، وراحت تصرخ في: أنت السبب. هذه هي نتيجة كلامك مع الأولاد في السياسة وزنّك في آذانهم. خربت البيت وضيّعت نديم. ما إن يعود بالسلامة ويسافر إلى دبي انتقل للإقامة مع أختي. وكل منا تذهب في طريق. تتمخط وتبكي وتواصل كلامها الغريب. ولا أدري إن كان على أن أصفعها على وجهها أم أصيح فيها كما تصيح أم أترك لها البيت؟

تجاهلت ما تقول. رفعت صوت التلفزيون ورحت أتابع المؤتمر الصحفي الأول لتومي فرانكس قائد العمليات: يقول: «هذه حملة واسعة النطاق، لم يسبق لها مثيل، تتميز بالصدمة والمفاجأة والمرونة وإعمال قوة كاسحة. جنودنا يؤدون واجبهم بشكل رائع». رتل من المدرعات يقطع الصحراء. كرات هائلة من اللهب على خلفية من الدخان والنخيل. جنود

أمريكيون على متن بارجة هائلة الحجم، يهللون مع إطلاق أول قذيفة من قذائف التوما هوك. توني بلير يعلن: «شعب مقموع مقهور. سنحمل له الديمقراطية والرخاء. وسنحافظ له على آبار النفط ومصافيه».

ظهر اليوم التالي لم نتمكن من رؤية نديم ولا أي من زملائه الذين نقلتهم سيارات الترحيلات إلى مبنى محكمة أمن الدولة، رغم أنني وحمدية وسوانا من أهالي المعتقلين كنا بكرنا في الذهاب إلى المحكمة وقضينا ساعتين ننتظر على الرصيف المقابل للمحكمة. وصلت السيارات الزرقاء ثم اصطفت بحيث تواجه مؤخراتها الباب الذي سيدخل منه الأولاد فيغادرون السيارة ويدخلون المبنى دون أن يراهم الواقفون في الشارع.

ساعتها تذكرت فعرفت أنني بالحدس كنت أستبق اللحظة وأنا ألاحق سيارات الترحيلات منذ شهور. حدثني قلبي. كنت أتتبع السيارة وأحدق عبر الطاقة وغطاءها الشبكي السميك لعلني ألمح وجه نديم أو لعله يرى وجهي وأنا أبتسم له.

سُمح للأهالي بدخول المبنى والانتظار في غرفة المحامين. رأينا الأولاد وهم يصعدون للطابق العلوي للتحقيق، ثم رأيناهم ثانية وهم ينزلون باتجاه السيارات. ثم سمحوا لنا بالوقوف بالقرب من السيارات فلوّحنا لهم مودعين، هم أيضا لوّحوا، كل واحد منهم لوّح برفع يديه معا. كانتا مقيدتين معا بطوق الحديد.

حين أفرج عن نديم وزملائه كانت بغداد سقطت واحتل الأمريكيون والإنجليز العراق. بعدها بأسبوعين سافر نديم إلى الإمارات للعمل في دبي واللحاق بأخيه. سافر ظهر الثلاثاء. ونفّذت حمدية ما كانت أعلنت عنه وهي تصيح وتبكي كالمجانين، يوم عيد الأم الحزين. لمّت أغراضها

وانتقلت للإقامة عند أختها. مساء الخميس ارتديت ملابسي وتوجهت إلى مركز الجيل في عين الصيرة لأحضر تأبينًا متأخرًا رُتِّب من أجل سهام.

كانت القاعة مكتظة بزملائها ومعارفها الكُثر ممن شاركوا في الحركة الطلابية، من كلية الهندسة، من الكليات الأخرى، من زملائها في فترة دراستها في الاتحاد السوفييتي، وآخرين التقوا بها في وقت أو آخر فتركت في نفوسهم ما دفعهم رغم مرور السنين واختفائها الطويل، أن يأتوا لأداء تحية أخيرة. ولأن الحياة عمومًا أو في بلادنا، تجمع المضحك بالحزين وتخلط الجليل بمفارقات الهزل والعجب، دخل القاعة جمع من كهول، على سيمائهم ما لا يصعب التقاطه من علامات الحياة في ظروف مرهقة وصعبة. وبلا حرج عرّفوا بأنفسهم: كانوا من الطلبة الذين دفعتهم الحكومة في السبعينيات للتحرش بزملائهم، وكان بعضهم شارك في الواقعة المشهودة في كلية الهندسة يوم أحاطوا بسهام بالعصي وسبوها وقالوا اخرجي بره، ولا تتكلمي في هذه الكلية... فجلست على الأرض وقالت «هذه كليتي ولن أغادرها. وسأتكلم فيها متى أردت. تريدون ضربي، اضربوا».

استعادوا الحكاية وترحّموا عليها، وقالوا إنها كانت شجاعة وتدعو إلى الاحترام. وبدا واضحا على وجوههم أنهم كانوا صادقين في تأثرهم لرحيلها.

الفصل الرابع والعشرون

سهام

في الصفحة الأولى من الكتاب صورتها. الأرجح أنها صورة لها وهي بعد في الصف الأول الثانوي. تلبس ثوبا أقرب لزي المدرسة: أزرار أمامية وياقة مدورة من تلك الياقات المعروفة باسم «كول بِبيه» ربما لارتباطها بملابس الأطفال. شعرها ناعم كثيف وطويل، مفروق من النصف ينزل إلى الكتفين ولكنه لا يغطي لا الجبين ولا الأذنين. بشرتها بيضاء وعيناها فاتحتان (الصورة بالأبيض والأسود لا يظهر فيها أخضر العينين). وجه مستطيل وجبهة عريضة، أنف صغير وشفتان فيهما بعض امتلاء، في الوجه ملاحة وعذوبة أو براءة أو هشاشة تتوارى خلف جدية واضحة وهدوء ظاهر. وربما في الوجه شيء من الحزن قد يشي به انكسار طفيف في العين اليمنى، إن لم تتمعن في الصورة فلن تراه. في الأذنين حلق مدور، ذهبي أو فضي؟ لا يتيح الأبيض والأسود في الصورة تحديد ذلك. طفلة وبنت ومشروع امرأة اجتمعت في الصورة ذاتها.

فوق الصورة اسمها، يليه: «زهرة الحركة الطلابية»، وفي السطر الثالث عبارة: «جيل السبعينيات».

تحت الصورة بخط دقيق هشّ (الخط المرتبك الرديء لأمثالي ممن تعلموا في المدارس الفرنسية، ولم يلحقوا بمدرّسي الخط ولا التدريب الصارم على جماليات كتابة الحرف العربي): «لا يمكن أن يكون الحب أعمى لأنه هو الذي يجعلنا نبصر»، (عبارة كتبتها عام ٦٦ وهي طالبة في المرحلة الثانوية).

يضم الكتاب شهادة لأخيها ولبعض قادة الحركة الطلابية وزميلات لها-شاركنها الحياة في الزنزانة ثم ينتهي بملحق يضم مقاطع من كتابات لها وهي في الخامسة عشرة من عمرها، ونصوصا متأخرة وبعض آيات قرآنية نقلتها بعناية، منها تحت عنوان: «الله» قائمة باثنتين وعشرين من صفاته كما وردت في القرآن، تبدأ بالرحمن الرحيم وتنتهي «بل الله مولاكم وهو خير نصير» تتبعها في الختام «والله عليم بذات الصدور». ومنها مقطوعة ترى فيها العالم جبلا يتسلقه كل الناس ويركل كل منهم من هو أدنى منه يحول بينه وبين الصعود، وتنهيها بـ «أين الرحمة وأين المحبة؟» يليها اقتباس من السيد المسيح: «طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض» وفي مقطوعة أخرى تكتب: «أعط الحب مقابل الكراهية كن أنت نقطة نور» و«من لطمك ابتسم له وأعطه وردة وهكذا تكون جنديا في الحرب الحقيقية الوحيدة وتنتصر لأنه هو قد انتصر فقال: اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يعلمون ما يفعلون، وأين قالها!؟!!».

وفي الملحق مقطوعتان مكتوبتان في ٢٠٠٢ قبل عام بالتمام من وفاتها، أولهما مؤرخة بيوم ١٤ مارس تحيي فيها الذكرى العشرين لقرارها قطع دراستها العليا في الاتحاد السوفييتي: «الخطوة التي أقدمتُ عليها بشجاعة تطاول السماء ولا تهبها إلا السماء» «قرار أعيده لو عادت الأيام. انتصار الروح على الجسد، انتصار النور على الظلام». «ومن يومها ورغم كل الأعاصير ما زلت أصعد درجات السلم الروحي... عشرون عاما

من الكفاح الحقيقي، الكفاح في الله». «يا رب قُد مَركبي إلى البرّ الذي يتباعد».

وفي الثانية التاريخ (الثلاثاء ٢٦ مارس) مكتوب بالفرنسية، تعقبه عبارة بالإنجليزية ترجمتها: «ليست كلمة الحرية إلا مرادفًا لأن الإنسان لم يعد لديه ما يخسره»، وبعدها بالعربية: «ليس المهم أن يكون الإنسان ماركسيا أو مسلما أو بوذيا أو مسيحيا ولكن المهم أن يكون ماركسيا شريفا أو مسلما شريفا أو مسيحيا حقا». ثم تتحدث عن درج صاعد أبدا نبحث عنه ليل نهار، «في المظاهرات صباحا وفي القراءة مساء وفي البحث المتأمل طول الوقت» ثم تختم «ومن درج إلى درج قادني الله إلى الصعود إلى صورته المباشرة» ثم في السطر التالي، منفردة بالسطر، كلمة: «الساطعة».

يقول أخوها:

- كانت تقرأ كثيرًا وتكتب كثيرًا، طوال السنوات كانت تكتب دائما وبلا انقطاع. لا تغادر البيت. تقرأ وتكتب. وليس لدينا سوى أوراق متناثرة أو كراسات لا تحمل صفحاتها غالبا تتابعا منطقيا. لم تترك سوى عدد من الكراسات. أمر غريب لأنها كانت تكتب طوال الوقت، وعلى مدى سنوات. لا أعرف أين ذهبت الأوراق؟ هل تخلّصت منها بحرقها، هل كانت تمزقها أم كانت تلقيها من الشرفة كما درجت على إلقاء أشياء أخرى؟

- نعم في فترة كانت تلقي أشياءها من الشرفة. لا تريد امتلاك شيء، أي شيء، تلقي الملابس، المقتنيات، والحلي، مما يثير مشاكل مع الوالدة.

- أحيانا كانت تفرط في الطعام، تأكل بشكل غير عادي. يزيد وزنها بشكل لافت. وأحيانا تُضرب عن الطعام، تصوم لأيام متصلة.

ـ واقعة حديقة الحيوان؟ لم تكن تلك هي المرحلة الأسوأ، حتى وإن رأى فيها الوالدان محض جنون. كانت بعدُ قادرة على صنع أشياء جميلة وراغبة في ذلك، تكتب أبياتا من الشعر على جدران غرفتها، وتطرز لوحات. كانت ماهرة في التطريز وفي صنع ألعاب للصغار بالورق المقوّى وبغيرها. قررت أن تحمل بالونات ملونة وتقف بباب حديقة الحيوان لتوزعها على الأطفال. حكت عن رجال الشرطة الذين يطلبون رشوة في مقابل وقوفها مع الباعة المتجولين بالقرب من الحديقة. كانت بعد قادرة على أن تحكي وتنتقد وتعلّق ساخرة.

بعدها جاء الصمت.

ـ لم تكن ترغب في الكلام. تصمت تماما، لعام كامل، تتمترس في الصمت، ترفض أن تكلم أيًّا منا.

ـ قبل الصمت، كانت تتحدث بما يشي باقترابها من حالة تصوف إسلامي، وأحيانا ينم الكلام عن قرب من المسيحية وأحيانا عكس ذلك كله.

ـ لا، لم تدخل ديرا كما تردد.

ـ نعم، حاولت الانتحار أكثر من مرة. حاولت القفز من الشرفة فرآها الجيران وتم إنقاذها. في باريس أثناء إقامتها مع الوالدة ابتلعت دواء كثيرًا ثم غادرت البيت فسقطت في الشارع وتم نقلها إلى المستشفى. ثم حاولت مرة أخرى وكانت في المستشفى بعد عملية بسيطة في قدمها. قرأت في مجلة ما عن مسدسات رش، تسللت من المستشفى واشترت المسدس وحاولت الانتحار.

ـ حجبنا عنها خبر انتحار أروى. خفنا من أثر الخبر عليها. ثم علمت...

ـ لسنوات كنا نحملها إلى المستشفى. تعالج. يمنحها العلاج توهّجا سرعان ما يخبو، فتدخل المستشفى. تتحسن ويقول الطبيب: لا داع لبقائها. نعود إلى البيت، أياما أو أسابيع ثم تعود. نعم، ازداد وزنها بشكل لافت. ترفض تناول الدواء. تتخلص منه. تضرب عن أي كلام. تضرب عن الطعام، وتكتب.

ـ لا أعتقد أنها انتحرت. صدمتها سيارة عابرة. الأرجح أنها كانت غائبة تماما عما حولها. غائبة ربما عن كونها تسير في طريق عام فيه سيارات مسرعة.

رحلت سهام يوم الثالث عشر من مارس سنة ٢٠٠٣. قبل أسبوع واحد من غزو العراق. هل كانت تتابع الأخبار؟ هل كانت تعرف أي شيء عن البوارج التي تقترب وحشد الجنود والعتاد؟ هل قررت الرحيل لكي لا ترى ما رأته قادما؟ هل قررت الرحيل أم راحت في حادث سير؟ هل قال أخوها كل ما لديه؟

آخر المتوفر عندي من كتاباتها يعود إلى العام السابق لرحيلها. بتاريخ ٢٦ مارس ٢٠٠٢ كتبت عن شعور يراودها بكتابة كتاب تحكي فيه قصة حياتها، تصفه بأنه «كتاب هام فيه عبرة»، ولكنها تستدرك بأنها لا تريد النشر، «لا أحب أبدا أن أنشر» «ولكن»، تواصل سهام بخطها الدقيق الهش:

من المهم تسجيل قصة كفاحي

فهل أدون منها لمحات أو فصولا في مذكراتي

ولكن هذه حكاية طويلة ومتشعبة ثم

عموما أتركها للظروف

ولكن المؤكد أبدا
لن أنشر كل شيء
فهذا ليس لي.

وفي نص آخر تكتب:
يا رب أنا لا أطلب سوى الشهادة
فخذ روحي صباح غد
قبل أن تنفتح عيناي على صباح آخر
طلبت الشهادة حتى صمت عن الماء والطعام لمدة ثمانية أيام
وأقل وأكثر
مقاومة لا تعرف إلا الشريفة الطاهرة وحشيتها
طلبت الشهادة في سبيل الحق
والآن لا أجدها
وخلصني يا إلهي
لأن آلاما قد غرست على آلام
على آلام
وأبكي كثيرًا جدًا وأنت تعلم.

صدمتها سيارة يوم الثالث عشر من مارس الموافق العاشر من محرم.
صدفة أم قرار؟ لا أدري.

الفصل الخامس والعشرون

سجن العمر، زهرة العمر

في محطة مصر يفاجئني الصخب والفوضى والتلوُّث والزحام. أتوقف عند كشك من أكشاك الكتب والجرائد، أتطلع إلى الكتب المعروضة. أمدّ يدي إلى طبعة قديمة من كتابين لتوفيق الحكيم، غلافهما باهت حال لونه، «زهرة العمر» و«سجن العمر». أقلب فيهما ثم أعيدهما إلى مكانهما، أشتري بعض الجرائد والمجلات أضعها في الجيب الخارجي لحقيبة سفر صغيرة لها عجل، أجرّها خلفي وأتجاوز أرصفة قطارات الإسكندرية ومدن الدلتا وشرقها إلى أرصفة قطارات الصعيد. أنتظر القطار. أرى امرأة جميلة عذبة تسير بهِمّة، تتشبث بيدها صغيرة لها ذيل حصان. تمشي بجوارهما امرأة بدينة تحمل وليدًا ملفلفًا في الأقمطة. يبتسم للبنت كهل كبير له شارب كثيف وشعر أبيض، فتنتظر البنت حتى تنشغل عنها أمها لتُطلع له لسانها. يقترب القطار. يتوقف. أصعد وأبحث عن رقم مقعدي بجوار النافذة وأستقر فيه. يتحرك القطار ببطء ثم ينطلق بسرعة وإيقاع رتيب. أتابع من النافذة المباني المتهالكة ومقالب القمامة وغياب الألوان سوى الباهت والترابيّ والأصفر. يشق القطار طريقه في غيمة من غبار. ثم نتجاوز قرى الجيزة وندخل في الحقول. من قال لي ذات مرة أن العين

أيضا تحتاج، اقتصر على تلك العبارة المبهمة ولكنني فهمت. كنا على ما أذكر، على أطراف المدينة نقترب من دهشور، تلاقينا غابات النخيل ولون السعف المُحيَّر بين الأخضر الصريح وفضة كتومة مراوغة. والنخل مثمر يتداخل أصفر عراجينه بأحمر منمنم وكثير. نعم، العين تحتاج. لا أرى من النافذة الآن نخلاً بل امتداد الحقول مقسّمة مستطيلات ومربعات في كل منها ما خصّه به زارعُه من نبات. أضحك فجأة فيتوقف لي عامل المقصف، يظن أنني أطلبه بضحكتي. لم أكن أفكر في طلب كوب من الشاي. أطلب كوبًا من الشاي. يصب الماء المغلي على كيس الشاي ويحرك المعلقة ليذيب السكر ويسلمني الكوب، فأعود أبتسم وأنا أتابع الصغيرة مع أمها في القطار. وبين رشفة أولى ورشفة ثانية من الكوب ينتقل الخيال إلى نادر ونديم. ضحك نادر وبكى نديم. كان نديم بلّل ثيابه، قال: أريد الذهاب إلى الحم... لم يتمّ الجملة. بلّل مقعدته وأخذ البول ينسال خيطا رفيعا من ذيل بنطلونه. قبل أن تفتح حمدية فمها لتوبّخه، أمسكت بيدها وضغطْتُ، فَهِمَت. وبّختُ نادر على الضحك وقلت لأخيه: هذا يحدث لنا جميعا، بنا نغتسل ونرتدي البنطلون الجديد. حملته على صدري إلى حمام القطار. لازمتني رائحة المتبقى من بول الصغير على ثوبي طوال الرحلة. كنت غسلت يدّي ورقبتي ولم يكن بإمكاني أن أعيد الكرة وأخلع ثوبي وأخرج من الحمام بملابسي الداخلية. وحين استقبلتني عمتي بالأحضان رحت أضحك بصوت عال. همست في أذنها: «عمتي لازم تغيَّري ثوبك وتتحممي قبل أن تصلي صلاة العصر. صدر ثوبي منقوع ببول نديم!» أضحك مرة أخرى، وللمرة الثانية يتوقف عامل المقصف. لا بد أن أفهِّمه أنني حين أريد أن أستوقف شخصا أناديه كباقي خلق الله. أومئ له برأسي وأقول: شكرًا لا أريد شيئا. أخرج الجرائد من جيب الحقيبة. أبتلع حصتي اليومية من السم، لا بد من الاعتراف بأن لي

معدة قوية، قادرة. انتقل بسرعة من جريدة إلى جريدة ثم أفتح مجلة أقرأ فيها ربع مقال هنا وسطور من مقال هناك. أطوي الجرائد والمجلات، أضعها تحت المقعد. لا أفسد البيئة، سيجمعونها مع القمامة وهم ينظِّفون القطار، لا بد أنهم من حين إلى حين، ينظِّفون القطار! أغمض عيني. ذهب الولدان للعمل في دبي. في القاهرة أو في دبي. ما الفرق؟ فرق المرتب وسهولة نسبيّة في تفاصيل الحياة. ولكن الآلة هي الآلة. هل كان فوكو من قال أم كان اقتباسا أورده في كتابه حيث عرّف السجن بإطلاق قدرة النظام على التصرف في حرية الشخص ووقته، كل يوم، يومًا بعد يوم وسنةً بعد سنة. يقرر له متى يصحو ومتى ينام، متى يعمل ومتى يأكل ومتى يستريح، ومتى يتكلم ومتى يسكت، يحدِّد له طبيعة العمل والكم المطلوب إنتاجه. يُملي عليه حركات جسده، يمتلك طاقاته المادية والمعنوية. السجن هو نفسه وإن اختلف. هنا أو هناك لا فرق. أغمض عينيّ. أبقى عينيّ مغلقتين أقول لعلي أغفو. ربما غفوت. أنظر في الساعة، بين إغلاق عينيّ وفتحهما مرّت خمس دقائق. طريقي طويل. أنتبه إلى سيدتين جالستين في الجهة المقابلة إلى يساري عبر الممر. إحداهما ترتدي ثوبا داكن اللون ينسدل على صدر مسطح وجذع مستطيل، نحيلة متخشِّبة صارمة الوجه، شدّت شعرها شدًّا إلى الخلف. والثانية ممتلئة وبشوشة واضحة الاستدارات، ترتدي ثوبا منقوشا وملونا، وتترك شعرها يحيط بوجهها متموّجا في حلقات. هل هما شقيقتان؟ ابتسم للفكرة الهوجاء وأواصلها: ربما هما توأم. استرق النظر إليهما فأوقن أنه يصعب تحديد عمر أي منهما، كأنهما أزليتان. شيء ما في جلستهما، يجعلهما أقرب لتمثالين، غريب، تمثالان مستتبان على مقعدين متلاصقين في قطار سريع. تنظر النحيلة أمامها كأنها تحدِّق في فراغ، أو كأنها عمياء لا ترى، أما المدوّرة فتشمل نظرتها المكان. لوهلة يبدو كأنهما غريبتان تصادف ركوبهما القطار معا، ثم فجأة

تميلان في اللحظة نفسها، ميلا طفيفًا بجذعيهما وتتهامسان طويلا كأنهما تتواطآن على أمر ما. أتطلع إلى الصارمة فتسري قشعريرة خوف في جسدي. أحوّل النظر إلى الثانية فأستريح لوجهها الطيب واستداراتها الأمومية. أتطلع من النافذة إلى مشهد الحقول فيلتبس على الأمر وتختلط صورتاهما وأتمتم: لا خوف ولا يحزنون، مجرد امرأتين تصادف أن رأيتهما في قطار. قلت ستلازمني المرأتان طوال الرحلة. قلت لقلبي حدسه فما الذي يحدس به تجاه المرأتين؟ أصرف النظر عن الاثنتين وأعود إلى نادر ونديم. أشتاق لهما، تربكني فكرة إقامتهما بعيدًا، خاصة نديم. ألن يتاح له أبدا أن يصبح ما يريد؟ حمدية سخيفة وغبية ولكنها طيبة، ستروق وتهدأ وتعود المياه إلى مجاريها وربما يعود الولدان، يتزوجان ثم يأتي الأحفاد. أضحك واسترق النظر إلى الممر. الحمد لله عامل المقصف ليس في هذه العربة الآن. نادرة كان يمكن أن تُضحك حازم يوما بطوله. كنت سأحكي له عن المرأتين. أقول له بدتا كربة للقدر انشقت اثنتين. سيسخر مني كما سخر يوم حدثته عن الغراب. قال أنا طالب في السعيدية، هربت من المدرسة لأشارك في الاعتصام، ولم يضحك. وببلاهة صدّقته وهو طالب في بكالوريوس طب، مسئول عن أمه وثلاثة من إخوته، يكبرني بخمسة أعوام. أخذ عليه شاذلي أنه يريد أن يكون طبيبًا ناجحًا، فما البديل الذي كان يقترحه شاذلي، أن يكون جرّاحا خائبا يخرج الناس من تحت يديه قتلى ومعوّقين؟! يرفرف قلبي حين أسمع أحدا يذكر حازم ويقول جرّاح فذ أو علّمني، أو ساعدني أو...، لا أسمع عنه إلا الخير ودعوات صادقة بالرحمة. وشاذلي؟ مصادفة غريبة. لقاء على غير توقع في براغ. قال إنه يعمل في السياحة. «ما الذي تعمله في السياحة؟» كان سعيدا بنفسه، يركب سيارة فخمة ويرتدي ملابس باذخة. ربما أراد أن يبهرني بثرائه المستجد، وربما تصور أنني سأندم على

عدم مرافقتي له في مسيرته الظافرة. أفلتّ. يا إلهي كيف أفلتّ. لماذا لا ننسب للسيدة فورتونا سوى المصائب؟ لما لا نعطيها حقها، حين بحركة واحدة تنقذنا من دق أعناقنا؟ لا مكان لفورتونا هنا، شيء من العقل، من الرشاد، من الحدس، من ذكاء القلب. أخذت ذيلي في أسناني وجريت بالمشوار. كان يمكن لأروى أن تركض، فلماذا لم تفعل؟ خانتها الساقان. مرضت فكيف تركض؟ ربما تأثرت بكلام ذلك المفكر الفرنسي الذي رأى في الانتحار إحرازًا لنصر شخصي عظيم، حدثا أشبه بمسرحية كبيرة بلا جمهور. أرادته أروى دراميًا وفاجعًا وعلى مشهد من الجمهور. وسهام؟ انسحبت إلى غرفتها، غرفة صغيرة متران ونصف في مترين ونصف، سجن انفرادي قضت فيه عشرين عاما. تتأمل. تتعذب. تعيد النظر. تبحث عن الخلاص مرة في «ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»، ومرة في «اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يعلمون ما يفعلون»، تذهب وتعود ثم تذهب وتعود ثم يرهقها البحث وتسلِّم للتعب، فتمضي في هدوء. كثيرًا ما أجد على شفتيّ عبارة: سامحينا يا سهام. قلت لأمي وأنا أقف على قبرها سامحيني. تركتُها تموت وحدها في البعيد. أغمض عينيّ فأراها في المظاهرة الكبيرة في يوم الثالث عشر من مايو عام ٦٨، تسير بين رجال ونساء تتشابك أيديهم ويتقدمون في صف بعرض الشارع، وصفوف تمتد طولاً من ميدان الجمهورية إلى الحي اللاتيني. ما زلت لا أفهم لماذا قال أبي إنها فوضوية ولماذا انفصلا وهي امرأة جميلة وهو رجل جميل. أرى بنتا في الثالثة من عمرها تُلحّ عليهما أن يمرجحاها، تمسكها أمها من قدميها وأبوها من تحت إبطيها فتمتد بينهما كالجسر، ويمرجحان. تضحك البنت، تضحك عاليًا وطويلاً، وعندما يتوقفان وينزلانها إلى الأرض، تقول: كمان. تدخل عليهما عائدة من المدرسة، بنت كبيرة الآن في المرحلة الإعدادية، تطلعهما على كراسة الإنشاء

والدرجة النهائية التي حصلت عليها. والأهم كلام المدرسة: لم أعط أبدا الدرجة النهائية في موضوع تعبير. هذه أول مرة، فازت بها ندى. يقتضي الزهو الضحك ويملي الحياء سواه. تكتفي البنت بالابتسام. أتطلع إلى المرأتين الجالستين في المقابل عبر الممر. تتبادلان الكلام همسًا، ترى ما الذي تقولان؟ أعود أختلس النظر إليهما فأنتبه أن كِلاً منهما أخرجت من حقيبتها في اللحظة نفسها كرة من خيوط الصوف. كرة الصارمة رمادية داكنة، والبشوشة كرتها زرقاء، أزرقها محيَّر بين السماوي ولون البحر. ثم ظهر زوجان من إبر التريكو في كل زوج منهما مشغول الصوف الذي أُنجز، استقر على حجريهما، وبسرعة وآلية راحتا تحركان سواعدهما وأيديهما فيتحرك زوج الإبر وهما تشتغلان. أتطلع إلى الساعة. أتطلع من النافذة. أخرج من حقيبتي كتابا بالفرنسية كنت بدأت قراءته قبل يومين، سجل فيه كاتبه تجربته في معتقل تازمامرت، جنوب الصحراء المغربية. كان في المعتقل ثمانية وخمسون من الضباط وصف الضباط المغاربة، سجنوا بتهمة محاولة انقلاب ضد الملك. لم يغادر السجن عند الإفراج عنهم بعد ثمانية عشر عاما من السجن الانفرادي لكل، إلا ثمانية وعشرون. مات في تازمامرت ثلاثون معتقلا. ماتوا من التعذيب والجوع والمرض والجنون. بعضهم مات بعد مرضٍ مُقْعِد في زنزانة انفرادية لا يجد فيها من يعينه على الطعام أو قضاء حاجته أو الاغتسال. كنت توقفت عند الفصل الذي يحكي فيه أحمد مرزوقي مؤلف الكتاب والمعتقل السابق في تازمامرت، عن الملازم شمسي الذي بات بعد سنوات من الاعتقال يضرب رأسه في القضبان وهو ينادي باسم ابنته وأمه، وظل ينادي حتى مات. أفتح الكتاب على الصفحة التي توقفت عندها. لا أجد في نفسي الرغبة في القراءة. أقول: أنا ذاهبة إلى عمتي. أغلق الكتاب وأعيده إلى الحقيبة. أرى عمتي تفتح ذراعيها على اتساعهما وتضمّني.

أقبّل رأسها. أقول سأبقى معك أسبوعين يا عمتي. أتطلع في الساعة. أختلس النظر إلى المرأتين المنهمكتين الآن تماما في شغل الصوف، لا تتبادلان الكلام، لا تنظران إلى الصوف بين يديهما، تواصلان الشغل فيه. وجه الصارمة ثابت وجامد كأنه وجه بلا عينين ولا أذنين، ووجه الممتلئة مِنبسط ويفيض بنظرة عطوفة كأنها تنصت باهتمام لشخص ما يحكى لها حكاية مؤثِّرة. أعود أتطلع في الساعة. أتمتم: على وشك الوصول.

فصل الختام

فرج

يحدثنا نزيل الزنزانة رقم ١٠ في سجن تزمامارت عن يوم مشهود عاشه سجناء المبنى رقم ٢ بالسجن، وقلب حياتهم رأسًا على عقب.

قبل ذلك اليوم ببضعة شهور، نزل السجن سرب من الحمام البري بني له أعشاشا في السقف. استقبل السجناء الحدث بمشاعر متضاربة. تشاءم البعض وأكد أن الحمام البريّ لا يسكن سوى المقابر والأطلال والأماكن المهجورة، وأشار إلى معتقد شعبي مفاده أن الحمام يحمل الموت في أذياله. وتوجس البعض الآخر من أن تجذب أفراخ الحمام الثعابين. وتفاءل آخرون وذكّروا زملاءهم بحمامة نوح وغصن الزيتون والبشارة.

ثم كان يوم الثاني من أغسطس حين سمع السجناء صوت شيء يسقط من السقف. من احتفظ بقدرته على الحركة والمشي، اقترب من باب زنزانته وتطلع عبر طاقتها الصغيرة، فرأى بقعة بيضاء على أرضية الممر. قدّروا أنه بعض أسمنت سقط من الحراس، قدّروا أنه ثعبان، هل هناك ثعبان أبيض؟ وعندما فتح الحارس أبواب الزنازين لتوزيع كمية الماء

المقررة كل يوم، مد مرزوقي يده بسرعة والتقط الشيء الأبيض، قبل أن يراه الحارس.

أغلق الحارس الزنازين وذهب.

هتف مرزوقي: فرخ حمام!

طار الخبر إلى كل في زنزانته، من زنزانة إلى زنزانة، ثم التفاصيل: شبه عار إلا من زغب. ريشه جديد وقليل، فقط على ظهره. يرتجف. ساقه مثنية ورأسه يسقط على صدره. قلبه ينبض، ينبض بشدة. جنبه متورم. سقطة كبيرة. السقف يعلو الأرض بحوالي أربعة أمتار.

صاح مرزوقي: سميته فرج!

سكب له مرزوقي قليلا من الماء في الطبق البلاستيك وتابعه وهو يشرب، ثم فتت له كسرة من الخبز، لم يقدر المنقار الصغير على التقاطها.

يحكى مرزوقي: «منذ ذلك اليوم، انقلب كل ما أقوم به. لم يعد يشغلني شيء أكثر من أن يكون فرخ الحمام بخير. وكانت أكثر الأمور حساسية ودقة هي تغذيته. كنت آخذ قطعة خبز وأبللها ببضع قطرات من الماء وأقطّعها قطعًا صغيرة وأعجنها على شكل حبة قمح ثم أتركها تجف عدة ساعات. وليأكل أمسكه بحرص من ظهره ثم أفتح له منقاره بإبهامي الأيمن وسبابتي، وأضع له حبتين أو ثلاثًا من ذلك الحب المصنوع. فيبتلعه بتلقائية وهو يضرب بجناحيه، ويزقزق طالبا المزيد. وكانت زقزقته حادة يسمعها نزلاء الزنازين الأبعد فيهتف الجميع:

«بالهنا والشفا يا فرج!»

صار مرزوقي يقتطع من وجبته الضئيلة كل ما يناسبه: حب بازلاء،

عدس، فول، الشاي الذي أحبه فرج كثيرًا وأقبل عليه بنهم. يرسل له نزلاء الزنازين الأخرى ما تيسرَ. أكل طيب، يكتفي مرزوقي باستنشاق رائحته بقوة ولا تطاوعه نفسه على تناول شيء منه. صار لفرج ثلاث وجبات في اليوم، ثم أربعة فخمسة.

يكتب مرزوقي:

«هكذا مرت الأيام وفرج يكبر بشكل رائع: قوي منقاره، وبدلا من الزغب نبت له ريش رمادي جميل، وارتسمت على ظهره بوضوح بقعة بيضاء، وشفيت ساقه تماما. وذات يوم اتجه نحو طعامه وأكل وحده. بعدها تمكن من الصعود على المصطبة الأسمنتية. شعرت بمشاعر الأب، وصرت أمضي الوقت في تأمله إعجابا به. في يوم آخر وبقفزة واحدة، رفرف بجناحيه واستقر على كتفي. أعلمت باقي السجناء فأطلقوا صيحات الفرح، حتى أولئك شبه المشلولين، أخذوا ينادونه، كل عبر جدران زنزانته لتهنئته».

راحوا يتناقشون في مستقبل فرج. هل يطلقونه في الممر الواقع بين الزنازين؟ وماذا لو أمسك به الحراس وذبحوه؟

قررت الأغلبية أن إتاحة تلك الفرصة له تستحق المغامرة:

تجمّع السجناء كل وراء فتحة باب محبسه وتابعوا مرزوقي وهو يحاول إخراج فرج من الفتحة الضيقة لباب زنزانته. ولما نجح في مهمته ورأوا فرج خائفا للحظات ومرتجفًا يحرّك جناحيه في وجل قبل أن يطلق لهما العنان، هاجوا وصفّقوا واختلطت أصواتهم المشجعة ثم بدا أن الجنون مس فرج نفسه فراح يطير في الممر ذهابا وإيابا والكل يتابعه وقد أخرجوا أياديهم من فتحات الزنازين. إلى أن حط فرج على إحدى الأيدي الممدودة له. صرخ السجين منتشيًا. تطلع فرج إلى مرزوقي ثم طار

في اتجاهه وحط على يده. أدخله بحرص قبل ساعة من موعد الحراس. وبعد أن ذهب الحراس، كان السجناء يطالبون بفرج:

«ما الذي تنتظره: أطلقه!».

كانت الأيدي ممدودة هذه المرة أيضا. تختلط صيحات الحماس والفرح بـ «تعال يا فرج، هنا هنا، تعال عندى».

ولأن فرج يخص الجميع فقد قرر السجناء أن يكون له حسابه الخاص، فدفع كل منهم ما يقدر عليه، وعبر حارس متعاون تمكنوا من شراء الحبوب اللازمة لتغذيته. وحين مرض، أذابوا له في الماء الأقراص العزيزة في السجن: قرص أسبرين وفيتامين سي.

وفي يوم ثلاثاء، يذكر مرزوقي، وبمساعدة رفيق له، قام عبر عملية معقدة بإطلاق سراح فرج من مبنى السجن.

وعندما أعلن الخبر غضب السجناء:

قال أحدهم: «ليس من حقك أن تفعل ذلك! كان عليك أن تعلمنا من قبل، لن أغفر لك أبدا ما فعلت. لقد كسرت قلبي!».

مر اليوم في صمت، والليل أيضا.

ثم في الصباح: صاح أحدهم:

فرج لم يذهب، يبدو أنه أمضي ليلته تحت سقف المبنى رقم ١، إنه يبحث عن زنزانتك!

حظي فرج باستقبال الأبطال.

صار فرج يذهب ويعود. يتابع المسجونون ما يتصورونه عراكًا مع غيره من الحمام. يرون ريشة تتطاير ساقطة أمام عيونهم. يصرخون: «الصمود،

الصمود»، يقولون مات، يقولون بعافية. يعود لهم منتوف الريش منهكًا بعد محاولاته الأولى للحياة المستقلة. وفي المرة الثالثة التي خرج فرج فيها غاب أسبوعا ثم عاد يحاول الدخول، يخاطبه السجناء:

«تشجع يا فرج، أدخل رأسك أولا بين القضبان، ثم جسدك وينتهي الأمر». والمرة الأخيرة وبواسطة يد المكنسة توصل سجين من إخراجه عبر قضبان المبنى. عاد فرج مرة أخرى. لم يكن وحيدًا، بل في رفقة إلف، حمامة بديعة الهيئة، هكذا رآها مرزوقي وسجل في كتابه: «نحيلة الجسم، رأسها صغير وريشها لامع، أنثى جميلة». هذه المرة لم يحاول فرج الدخول، كان منتفخ الأوداج، واثقًا من نفسه. خاف إلفه من صيحاتنا. طارت. بقي فرج قليلا ثم لحق بها.

يقول مرزوقي في نهاية هذا الفصل من كتابه: «الزنزانة رقم ١٠» ابتنى فرج لنفسه عشًّا تحت السقف، في مقابل الزنزانة رقم ١٠، وخلّف أفراخ حمام ثلاث مرات.

«في يوم رحيلنا، يوم ١٥ سبتمبر ١٩٩٥، ورغم ما كنت أعاني منه من صعوبة الحركة والانفعال الهائل، وهم يخرجونني من الزنزانة التي دخلتها قبل ذلك التاريخ بثمانية عشر عامًا، نظرت إلى السقف وتمتمت :

وداعا وشكرًا!

تمت في ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٧

صدر للكاتبة:

- الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني، ١٩٧٧.
- جبران وبليك (دراسة باللغة الإنجليزية)، ١٩٧٨.
- التابع ينهض: الرواية في غرب إفريقيا، ١٩٨٠.
- الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، ١٩٨٣.
- حَجَر دافئ (رواية)، ١٩٨٥.
- خديجة وسوسن (رواية)، ١٩٨٩.
- رأيت النخل (مجموعة قصصية)، ١٩٨٩.
- سراج (رواية)، ١٩٩٢.
- ثلاثية غرناطة (غرناطة ومريمة والرحيل)، ١٩٩٤-١٩٩٥.
- أطياف (رواية)، ١٩٩٩.
- في النقد التطبيقي: صيادو الذاكرة، (دراسات نقدية)، ٢٠٠١.
- تقارير السيدة راء (نصوص قصصية)، ٢٠٠١.
- قطعة من أوروبا (رواية)، ٢٠٠٣.

- بالاشتراك مع آخرين، ذاكرة للمستقبل: موسوعة الكاتبة العربية، ٢٠٠٤ (٤ أجزاء).
- الإشراف على ترجمة الجزء التاسع من موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ٢٠٠٦.



في سرد روائي جذاب تقدم رضوى عاشور سيرة «ندى عبد القادر» التي عاشت تجربة ثلاثة أجيال من المساجين؛ أبيها الأستاذ الجامعي، ثم هي شخصيًا، ثم أخيها الذي لا يتجاوز عمر ابنها المفترض. كما تعيد قراءة الستين عامًا الأخيرة بحروبها التي لم تكن أولاها في ١٩٥٦ ولا أخرها في ٢٠٠٦، مازجة كل هذا - وبعمق - مع مقولات وحكايات مثقفين مصريين وفرنسيين قاوموا هزائمهم، وآخرين قتلتهم الهزائم ذاتها.

صدر للدكتورة رضوى عاشور عن دار الشروق «ثلاثية غرناطة» (٢٠٠١)، و«تقارير السيدة راء» (٢٠٠١)، و«قطعة من أوروبا» (٢٠٠٣)، و«سراج» (٢٠٠٨)، و«أطياف» (٢٠٠٨).



دار الشروق
www.shorouk.com